حمدان حمدان

على أعتاب الألفية الثالثة

الجذور المذهبية لحضانة الغرب وامريكا لإسرائيل

على أعتاب الألفية الثالثة

* على أعتاب الألفية الثالثة - الجذور المذهبية لحضانة الغرب وأميركا لإسرائيل
* تأليف: حمدان حمدان
* الطبعة الأولى: كانون الثاني 2000 م.

* الناشر: بيسان للنشر والتوزيع والاعلام
■ ص. ب 5261-13 بيروت - لبنان
■ هاتف: 351291 - فاكس 961-1-747089

الإهـــــداء

إلى صديقي المسيحي من السوريين القوميين. إلـى الـذي هـاجر ونـأى واغترب أربعين سنة كاملـة، هربـاً مـن شـيء وكـل شـيء. ثـم أعـاده الإثـم الكنعاني.. صاغراً. ليموت في أرض كنعان.

إلى الذي كانت آخـر كلماتـه قبل رحيلـه: لقـد أصابنـا الضَّرُّ جـراء دمـج الإنجيل بالتوراة.

أما مهمتنا الصعبة، فهي نضال من أجل فصل الزّوان عن القمح.

وهو ما قاله يسوع الناصري نفسه.

مدخـــل

المكان : مدرسة دينية في غزة جنوب فلسطين

الزمان : أواسط القرن الرابع بعد ميلاد السيد المسيح

الشخوص : القديس أوغسطين والقديس يورانيم كذلك أسقف قيسارية القديس بازل

العقدة : جواز أو عدم جواز قراءة النصوص الوثنية من قبل المؤمنين المسيحيين.

ويبدو أن أوغسطين المتعطش للمعرفة والمتسامح في أصلها ومصدرها.. كان قد انتصر في معركته.

ويخبرنا تاريخ لاحق بعد انتشار المسيحية في أوروبا، أن أديرة الرهبان كانت تشهد تيارّين من قراء النصوص الدينية، أحدهما عاكف طوال يومه على قراءة المخطوطات المقدسة من قبل الوثنيين، والآخر عاكف على قراءة الكتاب المقدس. وعلى أهمية الكتب الدينية في العصر الوسيط، إلا أن العامة كانت تتلقاها من أفواه رجال الدين، ذلك أن القراءة كانت حكراً عليهم، بل لعلّها إحدى أهم وظائفهم الحياتية على الإطلاق، فالدين هو ما يقوله رجال الكنيسة لا ما يقرأه الناس، ومع انكسار النفس الإنسانية أمام الاستواء بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فإن سحراً خاصاً أسبغ على الكتاب المغلق في وجه العجز، سمات من السحر والتقديس.. مع هذه الأزمان وسابقاتها، ظلت تنسب صفات العلوية الخارقة للعديد من كتب شعوب الأقدمين، وهكذا فقد كان البابليون القدماء، والمصريون الذين يحاورونهم في التاريخ، والفارسيون والرومانيون، ينظرون إلى كتب كهانهم بعين التقديس، وكانوا يحترمونها بوازع الخوف والشقاء عبر الأجيال، حتى وكأن سحر الكتاب كان طبيب أمراضهم، إذ هو

الحامل للقدرة السحرية على الشفاء من أخطر الأمراض، وفي جوانب أخرى من خلجات النفس الإنسانية، كان الكتاب المقدس ـ بعيون الأقدمين ما قبل الكتب السماوية ـ مجلبة للحظ الباسم، ومبعدة لكل سوء مصير، وعندما تعجز المرأة عن الحمل، فإن عليها من أجل وليدها الرافض للدنيا، أن تُقبّلَ كتاب تقديسها ثلاث مرات ثم يأتي الفَرَجُ من السماء. وابتداءً من أوريغن وغيره من كتاب المسيحية في العصر الروماني القديم، نعثر على شيوع الفكرة القائلة، بأن الكتب المقدسة، كانت قد صيغت بيراع الملائكة أو القديسين، وفي موطن أشد وطأة، بيراع الله نفسه. وفي العصر الوسيط الأوروبي، استشرت روايات الاعتقاد بالألواح المكتوبة بيد الله تحت هيكل القدس المُتّخيل.. وثمة أكثر من واقعة تنسحب من ألواح الشرق في فلسطين، إلى ألواح الغرب في سالونيك، فإنجيل سبليت مثلاً الذي وجد في قبر شهيد سالونيك وحامي حمى سبليت القديس دويام، حيث قتل في العام ٣٠٤ ميلادية، هذا الإنجيل كان مكتوباً بخط يد القديس نفسه، فيما الكل يجهل كيف أمكن حفظ هذا الكتاب دون تشويه في ظل هواء كاتدرائية سبليت من القرن الرابع الميلادي وحتى العصور الوسيطة؟!.. فقد ظلّ الحكام الكرواتيون يؤدون يمين القسم فوق هذا الأثر المقدس.. ولعل من طبائع الأمور، أن الكتاب المغلق في وجه الأمية، لا يكون صالحاً للقراءة قدر ما هو صالح للتقديس أو التبجيل مهما كانت مشتملاته، ويكتسب هذا الواقع النفسي لجهالة الإنسان في القراءة، برهانه من مسيرة تاريخ الشعوب، فقد اكتسب الكتاب جلالة من نأيه عن العامة التي لا تستطيع فك طلاسمه أو فهم مضمونه، وزاد في الأمر تعقيداً، أن بعض الكتب المقدسة كانت قد ارتبطت عبر مراحل التاريخ، بأسماء الملوك أو القديسين من حاملي أساطير الميثولوجيا وما فوق البشر، وهكذا صار للكتاب المقدس في عيون الأمية العاجزة، قدرة خارقة يمكن أن تعيد للكفيف بصره وللأطرش سمعه وللجريح سلامته، (وحسب شهادة أحد القساوسة الباريسيين فإن المخّطوط الذي أهداه القيصر البيزنطي ميخائيل الثاني عام ٨٢٧ ميلادية إلى ملك فرنسا لودفيغ الطيب. والذي حُفظ في دير

القديس دنيس بالقرب من باريس، تمكن أن يشفي ١٩ مريضاً في يوم واحد* ولما كانت الكتب الشافية من اختصاصات الأديرة في أوروبا ـ العصر الوسيط، فإن قليلاً منها كان نادر الوصول إلى العامة، فوراء الجدران الشاهقة لأديرة أوروبا، كان يتم كل ما له علاقة بإنتاج الكتاب ورعايته، وداخل هذه الأديرة كان الرهبان ينسخون المخطوطات والفنانون يزينون النصوص بالرسوم، وعلى ورق الرق الباهظ آنذاك، كان يدّون موضوع الكتاب إلى أن أضحى الدير والمكتبة مشهداً واحداً لا تنفصم عراه، وقد جاء في أمثلة أوروبا القديمة، أن الدير دون مكتبه كالمائدة دون طعام، وللضرورات الكتابية فقد احتلت غرف النسخ اليدوية المجال الأرحب بين غرف الأديرة الكبيرة، كدير القديس غالين في سويسرا ودير الأب فولدا في ألمانيا، وأديرة البندكيت بين روما ونابولي ودير فيفاريوم في كالابريا، وغيرها من أديرة الأنجلو ـ ساكسون في إنكلترا وايرلندا. ومع أن المهمة الدينية كانت وراء إنشاء الكتاب ونسخه، إلا أن الكتاب بشقيه الديني والثقافي، ظلّ يكابد عناء الولادة الطويلة وبدائية الطريقة النسخية التي غالباً ما كانت على يد الكتبة، وراء اللغو والندرة والتحشية والشطب والاستزادة والتحريف..

وعلى غرار ما حَدَثَ في إيطاليا من نمو لسلطان أُمرائها المحليين، فإن الكتاب لم يخرج من مأزقه إلا على يد الألمان، فالألمان في النصف الثاني من القرن الخامس عشر باتوا قادة العالم في الاهتمام بالكتاب، ويمكن إرجاع ذلك إلى العصر الذي شهد إنشاء ثماني أكاديميات ألمانية واختراع فن الطباعة الذي فتح للعالم آفاقاً جديدة والذي يرجع الفضل فيه إلى يوهانس غنس فلايش الذي اتخذ لاحقاً لقب غوتمبرغ نسبة إلى البيت الذي ولد فيه في مدينة ماينس عام ١٣٩٧.

لقد كانت الطباعة حقاً، ثورة فجرت الطاقات العقلية البشرية في جميع أنحاء العالم، ويكفي الاستدلال بالسرعة الهائلة التي انتشر فيها هذا الاختراع بسلسلة متوالية دون التقييد حتى بحقوق الاختراع، ففي عام ١٤٦٥ دخلت الطباعة بحروفها المعدنية نفسها في باريس، وبعد سبع سنوات من باريس كانت لندن

---

* تاريخ الكتاب ـ د. الكسندر ستيب تشفيتس. عالم المعرفة، ترجمة د. محمد الأرناؤط. ص١٦٣.

تعزف على بيانو غوتمبرغ الطباعيّ، وقبل أن يؤذن القرن الخامس عشر بالانتهاء كانت الطباعة تجتاح الأراضي المنخفضة وإسبانيا واسكندنافيا بوتيرة مشابهة، ومع أن الفاصل الزمني ما بين اختراع الطباعة في ألمانيا وانتشارها المدهش في العالم، لم يتجاوز العقدين، إلا أن الكتب المطبوعة في أوروبا كانت قد تجاوزت تسعة ملايين كتاب مقابل بضعة آلاف من المخطوطات التي كان العالم قد ورثها من كل تاريخه.

ويشير تاريخ الاختراع إلى أن غوتنبرغ بعد نزاعه مع أحد ورثة شركائه الماليين في ستراسبورغ وحُكْم المحكمة لصالح الوريث المالي، عاد ليتم اختراعه في ماينس مسقط رأسه، وقد اضطر للاستدانة ثانية من مواطنه الغنيّ في ماينس، يوهانس فوست، وكان هذا الأخير طامعاً في تحقيق الكسب الوفير عبر استثمار أمواله في هذا الاختراع، وبعد أربع سنوات من العمل المضني ما بين ١٤٤٢و ١٤٤٥ تمكنت مطبعة غوتمبرغ من الوقوف على أرجلها الخشبية يحفّها عشرون عاملاً من كل جانب ومكان.

كانت النقاشات تحتدم بين المخترع وشريكه المالي العصبي حول أول كتاب تقذف به المطبعة إلى العالم، فمن أجل استرداد النفقات الباهظة، والانتقال إلى دورة الربح، كان لابد من أن يكون الكتاب (بيّاعاً) على مستوى الجمهور لا النخبة، وكما اكتشف أرخميدس ضالته المنشودة بواقعة المفاجأة السعيدة، اكتشف المخترع وشريكه ضالتهما دون تردد: إنه التوراة.

وبالفعل فقد صدر هذا العمل الضخم في مجلدين بالحجم الكبير حيث طبع النص على عمودين من صفحاته التي بلغت ١٢٨٠ صفحة، وقد دعيت التوراة المطبوعة لأول مرة بعد إنجاز الاختراع (بتوراة الـ ٤٢ سطراً) وقد اعتبرت في حينه رائعة مهنة الطباعة التي بدأت معها صفحة جديدة ابتداء من مغامرة العقل الأولى، إلى شيوع الثقافة الإنسانية بعيون العصر الوسيط في أوروبا. لم تكن أوروبا أقل حماسة من ألمانيا بالتبشير لهذا المولود الجديد، فتوراة غوتمبرغ كان لها الأهمية الكبرى في حياة الإنسان المسيحي المؤمن، وقد عبرّ أحد معاصري تلك الحقبة، وهو الإصلاحي الألماني التعليمي فيم فيلنغ (١٤٤٩-١٥٢٨) عن

رائعة غوتمبرغ وقدرتها على تحقيق الرابطة بين الدين والعلم بقوله: (كما انتشر رسل المسيح في أقطار المعمورة يبشرون بالأنباء السعيدة، أنباء ظهور المسيح، كذلك ينتشر في أيامنا هذه، رجال العلم الجديد، يحملون في أيديهم الكتب وكأنها كتب الرسل ذاتها، التي تدعو إلى الحقيقة والعلم.

وما أن سقطت غرناطة في العام ١٤٩٢ وتم طرد المسلمين واليهود على حد سواء، بعد أن أعمل السيف بيد محاكم التفتيش في رقاب الألوف منهم، حتى كان المهرة من رجال الطباعة الألمان يحدون أمكنة لمطابعهم في قلب مدينة الأندلس المنكوبة..

مع تاريخ انتشار الطباعة واحتدام تأجيج النقاشات الدينية المحمومة على نطاق قاري، كانت أوروبا تودع كامل ألفيّتها الأولى (ألف عام بعد ميلاد السيد المسيح)، على وقع اللهب والدم، فإضافة إلى مئات السنين من الحروب البينية التي لا تعرف خطّاً لنهايتها، كانت هناك أربعة حروب صليبية (١٠٩٥-١٢٠٤) اكتوت بلظاها شعوب الغرب والشرق على حد سواء، وكانت المذابح جارية على الطريق بين روما والقدس لليهود قبل سواهم، حيث استهلت الحملة الصليبية الأولى بقيادة وولتر المفلس وبطرس الناسك بواكير أعمالها الجهادية بذبح اليهود في أراضي الراين، ولم تكن مذبحة اليهود إلا تمريناً على المهمة الحقيقية التي كانوا بصددها، ذلك لأن الجيوش الشاردة التي كُتب لها البقاء بعد الزحف الطويل إلى القسطنطينية، قد بثّت الرعب في نفوس أهل بيزنطة وإمبراطورها، ونظراً لافتقارهم لأي تنظيم أو خطة، فقد كان يتساوى عندهم أن ينهبوا القسطنطينية أو القدس، لكن الطبقة الحاكمة البيزنطية نجحت بكثير من الحظ وقليل من الدهاء، في توجيه جيوش المُعدمين إلى القدس، ويقول المؤرخ الأمريكي نورمان شون في كتابه (السعي وراء العصر الألفي السعيد ص٤٨-٤٩ إصدارات هاربروراو عام ١٩٦١): ـ «ما أن سقطت مدينة القدس حتى وقعت المذبحة، فقد ذُبح المسلمون رجالاً ونساء وأطفالاً، وفي معبد سليمان وحوله، خاضت الجياد في الدم حتى الركب بل وحتى اللجام، إن حكم الله كان عادلاً ورائعا..» إن هذا المكان الذي ارتفعت من خلاله هرطقات هؤلاء المجدفين في حق الله، هو الذي يتلّقى الله دماءهم فيه الآن».

ورغم أن تعابير الكاتب الأمريكي كلها منحولة من آيات ونبوءات توراتية أكثر منها من واقع معركة تاريخية، حيث اسقاطات مفهوم الإبادة، فإنه يتابع: «أما بالنسبة ليهود القدس فحين اجتمعوا في معبدهم الرئيسي، أُضرمت فيه النيران من كل جانب وأحرقوا جميعاً أحياء، وقد سار الصليبيون إلى كنيسة القبر المقدس وهم يبكون فرحاً ويغنّون أغاني الشكر لله، فيا أيها اليوم الجديد، أيها اليوم الوليد، أيتها البهجة، أيها الفرح الدائم. خالدة ذكراه طوال القرون، ذلك اليوم الذي تترسخ فيه جذور المسيحية وتنمحق فيه أركان التحديف والوثنية».

ثمة حروب صليبية يذكرها التاريخ على استحياء، إذ هي بين الصليب والصليب، فبعد سحق مدينة (زارا) المحربة عام ١٢٠٢ ونهب وسلب بيزنطة عام ١٢٠٤ على يد فرسان الحملة الصليبية الرابعة، جرّد البابا اينوسنت الثالث عام ١٢٠٨ حملة صليبية مدججة ضد الهراطقة من طائفة الألبيين المسيحية، وذلك بالقرب من تولوز الفرنسية، هذا وقد أعمل قائد الحملة سيمون مونتفورت، الذي سيلعب دوراً لامعاً في التاريخ الإنكليزي اللاحق، أعمل سيوفه في كل رقاب الألبيين حتى لا يبقى نسمة على حد تعبير العهد القديم، ويؤكد مؤرخو أوروبا من ذوي نزاهة الضمير، أن هذه الحملة ضد آخر ألبيّ مسيحي، كانت هي الأخرى، مدفوعة بمطامع السلب والنهب والاغتصاب، (أعظم أحداث العالم ـ موريس شربل ص ٧٨).. فإذا ما كان الدين دافعاً، فثمة ما هو أقوى منه، دناءة الإنسان لا دينه، هذه الدناءة التي تزودنا بمفتاح السر لفك طلاسم مجريات التاريخ وأحداثه ووقائعه، حيث المركز دائماً في حق القوة، لا قوة الحق.

إرهاصات أوروبية قبل الإصلاح الديني وبعده

(١)

ومضات تاريخية:

ليس من السهل التقاط التاريخ الفاصل بين عصرين في برهة زمنية محددة، فالانتقال بينهما حَدَثٌ تدريجي لا يتقدم على نحو مواز أو وفق إيقاع متواتر، وبفضل قانون التطور الكمي، فإن القياس يشير إلى أن التطور في ميادين شتى، يمكن بل غالباً ما يكون أبطأ في بلد ما وأسرع منه في بلد آخر، كما أنه يمكن ألا يكون في بلد ثالث، وبالنسبة إلى القارة الأوروبية فإن التحول لم يعم أرجاءها على قاعدة الأواني المستطرقة، ففيما بعض الأقطار تشهد تحولات من نوع ما، ظلت الأقطار الأخرى تعيش رواسب العصور الظلامية التي تريد أن تطفئ ومضات العقل البشري، حيث يؤذن الانتقال بتدشين سيادة العقل على الخرافة والعلم على الأسطورة. وكأي مخاض عسير وطويل، فإن أوروبا عاشت عصورها الوسيطية تحت وطأة المعتقد الميثولوجي الذي يضرب جذره في الأرض السحيقة، ويفرض سلطانه على الأكثرية العظمى من حملة وجدان الامتثال لمواعظ التنجيم والسحر والشعوذة ومخاطبة الموتى.. حيث امتزجت الطقوس الدينية بتأويلات ما يحيط بالكون، كاختلاف أشكال القمر ومسيرة الكواكب وأسرار القوى الغامضة خلف ظواهر التكاثر والنمو، للإنسان والحيوان والنبات، وفي الكنائس الكاثوليكية منذ عهد قديم، لا تزال المباخر تتأرجح يُمنه ويسره تطارد الأرواح الشريرة التي تريد أن تحف بتوابيت الموتى كي تدفعهم إلى جحيم أبدي، أما المعجزات التي استهوت العقل الوسيط. فما زالت قائمة إلى يومنا هذا، فبدلاً من الحج إلى مزارات لورد وكومبوستيلا وكانتربري*، على ظهر

* مزارات دينية مقدسة، الأولى تقع في جنوب غربي فرنسا والثانية في إسبانيا والثالثة في إنكلترا.

الجياد أو فوق العربات، أصبح الحجيج ينتقل اليوم إلى المزارات المقدسة في قطارات السياحة أو بواسطة الطائرات أو السيارات.. وهكذا لم تفعل وسائل النقل الحديثة التي تمخض عنها العلم الحديث شيئاً إلا أن حملت أناساً لا يزالون يعيشون عقلية العصور الوسطى، حين كانت الزيارات بهدف طلب الشفاء أو الحمل أو استمطار الحظ السعيد في الدين والدنيا.

لم تكن مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع أقل غلواً من رواسب المعجزات والخوارق في مجال التقوى، فبريطانيا التي تزهو بأنها البلد الأول في تاريخ أوروبا، الذي غادر القرون الوسطى دون أسف، ظلت ترسف في مثالب وبهجة تلك القرون حتى فترة متأخرة من منتصف القرن التاسع عشر، وحتى اليوم، فإن السائح في إنكلترا لا يزال يصادف تلك الحقول المكشوفة وقطع الأرض المبعثرة التي كانت تميز الزراعة في العصور الوسطى، هذا بالرغم أن إنكلترا تعتبر من أولى البلدان في تاريخ البشرية، التي استبدلت أسلوب الزراعة الوسيطي بأسلوب ثوري مضاد ومتطور. ويعطي المشهد البريطاني فارق المقارنة مع أقطار أوروبية أخرى، ففي شرق أوروبا كان رجال الدين قد غرقوا في بحار من الجهالة والخرافة والهيمنة، ففي غاليسيا والبلقان لم يبدأ الفلاحون المضطهدون بتغيير نمط العيش المدقع إلا مع غروب القرن التاسع عشر، ولا يزال التاريخ يذكر، يوم كان أمير الجبل الأسود يقضي بين رعاياه بطريقة بطريركية، جالساً تحت شجرة على نحو ما كان يفعل القديس لويس في زمانه، ولا يزال الفارس الألباني أو الأفغاني يستثير صوراً من صور الإلياذة، وفي اليونان الحديثة، ما زال الشعب يعيش حياته الروحية باختلاطات، يستتر بعضها خلف وشاح رقيق من المؤثرات المسيحية اللاحقة، في حين أن بعضها الآخر لا يزال متشحاً بثوب إغريقي لم يتغير، فالقرابين من النقود والملح والخبز ما زالت تُقدم لآلهة الحظوظ الثلاثة، كما أن النقود التي كانت تعطى لحارس الموتى في السفينة، إبعاداً لعرائس البحر وأشباح مصاصّي الدماء، أو الأرواح الشريرة التي تسكن فوق رؤوس الجبال أو عند قيعان البحار المرعبة. وكما أن العصور الحديثة لا تقوم على أسس من نور العقل تماماً، فإن العصور الوسطى لم تبخل

بومضات من نور العقل، فروجر بيكون (١٢١٤-١٢٩٤) وتشوسر (١٣٤٠-١٤٠٠) وتشارلز ديكنز وغيرهم ممن خرجوا من عصور الظلام الإنكليزي إلى عالم النور والعبقرية والإبداع، كذلك خرج فيللون الفرنسي الذي بزّ بمنظوماته الشعرية الرائعة كل شعراء روائيّي عصره ولاحقيه، أما بترارك (١٣٠٤-١٣٧٤) شاعر إيطاليا الإنساني، فقد حذا حذو أنداده الآخرين، والحق أن حياة القرون الوسطى، لم تدع هؤلاء وغيرهم من رواد الطب والفلسفة والفلك والهندسة وجغرافيا الاستكشافات، يفلتون من العقوبة التي تستوجبها (هرطقة العلم)، وكم هي عديدة تلك الشواهد التاريخية التي تملأ صفحات الكتب عن شهداء العلم في أوروبا والعالم الآخر.

كانت الكنيسة في القرون الأولى من العصور الوسطى وحدها، ملاذ الحقيقة وجواز المرور إلى ملكوت الأرض والسماء، بهدي من التقاليد العظيمة للحضارة المسيحية الرومانية، كما كانت الوارث الحقيقي للتقاليد السياسية للإمبراطورية الغربية المنهارة، فروح المشرعين الرومان القدماء، ظلّت حيّة ومؤثرة في قوانين الكنيسة التي كانت المحاكم الكنسية تُطبّقها في بقاع العالم المسيحي اللاتيني، وقد ظل التفكير الأوروبي بمحمله، يقوم في الجامعات والمدارس وخارجهما، على يد طوائف الرهبان في نطاق النصوص المقدسة، وما يتفرّع عنها من فلسفات مثالية وآداب اجتماعية وإبداعية، ولما كانت العلوم بأنواعها، ما زالت في عالم المجهول، فقد حاول الذكاء البشري، من نقطة الصفر العلمي، أن يجد تفسيراً لظاهرات ما يجري في عالمين، عالم الطبيعة وعالم الإنسان، ومن بدء التكوين كما هو في أسفار موسى، وحتى النظريات الفلسفية والسياسية السائدة في أوروبا القرون الوسطى، فإن السيادة ظلت في مكانتها الأولى كما ورثتها أوروبا عن القواعد الأساسية للإمبراطورية الرومانية، أما الانشقاق الديني الذي تمخض عن هزيمة روما أمام قبائل الواندال عام ٤٥٥ ميلادية، فقد أفضى إلى مولودين برأس ثالث، إمبراطورية دينية غربية لاتينية، وأخرى شرقية يونانية، وأما الرأس الثالث فكان نتيجة من لقاح الإمبراطوريتين المذكورتين في بيزنطة.

كانت الإمبراطورية الغربية اللاتينية، قد ورثت روما وكانت الأخرى الشرقية اليونانية قد ورثت عالم الإغريق، وما بين روما وأثينا، كان المسيح يتحول معّذباً بين أنانية الفرد وخلاص المجموع، فسقراط الآثيني الذي توفى قبل ظهور السيد المسيح بأربعة قرون، لـم يكـن بوسعه أن يتصور الحرية الفردية خارج نطاق المجتمع أو الجماعة، فالحرية بالنسبة له، تعني نوع الحياة الممكنة في المجتمع السياسي، وخاصة في المدينة اليونانية، وقد جرى الاعتقاد أن الجماعة هي مصدر الفضيلة كلها، ولا يمكن أن توجد أخلاقيات يمكن للتاريخ أن يتغّنى بها، خارج وجود المجتمع، وتعني الكلمة اليونانية التي تفيد حياة الاشتراك في الجماعة، ذات المعنى الذي تعنيه كلمة الحياة، وهكذا فإن الحياة الإنسانية لا يمكن أن تستوي خارج الجماعة الإنسانية نفسها، وقد وضحّ أرسطو تلميذ أفلاطون، جماعية الحياة بتعريفه الإنسان على أنه حيوان اجتماعي ناطق، وفي المحصلة فإن الدولة اليونانية كانت على غير تصالحٍ مع الثقافة الفردية، أما روما فقد تقبّلت أنانية الفرد على أنها جزء من طبيعة الإنسان نفسه، ولما كان المجتمع الروماني أكثر وعياً بالمال وتوجهاً إلى الكسب والتجارة، فقد كان بوسع الروماني الطموح أن يترفع بأثرته الفردية من الأسمال إلى الأموال، أو كما يقول الروائي الروماني بيترونيوس، عن بطل روايته تريمالكيو (من الملاليم إلى الملايين)، لقد كان بمقدور الفرد الروماني أن يجد فرصة نجاحه بمجهوده الخاص حتى ولو أن هذا المجهود كان على حساب عذاب الآخرين، فروما كإمبراطورية شاسعة، قدّمت فرصاً لا تحصى للاستغلال وإحراز الشهرة الشخصية، لأعمال التاجر أو رجل الدولة أو الجندي، وكان مجال المناورات الاستغلالية واسعاً عريضاً مع أفق الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، والمسافة الشاسعة بين الروماني وحكومته لم تبق له أكثر من طاعة أمبراطوره، أما اليوناني فكان يشعر بحميمية الصلة التي تربطه مع دولة ـ مدينته المسوّرة.

إن هذا النوع من الفردية الأنانية العدوانية في إمبراطورية الرعية الرومانية، يبدو عصرياً بالنسبة إلى أوروبا القرون الوسطى، وما كان ينقص روما القديمة، أكملته روما اللاحقة بتوسيط الصليب، وها هي عقلية استثنائية توسعيّة مادية تطغى على

الكهنوت رافع الأباطرة والملوك، وها هي إمبراطورية تريد التهام كل شيء، من فاوست الذي يريد التهام كل المعرفة، إلى دون جوان الذي يريد التهام كل النساء، إلى هيث كليف الذي يريد أن يتحدّ مع معشوقته اتحاداً كيميائياً، إلى دراكولا الذي يريد لعق دماء كل نسائه، إلى دون كيشوت الذي يبحث عن الفضيلة بقتالٍ مستميت مع الطبيعة ومخلوقاتها حيث سفر التكوين يقول في إصحاحه الأول: «أثمروا وأكثروا وأملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وكل حيوان يدب على الأرض».

لقد ظلت فكرة إمبراطورية مسيحية موحدة بين غربية لاتينية وشرقية يونانية، تراود خيال القارة على مدى القرون، وعلى الأقل، فإن الكنيسة اللاتينية اعتبرت نفسها بأنها الكل الذي لا يتفتت والحب الذي لا يفنى، وكانت النتيجة أن أُعتبر البابا بأنه الحارس الأعلى للعقيدة والأخلاق على الأرض، وأصبحت كلمته، وقد علت فوق خرائب الدمار والعنف والدم آيات من الفوضى التي تكاد تعصف بأركان الحياة دون تمييز بين مؤمن وكافر، أصبحت كلمة البابا هي الصوت الحاسم الذي يدعو الحكام والرعايا إلى اتباع ناموس العدالة والسلام والتحلي بفضائل الدين التي تتكشف لهم بآيات الخلق والتكوين وظواهر السماوات والأرض وما بينهما.

ورغم أن البابا نفسه، ظلَّ يعظ حتى آخر زمانه في العصور الوسطى، فإنه لم يكن حيادياً في غمرة المعارك المشؤومة بين الأطراف، بين الغني والفقير، والجاهل والمتعلم، والنبيل والعبد والإقطاعي والفلاح، خاصة وأن الأكثرية الكاثرة من المسيحيين في أرجاء الأرض الغربية، كانوا يعيشون تحت وطأة تأثير الإمبراطورية الرومانية، وقد كادت روح العنف الرومانية المصحوبة برائحة شواء الآدميين أن تميت قلب وروح الإنسان المسيحي المؤمن، فأوروبا الرومانية صاحبة النسخة الدموية من مسيح التوراة، ما انفكت تحرق نفسها وغيرها وترقص على لهب النار الأحمر، فبعد قطع رأس يوحنا المعمدان باغواءات سالومي، وعلى يد ملك اليهود حيرود أنتيباس، وإصدار الحكم بصلب السيد المسيح، كان نيرون يحرق روما عام ٦٤ ميلادية، ويعزف على أوتار قيثارته لحن

الوداع الحزين، وكان الإمبراطور تراجان قد حطم العالم من حوله ليحلّ سيّداً لا يُجارى فوق عرش روما، وبعد قرن من الزمن، اتجه القوط نحو اليونان فتركوا مدنها وقراها كعصف مأكول، وعام ٤١٠ ميلادية اخترق القوط أسوار روما وتركوا المدينة قاعاً صفصفاً في ثلاثة أيام من احتلالهم لها، وبعد نيف وثلاثة عقود أي في العام ٤٤٧ ميلادية غزا آتيلا الهوني بلاد الغال (فرنسا اليوم) وبات يعْرَف (بسوط الله) المسلط على رقاب المارقين، وما عتم نصف قرن على الغروب بعدها، حتى أخضعت الجزر البريطانية لغزو أنجلوساكسوني شامل، وسالت الدماء فوق سهول سويندون في معركة فونت بادون، ومع فاصلٍ دموي إسلامي ـ روماني وفارسي في الشرق، عادت أوروبا تأكل نفسها مع شارلمان وحروبه في اسبانيا، وما أن هدأ شارلمان بموته، حتى كانت حملات الفايكنغ الدموية تلطخ جدران القلاع في بريطانيا وفرنسا، ومع اغتيال ملك بريطانيا إدوارد الذي عرف بالشهيد ٩٦٣-٩٧٨م خيضت ثلاثة حروب ماحقة طمعاً بعرشه بين النورمانديين والنرويجيين والساكسونيين، وكما كان على أباطرة الرومان حماية أجساد شعوبهم، كان على الباباوات حماية أرواحهم، فالحروب الصليبية ابتدأت مع البابا أوربان الثاني في مجمع كليرمونت عام ١٠٩٥ تنتهي عام ١٢٠٤ بسخط البابا الشديد، إذ قامت هذه الحملة (الصليبية الرابعة) بالاعتداء على الشعوب المسيحية في المجر وبيزنطة، وإلى أن يحين موعد التاريخ مع ملك إنكلترا هنري الثامن وشجاره مع البابا بخصوص طلاق كاترين الأرغونية والانتقال من الكاثوليكية إلى البروتستانتية، مع ما رافق ذلك من قطيعة كاملة مع كنيسة روما، يكون الزمن قد دار دورة كاملة على طريق اكتشاف العالم الجديد (أمريكا) وانتشار الكتاب المطبوع وازدهار الكشوف البحرية والجغرافية والفلكية والطبية..

كانت حركة الاحتجاج قبل طروحات مارتن لوثر ١٤٨٣-١٥٤٦ بنيّف وقرنٍ من الزمن، تحمل روح التمرد ضد الكنيسة البابوية سواءً أكانت في روما أم بعد انتقال مركزها إلى أفنيون في فرنسا، ولم تكن بوادر التمرد التي نشأت من بين أصابع أستاذ اللاهوت في أكسفورد جون ويكلف ١٣٢٠-١٣٨٤، تنصب على انغماس الأساقفة في الشهوات، لأن طبيعة الإنكليز أنفسهم، تتعمد الانحراف

والاعتراف، بل لعل السبب الحقيقي كان يكمن في مقاومة مطامع رجال الدين في الكنيسة التقليدية، هذا وسيحدب جون ويكلف على كتابة المجلدات في المنطق والجدل والوعظ والفلسفة بلغة لاتينية صريحة تدعو إلى فصل إنكلترا عن الكنيسة في روما.

انطلق ويكلف في فلسفته الدينية مقتفياً أثر شيخ الفلاسفة المسيحيين توما الإكويني ١٢٢٣-١٢٧٤، من مبدأ الإيمان بالجبرية ـ القدرية، وأن سعادة الإنسان وشقاءه مقدران عليه وليسا من صنعه، أما العلاقة بين الإنسان وخالقه فلا تحتاج إلى وسيط، فولاء الإنسان لله وحده لا للكنيسة، وقد كان المسيح زاهداً في حطام الدنيا كذلك نحا حواريوه طريق الخلاص من بعده، وقد خلص ويكلف إلى الاستنتاج تبعاً لطريق السيد المسيح، بأن (كل كنيسة وكل قس يمتلكان شيئاً فإنهما يعصيان أوامر الله) وهكذا كان إصلاح ويكلف المنشود واضحاً في أساسه، فهو يتلخص في أن (تتخلّص الكنيسة ورجالها من الأملاك الدنيوية). وذهب ويكلف إلى أن خيرات الله في الدنيا يجب أن تكون مشاعاً لجميع المؤمنين، أما الاستئثار واحتكار النعيم فقد نجما عن الخطيئة الأولى ـ وقد اعتبر أسقف لندن الذي سمع مواعظ ويكلف وقرأ مخطوطاته، أن ويكلف انضم إلى قافلة المارقين وقام الأسقف الذي تملكه الغيظ بتحريض البابا عليه لكن الملك إدوارد الثالث وقف مع البرلمان إلى جانب ويكلف وحماه رغم فتوى البابا بمحاكمته. لقد كان إدوارد مدفوعاً في موقفه من الكنيسة البابوية بعوامل الثروة الضخمة التي تمتلكها الكنيسة فيما كانت خزينته تشكو الخواء، وكانت أول محاولة للانشقاق الرسمي عن الكنيسة الرسمية في إنكلترا، وغدا ويكلف صوت الملك وسوطه على الكنيسة والأحبار، وينقل ول ديورانت صاحب قصة الحضارة بعضاً من منشورات ويكلف المعادية للكنيسة فيقول: بعد فتوى البابا بمحاكمته وحماية الملك إدوارد له، راح ويكلف يطلق صرخاته الساخرة من الأديرة التي غدت (مأوىً للصوص وجحوراً للأفاعي وبيتاً للشياطين) وفي هجائه للأحبار (إنهم يخدعون الناس بصكوك الغفران الزائفة وينهبون بذلك أموالهم.. إنهم يدنسون أعراض الزوجات والراهبات بكل ضروب الفسق والفجور.. ويقصّون على الناس أنباء المعجزات الكاذبة، وهم نهابون خبثاء، ثعالب ماكرة،

وذئاب ناهشة، نهمون شرهون وشياطين قردة). وفي ندائه للشعب، دعا ويكلف إلى تجريد الكنيسة من المال والسلطان ورد أموالها إلى الدولة، كما حرّض العامة على عدم الاعتراف أمام القساوسة (بل العودة إلى التوبة الطوعية التي هي اختيار ذاتي بين الإنسان ونفسه، يرفعها المخطئ إلى خالقه دون وسيط، ليظل الإنسان عبداً لله، لا لرجال الدين) وقد أنكر ويكلف العشاء الرباني فقال (لا صحة لهذا العشاء، إذ لا يُعقل مهما بلغت الخرافات، أن يحيل هذا العشاء، الخبز المقدس إلى جسد المسيح ودمه) (المصدر السابق). مع وفاة الملك إدوارد الثالث في اسبانيا، ارتقى العرش الملك الشاب ريتشارد الثاني عام ١٣٦٧، حيث كانت إنكلترا تخوض حرب (المئة عام) ضد فرنسا، وفي عام ١٣٨١ وصل الهياج ذروته في أوساط الفلاحين الإنكليز نظراً لإقرار الحكومة ضريبة الرأس، واحتشد الفلاحون بزعامة وات تيلر يريدون الزحف على لندن، وقد خشي الملك، أمام اضطرام الأحداث الخارجية والداخلية، من استرسال ويكلف في غلوائه ضد الكنيسة ورجال الدين، فأمر بطرده (إرضاء للكنيسة) من جامعة أكسفورد، فعكف ويكلف في منزله يعزي نفسه بترجمة الكتاب المقدس إلى الإنكليزية، وقبل أن يهمّ الملك بتسليم ويكلف إلى البابا أوربان السادس في روما غادر ويكلف الحياة قبل تسليمه.

لم يتسن لحون ويكلف أن يقرأ الحرف المطبوع الذي كان مفخرة الاختراع الألماني على يد غوتمبرغ، إذ بعد وفاته بعقود قليلة، كانت الطباعة التي مهدّت لصناعة النشر، تجد رواجها في أرجاء أوروبا، وقد كان من نتائج انتشار الطباعة، تضاعف عدد الجامعات والمدارس وشيوع روح البحث العلمي والإنساني إلى درجة لم تشهدها أوروبا من قبل، وعلى الرغم من أن الثقافة الألمانية لم تكن تمتلك جذور الثقافات الكلاسيكية التي انتشرت في إيطاليا عن طريق تغلغل الثقافتين اليونانية واللاتينية إليها، إلا أن الثقافة الألمانية وراء مرحلة الطباعة، أصيبت بالعدوى المتفشية في العلوم الإنسانية التي راحت تفحص طبيعة العلاقة بين العلم والدين، وكان للطلاب الألمان الذين تخرجوا لتوهم من الجامعات الإيطالية، أكبر الأثر في ازدهار علم الأنسنة في الجامعات الألمانية، وقد توصل تريثميوس من خلال معارضته الدين بالعلم، إلى القول (لقد ولت إلى غير رجعة

أيام تشييد الأديرة المحمومة، أما أيام هدمها، لبناء دور العلم فوق أطلالها، فباتت وشيكة)، أما أبرز علماء الإنسانيات الألمان كونرادو سيلتس، فقد انتهى إلى التشبب بمحبوبته على أنها الثواب الأرقى من السماء إلى الإنسان فما (أحلى من العذراء التي تنثني في أحضانك لتبدد همومك) وكان موتانيوس زميله في علم الإنسانيات، يعارض صراحة قداس الموتى، كذلك طقوس الصيام وعادات الاعتراف أمام الآباء ويقول (من يدري؟ لعل المسيح لم يمت على الصليب، ومع ذلك فإن بركات الكنيسة ما زالت تحفه حتى اليوم!...)

مع ذلك فإن هذه النماذج الألمانية وسواها، ممن آثروا طريق الشك على اليقين بالتسليم، كانوا قد مهدّوا لطريق الانشقاق عن الكنيسة الرسمية.

كانت الكنيسة الألمانية أرحب صدراً من كنيسة روما لتقبل الصخب والشك والحوار والنقد، وقد تحملّت كثيراً أولئك الذين يلهون بالسخرية من صكوك الغفران، حتى أن أشد القساوسة زهداً ونسكاً، لم يستنكر حق زميله (القس الآخر) من أن يتخذ خليلةً له، أو التمتع بطيّبات الحياة دون تكدير، فما أن لاحت شمس الإصلاح الديني في الأفق حتى كان الأوغسطنيّون أشد الرهبان تأثراً بلوثر، غير أن رهبان المدرسة الأوغسطينيّة كانوا قلة نادرة أمام كثرة من الرهبان المنغمسين في الفواحش والجشع، فرغم أن أملاك الكنيسة الألمانية كانت تساوي ثلث الأراضي الألمانية الخصبة، ومع أن كبار الكهنة كانوا ينعمون مع الأباطرة ورجال الدولة، بثراء أسطوري، إلا أن الكنيسة الألمانية تدعمها البابوية في روما، ظلت على غيّها في فرض الهيمنة حتى على الأباطرة، وحقها الإلهي الذي يمنحها شرعية تنصيبهم وعزلهم، أما التجار فضلاً عن عامة الشعب، فقد برموا من مطالبة الأديرة بإعفائها من الضرائب، فيما تذهب ضرائب الشعب وطبقة التجار إلى خزائن البابوية التي ينعم بها الكرادلة والأساقفة، وتُجهّز بها الحملات الصليبية الخاسرة، وقد صارح الإمبراطور ماكسيمليان شعبه حين قال:

(إن البابا في روما يعتبر الألمان برابرة أغنياء وأغبياء، لهذا فقد سحب من ألمانيا دخلاً يزيد مئة مرة عما يستطيع الإمبراطور نفسه أن يجبيه من الشعب).

وتضيف قصة الحضارة لكاتبها وول ديورانت (إيجاز د. غازي طليمات ـ دار طلاس ـ القسم الأول ـ الاصلاح الديني ص ٢٤): (لقد كان الجشع أسوأ ما

أُخذ على الكنيسة، إذ كانت تمتلك نصف الـثروة الألمانيـة وثلاثـة أربـاع الـثروة الفرنسية وثلث الولايـات الإيطاليـة، وكـانت أمـوال الكنـائس تـأتي مـن الوصايـا والأراضي التي يتم وقفها والأراضي التي يحييها الرهبان ورجالهم فتصبـح خالصـة للكنيسة، وهناك ثاني هذه المآخذ التي تتصل بـالتحلل مـن قيـود الأخـلاق، فقـد اعتاد الأساقفة حياة الترف والمجـون، وأصبحـت مجـامع رجـال الديـن مواخـير الفُجّار - إذ أن شيوع الفاحشة بيـن الكهنـة كـان بسـبب الرهبنـة الإلزاميـة، وقـد اضطر هؤلاء إشباع غرائزهم بالزنا، وشجّع العامة فواحـش هـذا السـلوك، إذ رأوا فيه حمايةً لبناتهم وزوجاتهم، وثالث هذه المآخذ بيع المناصب بالرشوة، وكانت تضطرد علواً مع علو المنصب الديني المُشترى، وكان الظافرون بهـذه المنـاصب ينفقون أموالاً طائلة لقناعـاتهم بـأن مـا يبذلونـه سيحصلون علـى مقابلـه أضعافـاً مضاعفة.. وقد حرص الكرادلة والقساوسة علـى الظفـر بمنصـب أو أكـثر لتنويـع مصادر ارتزاقهم.. والمأخذ الرابع كان يأتي مع صكوك الغفران، وفحوى المسألة أن للكنيسة الحق فـي التكفير عـن خطايـا المذنبيـن، ولا يتـم الغفـران إلا بتـبرع المذنب لمؤسسات الـبر أو بزيـارة القديسـين أو الاشـتراك بـالحملات الصليبيـة، فمتى أنجز الآثم هذه المطاليب أو بعضها أعطته الكنيسة صّكاً يُنجيّـهِ مـن عـذاب المطهر يوم القيامة، ثم تطورت آليات بيع الصكوك حين أصبحت فـي يـد الباعـة الطوّافين يبيعونها (نظير جرعـة خمـر أو استئجار عـاهر أو حـب مُدّنـس) فكـأن الكنيسة تريد التكفير عن الخطايا بالخطايا، ولهذا اتهمـت الكنيسـة بأنهـا تسـتغل سذاجة الناس استغلالاً يُحلّلها بالعار، والمأخذ الخامس بيع الدعـوات والصلـوات على الموتى، ولما كان الدافع من المنتمين إلى عالم الأغنياء فقد اشـتكى الفقـراء (أن من يملك المال يستطيع أن يبتاع لذويـه الموتـى أرضـاً فـي الجنـة) وسـادس المآخذ تمييز رجال الديـن أمـام المحـاكم الدينيـة، فقـد سنّتْ الكنيسـة تشـريعاً يُحصن رجال الدين من المقاضاة حتى ولو كانت التهمة ثابتـة، وقـد أضـرم هـذا التشريع نيران الثورة ضد الكنيسة حتى غدا رجل الدين مـن أشـد المشـاهد تنفـيراً من الدين). لقد بدت المساوئ المتصلة بالحكومة البابوية وبالكنيسة على جـانب كبير من الخطورة، ونظراً للتعقيدات التراتبية على السُلّم الكهنوتـي، فقـد غمـرت الرغبة صدور المؤمنين بمسيحية أكثر بساطة وأعمق روحانية، كما ظهرت شهوة الأمراء من أنصـار العلمانيـة الذيـن سـال لعـابهم حيـن رأوا أو سـمعوا عـن ثـروة

الكنيسة، وتحاوبت مرامي الإصلاح الديني مع تصاعد المد القومي حيث تحولت البابوية نفسها إلى دولة إيطالية، وكانت هذه البواعث مجتمعة، تسير جنباً إلى جنب مع بوادر قوية من التحرر الفكري، بحيث أن آلاف الجداول النقدية والشكيّة والاحتجاجيّة ظلت تتجمّع على مدى أجيال من الزمن لتشكل في النهاية نهر الثورة الصاخب، وهنا طرح الفكر العام أوضاع الماضي، ثم بدأت القيود القديمة التي كانت تكبل الفكر وتقيّد المعرفة. تأخذ بالتهاوي، وطرأت على أوروبا روح من التنّور المتقّد توجه سخريتها وازدراءها للمساوئ والخرافات، ولم تقتصر حركة التنوير على بلد دون آخر، فكان ميكيافيلي وفاليلا من إيطاليا، وفون هوتن من ألمانيا وزونجلي من سويسرا ورابليه من فرنسا ومور من إنكلترا وأرزميس من هولندا وكان بعض هؤلاء ينتمون إلى مدرسة الشك، وكان بعضهم الآخر مخلصاً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية وانحاز الآخرون إلى صف الثورة حين حلّ الشقاق.

ورغم أن حركة التنوير في القرن السادس عشر. كانت حركة قائمة بذاتها ومتميزة تماماً عن الحركة البروتستانتية فإن الأولى كانت من العوامل القوية التي قادت إلى إنجاح الثانية، وفي المحصلة، فقد أضعفت نتائج التحصيل العلمي الجديد، كل ميل تقليدي لتقديس العقائد والعادات والتقاليد التي ظلت سنداً للكنيسة الرومانية منذ قرون وقرون، وتمكّن الرجل الخارج من دور العلم أن يقرأ بنفسه ولنفسه، لا بلغته الأصلية فحسب، بل وباللغتين الإغريقية والعبرية أيضاً، وبذلك تسنى له أن ينفذ إلى اللغتين الأصليتين اللتيّن كان الكتاب المقدس قد كُتب بهما، ولم تعد نسخة الإنجيل المخطوطة باللاتينيّة منذ القرن الرابع الميلادي هي كتاب الدين الأول، إذ هناك نصوص أقدم منها وأكثر قدسية باتت في متناول الباحثين والناس، ولم يعد الأكليروس اللاتيني وسيط اتصال الإنسان بخالقه، بل ظهرت الفكرة القائلة بأن المتعلم يستطيع الاتصال بربّه دون وساطة من أحد، ومن الطريف أن هذه الحركة النهضوية الحادة، وجدت صداها بل وعثرت على ضالتها في جموع أشد الناس وزعاً، وأكثرهم تحلّلاً من جهة أخرى، على حد سواء! ففي ألمانيا انطلقت فرق المعمّدين التي تنكر على الناس عقيدة تعميد الأطفال، وتطرح كل ما في النظام القديم من قيود أخلاقية، وهناك

فرقٌ أخرى كانت على النقيض إذ تقمصّت روح الرواقيّة المسيحية التي أشاعتها حكومة جون كالفن في جنيف بسويسرا، هذا وستنطبع مرحلة أوليفر كرومويل الإنكليزية (١٥٩٩-١٦٥٨) بالطابع الكالفيني التي تأثرت به ضد الكنيسة التقليدية، وستحمل هذه الروح نفسها مع الهاربين إلى الطرف الآخر من الأطلنطي حيث ستسود المسيحية روحٌ ببوريتانية جديدة (المتطهرون) إلى بر العالم الجديد في القارة الأمريكية. لم يترك حملة النهضة الدينية الجديدة، ما كان يكتنف الكنيسة الرومانية من طقوس وصور دينية فنية بديعة، بل كان بمقدور المصلحين أن يقدموا فنوناً شعائرية أكثر إغراء، منها على سبيل المثال، تراتيل الكنيسة الجديدة ولذّة الاشتراك في صلاة تحمل لغة مفهومة من جميع المستويات، ولم يكن التحديث شيئاً سوقيّاً، بل إن كثيراً منه، سواءً على صعيد الموسيقا أو اللغة، كان على مستوى إبداعي رفيع، فإنجيل لوثر وإنجيل تاندل الذي تم تهريبه إلى إنكلترا، وكتاب صلوات كرانمر والترجمة الفرنسية لكتاب كالفن في أصول الديانة المسيحية.. وكل منها في لغتها، كانت مقطوعات رائعة من النثر الفني الأخاذ، ويستأثر مارتن لوثر من بين هؤلاء بمواهبه الزاخرة ككاتب، كما يستأثر بشغفٍ موسيقيٍ ألماني أصيل، وقد شكلّت الموهبتان تكوين الرجل إضافة إلى عمق معارفه وحيوية طاقاته، وإنه لأمر كبير الأهمية بالنسبة لتاريخ الإصلاح الديني البروتستانتي، أنّ من بين رعيله الأول من الرواد، ممن أوتي حدة المزاج وحضور البديهة وأصالة العبقرية. ما جعل لكتاباتهم سلطاناً ما يزال يحرك أفئدة المؤمنين بهم حتى إلى يومنا هذا، وقد ينقّب المرء عبثاً في آداب أوروبا مع القرون الوسطى، فلا يجد رجالاً مضروبين بريشة الفنان مثلما يجد في نماذج من أمثال وليم تاندل وجون كالفن ومارتن لوثر وغيرهم.

(٢)

لوثر وحركة الإصلاح الديني:

كانت حركة الإصلاح الديني تقدم نفسها كاحتجاج عنيف ضد الكنيسة المهيمنة على الملوك والأباطرة والشعوب منذ قرون، ولم يكن مارتن لوثر ابن الفلاح الفظ هانز، ليستطيع أن يكون غير ما هو في بيئة عائلية يستخدم ربُّها

العصا ويستنجد بالعفاريت كي يمتثل الجميع لأسلوب تربيّته، ومن بين سبعة أخوة، فقد حظي لوثر وحده بالقسط الأكبر من العقوبات إذا كان الابن البكر لأبيه، وفي المدرسة الابتدائية في مدينة مانسفيلد، جُلد لوثر خمس عشرة مرة في يوم واحد لأنه أخطأ في النحو والصرف، وفي جامعة ايرفورت، بعد رحلة عناء في المدارس الثانوية، درس لوثر اللاهوت والفلسفة، فشغف بالدراسة الأولى وكره الثانية مُشبّهاً إياها بروث البقر، وفي مقتبل شبابه انتسب إلى كنيسة الرهبان الأوغسطينيين التي تؤمن بانبعاث المسيحية من أرض الديانة اليهودية القديمة مع فارق أن خلاص النفس سيكون خلاصاً ذاتياً لا قبلياً بمقولة (شعب الله المختار)، فالإنسان عندما ولد، كانت روحه الخاصة قد ولدت معه، فهو مسؤول أمام الله عن رعاية هذه النفس، وبعد الموت، فإن الإنسان سيكون مسؤولاً عما فعله هو نفسه، وليس على ما فعله غيره، وأما عن (الأرض الموعودة) التي درج عليها أسلاف اليهود، فإن أتباع المسيح الأوائل قالوا بأن (مملكة المستقبل قد لا تكون في هذا العالم أصلاً)، وفي فلسفة أوغسطين (حوالي ٤٠٠ ميلادية) فإن معرفة الله لا تستقيم قبل معرفة الذات، وهي محاولة جريئة لاستبطان النفس وما يجري في أغوارها من آثام. وقد آمن أوغسطين بأن الروح المسيحية لا يمكن أن تتطهر إلا من خلال الاعتراف، لا بالدعاء أو التقرب بالقرابين، حيث الخطيئة هي فساد النفس الإنسانية قبل أن تهتدي بالمسيح. وقد وقف أوغسطين شيخ الكنيسة الكاثوليكية الأول، موقفاً مجازياً لا حرفياً في تأويل التوراة، وهذه التفسيرات المجازية هي التي أصبحت الأسلوب الرسمي للتفسير التوراتي كما وضعته الكنيسة الكاثوليكية الرومانية منذ أوغسطين، فوطن اليهود في أرض التوراة، كان للعبرانيين القدامى من أنبياء الله لا لقتلة المسيح من اليهود اللاحقين، فالله طرد اليهود من فلسطين إلى منفاهم في بابل عقاباً على الإثم الفظيع الذي ارتكبوه بحق المسيح مُخلّص الإنسانية، وعندما أنكر اليهود أن عيسى هو نفسه المسيح المنتظر، نفاهم الله ثانية على يد روما، وانتهى ما يُسمى الأمة اليهودية إلى الأبد، لذلك فإنه في الكاثوليكية، ليس لليهود أي مستقبل جماعي في أرض فلسطين، أما خلاصهم الروحي فلا يكون إلا بالارتداد إلى المسيحية.. وبخصوص النبوءات المتصلة بعودة اليهود إلى فلسطين، فقد فسرت المدرسة الأوغسطينية الحدث على أنه جرى وانتهى، فقد قام قورش ملك فارس بإعادتهم إلى فلسطين فعلاً حين

تحقق ذلك في القرن السادس قبل ميلاد السيد المسيح. أما النبوءات اللاحقة التي تبشر بشروق إسرائيل جديدة، فهي للكنيسة المسيحية الحقة التي هي الوريث المستقيم للديانة العبرية، ولم يطلق مسيحيو أوغسطين والكنيسة الرسمية من بعدهم، اسم صهيون على مدينة القدس، بل اعتبروها المدينة المقدسة (للعهد الجديد)، وبقيت فلسطين في حياة وخيال مسيحيي القرون الوسطى، جذوة الوجهة والتوجه، لا لمكاسب تجارية ـ اقتصادية فحسب، بل لغسل الروح من آثامها، وكان الحجيج المسيحي إلى فلسطين، يعود وفي خواطره مشاهد رائعة عن حكايات خيالية تلوح في رؤى النائم، أكثر مما تجري على أرض الواقع، ولولا حملات الحجيج الجماعية من أوروبا إلى فلسطين، لخبا الاهتمام بهذه الأرض النائية.. كانت أوروبا قبل مارتن لوثر، الذي سينقلب هو بدوره على اليهود، لا تعتبر بأن اليهود هم الشعب المختار، وكما تقول الكاتبة الأمريكية هيلاري بولوك تحت عنوان (اليهود) (المطبوع في مدينة بوسطن عام ١٩٢٢ ص٢١٠): فإن أوروبا كانت تعتقد (بأن الله إذا ما اختار اليهودي لأمر ما فإنه للعنه، فاليهود كانوا يعتبرون من الآثمين المارقين، ويوصمون بأنهم قتلة السيد المسيح، ولم يكن هناك ذرّة من توارد عاطفي مع المجد القديم للجنس العبري، كما لم تكن بارقة أمل في إعادة بعث اليهود روحياً وقومياً، ولم تكن هناك أدنى فكرة مسيحية تقول بتملك اليهود لفلسطين، وكانت الصهيونية غير اليهودية (أي المسيحية المتهودة)، غائبة تماماً عن أوروبا في العصور الوسطى، وكانت إسرائيل تعني مجرد ديانة، بل وديانة دنيا، ولم يكن هناك أية فكرة يمكن لها أن تعطي لإسرائيل صفات قومية).

كان مارتن لوثر، كمؤسس لحركة الإصلاح البروتستانتية (الاحتجاجية)، مسؤولاً من الناحية التاريخية بل والدينية، عن تخصيب الأرض الأوروبية ـ المسيحية لازدهار بذور الصهيونية في الديانة المسيحية، ويقول ديورانت في قصة الحضارة ـ الإصلاح الديني (صفحة ٢٤٩ من الترجمة العربية د. غازي طليمات ـ دار طلاس) (بأن لوثر في تصوره للخالق كان يهودياً، فالله عنده صاحب جبروت وانتقام يهلك البشر بالطوفان ويحرق مدينة سدوم الفلسطينية بالنار والكبريت، ويوم القيامة في لاهوته شديد الهول) ويتابع ديورانت (وعندما سأله أحد المشككين أين كان الله قبل أن يخلق العالم، أجابه بعصبية الفلاح الألماني، لقد كان يبني جهنّم للأرواح الشريرة من أمثالك!..).

كان لوثر سوداوياً في لاهوته، رغم أنه أقام الدنيا في احتجاجه على الكنيسة الرسمية، فقد آمن بأن الشياطين تملأ الأرض، وتتقمص أجساد القردة والثعابين، وتسبب الأوبئة وتهلك البشر، ومن لاهوته أن الإنسان شرير بطبعه، حتى أنّ التقيّ قد يغلب شرُّه على خيره، ومن المفارقة أن الخلاص في مفهوم لوثر، لا يأتي من خلال العمل الصالح بل يأتي من تضحية المسيح الذي (يحمل خطايانا جميعاً) فالشر عنده قدر مقدور لا يمكن زحزحته (وعندما يغوينا الشيطان بإلحاحٍ مزعج فقد يكون من الحكمة أن نستسلم له) أما الإيمان عنده فهو منحة إلهية للإنسان قبل أن يولد، (فالله خلق البشر وقدّر من اصطفاهم للسعادة الأبدية، أما الباقون فقد تركهم محرومين وملعونين)، وقد وضع لوثر عمل الإنسان فوق عبادته (فالرجل الذي يجر المحراث، والمرأة التي تجهد في المطبخ وتربية الأولاد، يعبدان الله أكثر مما يفعل الراهب في الكنيسة) وقد نادى لوثر بتطبيق القانون المدني لا القانون الكنسي، والمحاكم القضائية المدنية لا المحاكم الدينية القائمة على عقلية محاكم التفتيش. لقد صُدم لوثر في حياته الروحية مرتّين، مرة وهو يرى مبعوث البابا وهو يجبي الأموال الألمانية عن طريق وكلائه في مدينتي: ماينز وماغدبرج، حيث كان الأسقف أولبرخت ووكيله يوهان تيتزل، يبيعان صكوك الغفران بصورة مشينة، أما المرة الثانية، فقد صُدم في روما حين تحولت زيارته الدراسية إلى كابوس مرعب يؤرقه كلما تذكر: (أن اثنتي عشرة فتاة عارية تماماً، كُنّ يقمن على خدمة رجال البلاط البابوي وقت العشاء ـ (المصدر السابق، ديورانت ـــ ص ٢٣٦). وفي تشرين الأول من عام ١٥١٧ ألصق لوثر خمساً وتسعين رسالة دينية علّقها على جدار الكنيسة في فيتبرغ، كما أرسل نسخاً منها إلى أسقف ماينز ولم يتورع عن توزيعها على الناس.. وكانت هذه الرسائل بمثابة إعلان تاريخي لنشوء الحركة التي شّقت عصا الطاعة على الكنيسة الرسمية في روما.

ولم تكن كنيسة روما على استعداد كي تدير خدها الأيسر للطمة السيد لوثر، خاصة وأنه في العام ١٥٢٠ قام بتوجيه رسالة لاهبة إلى البابا ليو العاشر جاء فيها:

(إنك ترى ما يُسمى بهيئة الكهنوت الرومانية التي لا تستطيع أنت ولا غيرك أن تنكر أنها أشد فساداً من بابل وسدوم، وقد أظهرت احتقاري وانتابني الغضب

لأن الشعب المسيحي يُخدع تحت ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية لهذا قاومتْ، وسأظل أقاوم ما وجد فيَّ عرق ينبض بروح الإيمان).

وكان جواب الكنيسة قراراً بحرمان لوثر، ثم راحت تكيل له بما هو فيه، فلوثر كان قد أظهر ميلاً للأخذ بالعهد القديم لا بالعهد الجديد (الأناجيل)، وظل يدعو جهاراً إلى تفضيل الطقوس العبرية البسيطة على تعقيدات الطقوس الكاثوليكية، وكان يعتبر أن العهد القديم يحظى بأهمية كبرى في الحياة المسيحية كلها، ولهذا آثر لوثر دراسة العبرية على أنها هي (كلام الله إلى الناس) ثم قام بترجمة التوراة لصالح الجامعات الألمانية، وقد أصبح في غضون سنوات، إذ هو خصم الكنيسة الرسمية، معبود الأكثرية العظمى من الشعب الألماني خصوصاً الطبقة الوسطى المنهمكة في صناعاتها داخل المدن الكبرى، وقد لعبت الظروف السياسية الخارجية (الحرب ضد فرنسا)، (والحرب ضد العثمانيين أمام بوابات فينا)، وكذلك الظروف الداخلية الألمانية مثل (محاولة سحق العصيان الخطير الذي قامت به المجالس المحلية في بعض المقاطعات)، هذه الظروف وسواها، لعبت دوراً في تشتيت جهود الإمبراطور شارل الخامس وثنيه عن التصدي للحركة اللوثرية خاصة وأنها باتت تحظى بشعبية داخلية وأوروبية وعندما حاول الإمبراطور بالتحالف مع الكنيسة الرسمية، إلقاء القبض على لوثر، حماه الأمير فريدريك الساكسوني مؤسس جامعة وتنبرغ، وأوجد له مخبأً في أراضيه الشاسعة، وبتعضيد من الأمير العجوز، انصهرت أفكار المصلح الألماني الكبير بمشاعره الملتهبة الحيّة لتشكل القالب الذي اتخذته الكنيسة اللوثرية. هذا وتدين اللوثرية في نجاحها، إضافة إلى نجدة الأمير الساكسوني والظروف العامة الداخلية والخارجية، إلى بحّاثه هادئ ومتعمّق في الدراسات الإغريقية اسمه فيليب ملانكتون الذي سيصبح صديقاً لمارتن لوثر بعد صراع، كما تدين لجامعة وتنبرغ التي ستصبح المهد الأساسي للتعاليم اللوثرية، حيث غدت المنافس الخطير للتعليم التقليدي في السوربون، والمعمل الذي لا يهدأ للأدب اللوثري، وفي هذا المكان المتواضع وجد العقل القومي لألمانيا نفسه، وهو العقل الذي أثرت فيه مشاعر عصره ومجريات أحداثه، وقد أنطوى على براعة لغةٍ قومية

استطاع كل ألماني أن يتحسس روعتها وبساطتها، ومن هذا المكان استمد الأساتذة في جامعة كمبردج التعاليم المستوحاة من الكتاب المقدس، وهي التعاليم التي مهدّت لانتقال المذهب البروتستانتي إلى إنكلترا، حيث خلعَتْ على معهدٍ مغمور، في منطقة مليئة بالمستنقعات مكان الصدارة في الحياة الفكرية عند الشعب الإنكليزي.

كان كتاب لوثر الذي جلب له اتهام البابوية بأنه (راعٍ يهودي) بعنوان (عيسى ولد يهودياً) الذي طبعه عام ١٥٢٣ وأعيدت طباعته سبع مرات في عام واحد، وقد شرح هذا الكتيب مواقف لوثر المؤيدة لليهود وكان مما قاله: (لقد شاءت الروح المقدسة أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس للعالم عن طريق العبرانيين وحدهم، إنهم الأطفال ونحن الضيوف الغرباء عليهم، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات موائد أسيادها، تماماً كما كانت تفعل المرأة الكنعانية).. (مأخوذ من الأناجيل عن حادثة يسوع مع المرأة الكنعانية)*. وهذا وتظهر الفقرات الأخرى نزوع لوثر لرد اليهود إلى المسيحية البروتستانتية كما في هذا المقطع (إذا أردنا أن نجعلهم خيراً مما هم عليه، فعلينا أن نعاملهم حسب قانون المحبة المسيحي لا حسب قانون البابا، علينا أن نحسن وفادتهم وأن نسمح لهم بالانخراط معنا لكسب عيشهم كي تتاح لهم رؤية الحياة وسماحة العقيدة المسيحية.. أما إذا أصرّ بعض اليهود على عنادهم، فما هو الضرر في ذلك؟ نحن لسنا جميعاً مسيحيين صالحين) (المصدر السابق).

وفي عام ١٥٤٤ عاد لوثر بعد أن ألفى عناداً يهودياً مشهوداً، فكتب كتابه النقيض (اليهود وأكاذيبهم)، جاء فيه (منْ الذي يحول دون اليهود وعودتهم إلى يهودا، لا أحد.. إننا سنزودّهم بكل ما يحتاجون لرحيلهم النهائي، لا لشيء إلا لنتخلّص منهم، إنهم عبء ثقيل علينا وهم بلاء وجودنا).

وإذا كان لوثر في موقفه اللاحق من اليهود قد أسّس كما يتّهمه البعض لعداء السامية، أو لنشوء النازية في ألمانيا، فإنه كان قد أسّس لمرجعية التوراة ومركزيتها في الحياة المسيحية، فعندما عاد لوثر لينتقض مفهوم شعب الله

---

* من الواضح أن تاريخ مارتن لوثر عن كنعان مُستقىً كله من الكتاب المقدس العبري، حين كانت أوروبا تشمل بخرافاتها عن تاريخ العالم.

المختار من خلال التعارض التاريخي ليهود (يومه) عن يهود البطاركة العبرانيين، كان قطار حياته يصل إلى محطته الأخيرة ففي العام ١٥٤٦، ورغم تزامن عصر النهضة الأوروبي مع عصر الإصلاح الديني، فإن الإصلاحيين لم يخطوا بأوروبا إلى عصر أرقى، بل تراجعوا إلى بدايات القرون الوسطى، بانتقاصهم من قيمة العلم، ومساواتهم بين الفلاح الأمّي وكوبيرنيكوس واضع النظريات العلمية الفلكية، ومناقشاتهم عقائد اللاهوت بروحٍ غاية في التزّمت التوراتي، وإيقافهم حركة النهضة في ألمانيا، حيث طوال جيلٍ كامل، شغلوا المطابع بكتبهم المعادية لحرية الفكر والفلسفة والأدب الإنساني الحر على حد سواء، وخلال الحروب الدينيّة، التي أحجت أوارها أنانية الكنيسة الرسمية ودعاوى البروتستانتيّة المنتشرة سواء في لبوسها الكالفيني (سويسرا والأراضي المنخفضة) أو في لبوسها الهيجونتي في فرنسا، فقد تمّ الإثبات، بأن آخر ما يتم اللجوء إليه هو العقل. ولم يكن التسامح بعد قرن من النزاع الدموي الديني، إلا ضرورات البقاء لمجتمعات باتت تعيش حالة الخراب العميم.

(٣)

دين المملكة في مواجهة مملكة الدين*

إنه بالنسبة إلى إنكلترا فقد جرت مياه غزيرة في التايمز، قبل أن يولد الملك هنري الثامن، الذي شقّ عصا الطاعة في وجه الكنيسة الرسمية، وقد سبقه جون ويكلف (١٣٢٠-١٣٨٤) أستاذ علم اللاهوت في جامعة أكسفورد، حيث كانت آخر فتاواه: (إن الشعبَ الإنكليزي أحق من البابا ومن فرنسا بأمواله، إن البابوية تستغل ثروات شعبنا وتُقدّمها إلى فرنسا لتحاربنا بأموال الكنيسة، تحت إشراف المارقين من رجالها).

وبعد هذا التمهيد الصارخ، سيرتقي بعد نيّف وقرن من وفاة ويكلف عرش إنكلترا، شابٌ محبوب من شعبه، مكتنز الوجه والجسم، على درجة من الحيوية

---

* أدين بهذه الفقرات وما قبلها للمرجع الهام: أصول التاريخ الأوروبي الحديث للبروفسور هربرت فيشر. ترجمة الدكتورة زينب عصمت راشد و د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ومراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم دار المعارف بمصر ١٩٦٥.

والثقافة، شغوف بحب البحر، ومولع بالمطارحات الغرامية والدينية، ذلك هو الشاب هنري الثامن (١٤٩١-١٥٤٧) الذي وطأ ست زوجات على التوالي (كاترين الأرغونية، آن بولين، جين سيمور، آن الكليفيّة، كاثرين هيوارد وكاترين بار) وكمواطن إنكليزي أصيل، فقد طابت له حياة الانحراف والاعتراف، حيث تصالح مع عالم نسائه بمن فيهن زوجة أخيه المتوفى آرثر والتي كانت تكبره بست سنوات. واستدار هنري ليجد أمامه عالماً لم يكن أقل من كيد النساء ومخاطر نهاياته المفجعة، فالأحداث والجيوش والعروش كانت تجري لوجهة القصد الدامية، حيث حرب تلدُ أخرى، وذلك بصرف النظر عما كان هنري يهواه أو يمقته، واستعد الملك الشاب لمواجهة الأحداث، فبريطانيا جزيرة بحرية وسط المحيط بقوة الطبيعة لا بإرادة الإنسان، وكان البحر هو حامي الجزيرة إلى أن أثبتت غزوات الآنجلو ـ ساكسون وقبلها غزوة يوليوس قيصر، بأن البحر الذي يصلح للعزلة لا يصلح للحماية دون قوّة بحرية تجوبه، وهكذا أمر بإعداد أحواض السفن وإنشاء المدارس لإعداد رجال البحر، وكان أول ملك إنكليزي يدشن أسطولاً حربياً وفق أحدث طراز، وحين أنزلت السفينة برنس ماري عام ١٥١٩ كان هنري يلبس سترة بحار ويضع على صدره قطعة ذهبية منقوشة بعبارة (الله وعدلي)، وبذلك يكون الملك الشاب قد كشف عن مزاج الشعب الإنكليزي وامتزج مع روحه وطموحه.

لم يكن شغف هنري بمفاتن البلاط والنساء والصيد، أقل أهمية عنده من مشاكسة رجال الدين، فالمسائل الدينية كانت أساساً لدراسة السياسة، وقد قرأ فلسفة الأب توما الأكويني وناقشها وكتب بحثاً عام ١٥٢١ يدحض فيه آراء لوثر، فأنعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامي العقيدة المسيحية. وفي عهد البابا يوليوس الثاني، انتصر هنري للبابا ضد ملك فرنسا لويس الثاني عشر وانتصر عليه في معركة سبرز ثم في معركة فلودن فيلد، وبغض النظر عن طبيعة هاتين الحربيْن، فقد أعطى هنري لإنكلترا مكانة مستهابة في القارة الأوروبية.

كان الشعب الإنكليزي بطبعه غير ميّال ـ كالشعب الاسكتلندي ـ للبحوث الدينية سواء الكلاسيكية أو الإصلاحية منها، إذ لم يكن يُعرف عنه الإخلاص

لكنيسة روما، فالبارونات وأهل الريف لم يشغفوا بالمسائل الدينية الكبرى كالقدرية أو التبرير بالإيمان، وكان الرجل الإنكليزي العادي ينعم بالسكون أمام ما تقدمه الطقوس الكاثوليكية، أما اللوثرية التي سبق لها أن أقامت اتصالاً مع أكاديميّي كامبردج، فقد ظلّت في العهد الأول من حكم هنري الثامن، حكراً خلف أسوار الجامعات، لا يعلم الشعب عنها شيئاً.

كان العلمانيون في لندن والمدن التجارية، رغم طابع المحافظة الإنكليزي، يكرهون رجال الدين من أتباع الكنيسة البابوية، وكان أنصار (جيبلين) الذين قاتلوا إلى جانب الملكية ضد البابوية في العصور الوسطى، يكرهون القساوسة وامتيازات الكنيسة القديمة الغنيّة واسعة السلطان، والتي لا يحاسب أتباعها وفقاً للتشريع الجنائي العام.

لقد ظل الإنكليز يتساءلون كعادتهم على نحو ساخر: (هل يفلت سافكُ الدماء من العقوبة إذا أنشد مقطوعة من المزامير على مسامع الكهنة؟.) و (كيف يحق لمحكمة الأسقف أن تحكم بحرق رجل علماني دون مساءلة من جانب السلطة المدنية؟!) ورغم مرارة التمييز، فإن حركة الإصلاح الديني في إنكلترا، لم تكن تشغل الطبقات الاجتماعية كما حدث بالنسبة لفلاحي ألمانيا في عهد لوثر، كانت ثمة مسائل دنيوية تثير حنق الشعب الإنكليزي مثل ارتفاع الضرائب والحرب مع الأراضي المنخفضة التي كادت أن تقضي على تجارة الصوف، ثم زادت الأوضاع تعقيداً حين رفض البرلمان التصويت على قرض شعبي جديد (القرض الودي) يتم بموجبه تحويل سدس دخل الفرد الإنكليزي لصالح خزينة الدولة وخدمة للمجهود الحربي المنصب ضد فرنسا. وقرر هنري إحالة البرلمان على التقاعد، إلا أنه عاد للتفكير في حدود سلطته تحت السقف الملكي الذي لا يسبب له انتشار العصيان والتمرد.

كانت إنكلترا في هذا العصر، تعتمد في اقتصادها على تجارة الأقمشة، حيث شهدت أولى صناعاتها المغزلية والنسيجية، وبتحويل الأراضي لصالح الرعي، وإذْ غدت الأغنام أكثر جلباً للربح من الحبوب، فإن شهوة مُلاّك الأراضي تفتّحت باتجاه المضاربة، وهكذا بدأ العامل الزراعي يفقد عمله، كذلك عُمّال الحراثة والفلاحين، حيث باتوا خارج التسوير الذي ضربه المُلاّك حول أراضيهم

الشاسعة، وأصبح من الواضح أن الهدوء الذي اتصّفتْ به حياة الريف الإنكليزي، بدأ يتعرّض للاضطراب الآن، ومع ذلك فقد وقفت أسرة التيودور الملكية التي ينتمي إليها هنري الثامن، حائلاً دون اندلاع صراعات أهلية، والحقُ أن هذه الملكية كانت قد بلغت من القوة حداً مكّنها، رغم قسوة هنري التي تصل حد الإجرام، من أن تجتاز البلاد محنة حروب دينية دامية.

بعد أربعة عشر عاماً من حكمه، فقد أقتنع هنري بأن يترك الحكم الفعلي في البلاد بيد المستشار المصلح والمحافظ توماس ولزي، وقد سعى ولزي أول ما سعى، إلى جمع كل مقاليد السلطة الكنسية في شخصه، فأبطل دستور الكنيسة الإنكليزية الذي يرجع إلى بدايات العصور الوسطى، وأشاد بسيادة الملك المطلقة تحت عرش التاج الإنكليزي دون مشاركة سلطة كهنوتية أخرى، وقد فاق هذا الكاردينال حتى اللوثريين في بثّه الحميّة الإنكليزية التي تأنف الخضوع لسلطة قوانين أجنبية تسنّها البابوية من روما، ثم عمد إلى حل الأديرة الصغيرة المبثوثة هنا وهناك، وأنشأ على أنقاضها كلّيات مثل أكسفورد وابسويش (Ipswich)، كما شغف ولزي ببناء الأبرشيات التعليمية (على حساب دور الخرافة) حيث تعليقه الساحر.

لقد جمع ولزي في شخصه مناصب تنم عن كلفه بالسلطة، أكثر من سعيه وراء الإصلاح، فهو كبير قضاة إنكلترا، وكبير أساقفة يورك، وأسقف باث وولز وونشستر ودُرهام إضافة إلى كونه النائب الوحيد للبابا في البلاد. كان ولزي آخر الساسة العظام من رجال الدين الذين نأوا بإنكلترا عن سلطة الكنيسة البابوية، رغم أنه من بين أعظم الكرادلة الكاثوليك شأناً في عموم إنكلترا، لكن معادلته كانت تذهبُ أبداً نحو الحيلولة دون اعتلاء أحد الفرنسيّين كرسي البابوية.

لكن الأحداث جاءت لتثبيت خطر نبوءة ويلزي، فالخطر الحقيقي على حرية البابا قدم من إسبانيا لا من فرنسا، فبعد هزيمة فرانسوا الأول على يد قوات شارل الخامس، نُهبت روما من قبل الجيوش الإسبانية المنتصرة، واضطرت إيطاليا لتوقيع معاهدة برشلونة حيث بات البابا كليمنت في كنف إرادة شارل الخامس وليس غيره في القارة الأوروبية، وقد ترتّب على الانتصار الإمبراطوري الإسباني جملة من النتائج الداخلية في إنكلترا: سقوط ويلزي، وتأسيس الكنيسة الأنجليكانية التي ستصبح مرشد بريطانيا الروحي فيما بعد.

كانت كاترين قد أنجبت للملك هنري ابنةً عُمّدت باسم ماري، وقد شاعت الأقاويل بأن كاترين لن تنجب ذكراً لهنري، للعنةٍ تسلّطتْ على زواجه من زوجة أخيه المتوفى آرثر، حيث الجزء الثالث من العهد القديم يُحرّم ذلك، وازداد هنري قناعةً أن بإمكانه الخلاص من هذا الزواج المشؤوم بالطلاق، ولم تكن هي السابقة الأولى في تاريخ حاشية البلاط، فقد سبق لصهره سفولك أن طلّق زوجته، كما أن أخت الملك (مرجريت) نفسها كانت قد أعلنت طلاقها من زوجها.. وكان ذلك يتم بفتوى من البابا كلمنت السابع الذي كان مطواعاً وسلس القياد، لكنه بالنسبة إلى الملك فقد رفض مثل هذه الفتوى، ويبدو أن ضغوطاً خارجية كانت وراء ذلك، فقد كانت إسبانيا هي العقبة التي حالت دون تحقيق أمنية الملك، خاصة وأن معشوقته آن بولين المهتمّة بلوثّريتها، كانت تنتظر فتوى البابا بفارغ الصبر.. لقد ظل البابا المنحوس يتأرجح كبندول الساعة يمنة ويسرة بين إمبراطور إسبانيا وملك إنكلترا لا يعرف ماذا يفعل، خاصة وأن جيوش الأول كانت قد جعلت ضريح القديس بطرس ملعباً لخيولها، وما بين التماس أعذار التأجيل وادعاء المرض واقتراح الجمع بين زوجتين، انتهى البابا إلى تفويض بابوي، تنوب بموجبه محكمة دينية إنكليزية في لندن، باتخاذ القرار النهائي بخصوص وضع الملكة الجريحة في كبريائها.

ومرة أخرى سَحَبَتْ إسبانيا البساط من تحت أقدام الملك هنري، حين تراجع البابا عن التفويض، وارتأى وجوب البتّ في قضية الطلاق أمام الكنيسة في روما لا غيرها.

ولم يجد الملك هنري مخرجاً سوى دعوة البرلمان الإنكليزي لمساندته في كفاحه ضد الكرسي البابوي، وبالفعل فقد نجح البرلمان في بضع سنين، من إصدار اللوائح التي تم بمقتضاها فصل الكنيسة الإنكليزية عن روما وإخضاعها للتاج، ولم يكن هنري مخطئاً حين توقّع من برلمان مكوّن: من كبار الملاك وصفوة التجار ومندوبي الصناعة في المدن الكبرى، أن يكون هذا الحشد البرلماني مع تحطيم كل الروابط الكهنوتية والقانونية والمالية.. تلك التي تربط إنكلترا بسلطة روحية أجنبية، تمرع بالمصالح بأكثر مما تمرع بالحسنات. لم يكن هنري المستمسك بالعروة الكاثوليكية أقل جرأة في تمسّكه بسلطان عرشه

ومصالح شعبه، خاصة إذا ما تعلق الأمر بخصمين لدودين: إمبراطور إسبانيا وبابا روما. ولابد من الإشارة هنا، إلى أن انفصال الكنيسة الإنكليزية عن روما، كان يحمل من الناحية المذهبية، طابعاً إصلاحياً ذا نزعة بروتستنتية، وأن الإصلاح جاء تدريجياً على مراحل فالشعب الإنكليزي لا يرى الحكمة في انعطافات حادة، إذا ما اتصل التغيير ، بالعقائد والعادات والأعراف، ولعلّ الإصلاحات الكنسية الإنكليزية وجدت ضالّتها المنشودة في البروتستانتية التي أصبحت عالمية مناوئة، وفي المحصلة فإن كنيسة إنكلترا خرجت من ضلوع روما عن طريق المخاضات القومية والاقتصادية والسياسية، أكثر منها عن طريق النزاعات العقائدية حول المسائل الدينية الكبرى، ولم تكن إنكلترا لتقبل مثل هذه التغييرات الحاسمة، لولا أنْ رأتها بعيون الواقعيّة، ونزعة المحافظة والمصلحة، وهو ما أدركه هنري الداهية وعزف على أوتاره، حيناً من زمان مملكته. ثم يأتي دور المكان الهام، الذي شغر بسقوط ويلزي، فقد شغل الرجل العلماني توماس كرومويل، الذي كان قد تدرّب في خدمة الكردينال، هذا المنصب، وكان قبل أن يشغله، قد تعلم دروساً ثلاثة، المضاء والجهد والخضوع للملك، ولم يكن توماس كرومويل من الداخلين إلى بلاط العرش، دون تجارب خلفية، فقد حارب الرجل ضمن صفوف الجيش في إيطاليا، وهناك قرأ أمير مكيافيلي وأدرك أن فلاح السياسة يتم بتجريدها من مؤثرات الدين، ورغم أنه كان في طليعة الحاشية التي تستجيب لنداءات العاطفة والدين والتاريخ، إلا أنه عقد العزم على تجريد الإكليروس من ممتلكاتهم واجتثاث جذور الرهبان بحل الأديرة، ولما كان جمعُ الرهبان والراهبات يشكل حصن البابوية الحصين، حيث يتمتعون بالإعفاء من أشراف الأساقفة، بل ويخضعون لسيادة أجنبية، فإن كرومويل جعلها مهمته الأولى، أما خطوات هذه المهمة في نظره، فكانت تتمثل في تحويل هذه الأديرة إلى معاهد، ولاستمالة شرائح المُلاّك في البلاد، فقد أطلق العنان لمخيّلته في تصوّر حال البلاد، إذا ما تم توزيع أراضي الوقف الكنسي على كبار المُلاّك، ولم يتأخر كرومويل في إلحاق الأمل بالعمل، فقد وزّعت أراضي الأديرة الشاسعة على النبلاء وكبار الملاك بسخاء، وأصبحت هذه الثروة المضافة جزءاً من مُلّكية محققة ومشروعة، وقد تحوّل مُلاّك الأراضي نتيجة لهذه الإجراءات الثورية، إلى أقوى طبقة في إنكلترا، حيث غدت مصلحتهم المكتسبة جزءاً لا يتجزأ من حركة

الانشقاق ضد كنيسة روما، أو بصورة أوضح، جزءاً لا يتجزأ من حركة الإصلاح البروتستانتية. كان توماس كرومويل كلاعبٍ سياسي، يعمد مع كل إجراء إلى إظهار مدى الفساد الخلقي الذي بات متفشيا في عالم الأديرة، وليس هذا فقط، فقد كانت تتم الإشارة إلى عقم الدور الوظيفي لهذه الأديرة في المجتمع، ففيما كانت البيوتات الدينية منارات تشعّ آيات من العلم والتدريس والتنوير، أصبحت أوكاراً للفسق والمجون، وهكذا مضى كرومويل في تشريعاته وذرائعه حتى النهاية قبل أن يساق إلى المشنقة في العام ١٥٤٠. كان الملك هنري ينظر إلى إجراءات كرومويل بعينين من الرضى والحذر، وقد سرت شائعة عن إطلاق لقب (مطرقة الرهبان) على كرومويل، وزاد الأمر تعقيداً، أن كرومويل ـ بتشجيع خفي من الملك ـ استطاع أن يقنع البرلمان بإصدار قانون السيادة، ففي العام ١٥٣٤، تم إصدار هذا القانون الذي ينص على أن الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة، وأن الولاء هو للملك في سلطتيّه الدنيوية والدينيّة، وأن أداء القسم، طبقاً لأوامر الملك يتم على هذا القانون وليس غيره، وقد اعتبر الكاثوليك، بأن هذا القانون معناه النكث بعهدهم للبابا، وقد رفض توماس مور والأسقف فيشر وهما من أعظم الشخصيات في الفترة الأخيرة من تاريخ الكاثوليكية في إنكلترا، أداء القسم وفق قانون السيادة، وفضلا فأس الجلاد على الرضوخ لمشيئة الملك فوق مشيئة الله..

لم يفكر أحد من الشعب الإنكليزي مع كل هذه الأحداث، أن يمتشق حسامه في وجه الملك، فلا طلاق كاثرين ولا إعدام زوجته الثانية آن بولين. ولا مصادرة أملاك الأديرة، ولا شنق أفضل الأحبار الإنكليز، ولا إجراءات كرومويل الفظة، خفضّت من شعبية الملك هنري في عيون الناس، ورغم ثورة الشمال الإنكليزي، ضد حل الأديرة، فإن (دارسي) زعيم هذه الثورة، أعلن دون مواربة، بأنه يشهر سيفه في وجه (الأوكار السامّة) في البلاط لا ضدَّ الملك، ومع ذلك كله، فقد بقيت مشكلة العقيدة والطقوس الدينية دون حل، حتى ولو أن الملك أراد أن يعلن نفسه مكان البابا في الكنيسة الإنكليزية.. كانت أفكار كرومويل الطموحة تذهب إلى حد الدعوة لإقامة حلف ديني ـ سياسي مع الدول البروتستانتية مثل ألمانيا، لكن الملك رفض الانحراف وراء لاهوتيّةٍ باتت تتمتع بطابع قومي خالص، وأصرّ أن يكون الفقه الديني إنكليزياً لا ألمانياً، ومن هنا جاء اللون الخاص للبروتستانتية الإنكليزية عن نسخته الأصلية في ألمانيا، وبأمر ملكي قام القس العبقري وليم

تاندل بوضع (الإنجيل العظيم) الذي جاء تحفة رائعة مصحوبة بترنيمةٍ رشيقة يعشقها الإنكليز، وبأمر ملكي لاحق عام ١٥٤٥ أعتمد الإنجيل وأقرت التراتيل الكنسية في الصلوات الإنكليزية.

لقد ظل هنري حتى آخر أيامه، يمسك عصاه الغليظة من منتصفها، فهو تارة، يحرق اللوثريين لهرطقتهم، وأخرى يشنق الكاثوليك لخيانتهم، حيث العرش فوق الجميع.. كان توماس كرانمر واحداً من أعمدة كمبردج اللاهوتيّين، الذين أعتمدهم هنري في مسيرته الدينية، وكان كرانمر إضافةً إلى زوجته الألمانية، من أشد الرؤوس سخونة ضد البابا وكنيسته في روما، وقد أدى خدمات جُلّى لمليكه (إذا هو الفقيه الديني المتعمق والمثقف) في مجالين غاية في الأهمية: مشروعية إلغاء زواج الملك من كاثرين، وتأليف كتاب الصلوات الانجليكاني، وتعترفُ هـ بيلوك الكاتبة الكاثوليكيّة، بالصبغة التي أضفت على كتاب الصلوات الإنكليزي جاذبية خالدة فتقول: (بفضل التراتيل التي هي من تأليف كرانمر، والصلوات اليومية القصيرة، والمقدمات الموسيقية الأخاذة والمندمجة في الطقس المؤدّى أثناء الصلوات، أضفى كرانمر على الديانة البروتستانتية، قوة لم تكن تستمدها من أي مصدر آخر، وقد قدم بهذا السحر بديلاً من اللغة اللاتينية الرفيعة التي شكّلت روح أوروبا لأكثر من ألف عام، وأثرى الكنيسة الانجليكانية بأثر جمالي لا يُضاهى، وقد تعلّقت روح الشعب بهذا الأثر الخالد). بين وفاة هنري ١٥٤٧ ووفاة ابنه الملك الصغير الذي حكم إنكلترا في وصاية سومرست ومن بعده وصاية ثورثمبرلاند، مرّت ست سنوات (توفي الملك الصغير إدوارد السادس عام ١٥٥٣)، ظل الوضع فيها متأرجحاً بين النفوذ البروتستانتي والنفوذ الكاثوليكي، إلى أن ارتقت الملكة ماري العرش بناء على وصيّة من أبيها الملك هنري قبل موته.

دشنت الملكة ماري المخلصة للعقيدة الكاثوليكية بورع القديسين القدامى، بكورات عهدها بحدثين مشؤومين:

- إكراه توماس كرانمر على إنكار معتقداته وإرسال رقبته إلى سيف الجلاد.

- زواجها من فيليب الثاني ملك إسبانيا الكاثوليكي. ويعتبر عهد الملكة ماري ١٥٥٣-١٥٥٨ من أبرز العهود اضطهاداً للعقيدة البيوريتانية (المتطّهرة) التي هي النسخة الإنكليزية للبروتستانتية، وقد شهد العهد نزوحاً جماعياً تمثل في الهجرات البحرية إلى القارة الجديدة (أمريكا)، ورغم أن إعدام كرانمر كان قاسياً إلى درجة الوحشية، فإن إنكليزياً واحداً لم ينبس ببنت شفة، غير أن الوضع كان خلاف ذلك، حين اقترنت ماري بملك إسبانيا، فقد نشبت ثورة خطيرة بزعامة (توماس يات) ضد هذا الزواج، وحين علم الشعب بأن زواج ماري من فيليب لن يُنجب أولاداً، اتجهت الأفكار نحو أختها اليزابيث التي هي من صُلب إنكليزي أو ويلزي بحت، فالأميرة اليزابيث هي ابنة آن بولين من هنري، وهي ثمرة ذلك الزواج النادر في تاريخ الملوك، إذ أدى إلى فصم عُرى الروابط بين إنكلترا وروما، وفتح الباب عريضاً أمام المد الكبير لحركة الإصلاح البروتستانتية، إذ هي مستنبت عقيدة الأم وابنتها على حد سواء. لقد روى الأدب الإنكليزي السياسي، الكثير من القصص التي تتناول ضحايا تعصّب ماري وموتهم، وبالنسبة إلى البروتستانت، فإنه لا يفوق جلالة هذا الحدث وقدّسيته، إلا الكتاب المقدس وحده، ولم يخدم شيء العقيدة البروتستانتية في المجتمع الإنكليزي، أكثر من اضطهادات عهد ماري، والفزع من كنيسة روما على حدٍ سواء، وإلى أن يحين موعد فيكتوريا مع عهدها الملكي الطويل (١٥٥٨-١٦٠٣) فإن أشرعة الإصلاح البروتستانتية، ستكون قد أقلعت من موانئ إنكلترا إلى وجهة القصد المنشودة في (بريطانيا عظمى) موّحدة تضم إضافةً إلى الوطن الأصل جزيرة ايرلندا في الغرب واسكتلندا في الشمال.

(٤)

تفرعات بروتستانتية في أرجاء أوروبا:

لبست البروتستانتيّة لبوسها الوطني الخاص في بلدان أوروبا المجاورة لألمانيا بتأثير من لوثرية الاحتجاج ضد ما كان يجري على أيدي القسس والرهبان في كنف الكنيسة الرسمية، ويبدو أن هذه المشاهد النقيضة لجوهر الدين وروحه،

هي التي كانت تدفع باتجاه اللجوء لعقيدة مناوئة قبل التعرّف على لاهوتها وما يذهب إليه، ففي سويسرا التي عُرف عن كنائسها مسحة التسامح وحماية العقائد الإنسانية والخضوع لأنظمة الاتحاد السويسري بدفع الضرائب على أملاك الأديرة، فإن رجال الدين، مع ذلك، ظلّوا وراء الجدران يعيشون حياة الترف والفسوق والرشوة، وقد قبل القسس بمبدأ الترضية المالية مقابل تعميد طفل غير شرعي وتسجيله على قيد مُتبنيه الراغب بذلك.

وفي هذا المناخ المهيأ لقبول الاحتجاج، كان أوليرغ زونغلي دارس اللاهوت في بازل يُعد نفسه للانقضاض على رجال الكنيسة رغم أنه كان من أنصار البابوية. وبدأ زونغلي بنقد الصكوك، وراح يهاجم الرهبانية، والمطهر، ووساطة القديسين، وجباية الضرائب من الفلاحين واتهم كاردينال بازل، بأن قُبعته الحمراء تسيل دماً من عروق الأبرياء، ثم طالب الكنيسة، دفعاً للفجور، بأن تسمح لرجال الدين بالزواج، وكان أول من قرن مطالبه بفعله، فأعلن زواجه على الملأ دون أن يسأل عن أحد. كان القسيس زونغلي صاحب لاهوت قريب من لاهوت لوثر، رغم أن هذا الأخير كان قد وقف ضدّه، فزونغلي يؤمن (بأن الخطيئة الأولى ليست إثماً موروثاً، وإنما هي نزعة كامنة في النفس الإنسانية دون أن يكون للمجتمع دور فيها، وأن القدر هو راسم مصير البشر، وأن الجحيم حق، وأن المطهر خرافة، وأن الصكوك بدعة لمن أراد الاتجارّ بها، وأن الاعتراف غير مجد، لأن رجال الدين عاجزون عن منح الغفران، وأن الله وحده هو التواب الرحيم ـ قصة الحضارة ـ مصدر سبق ذكره) وقد تمكن زونغلي من شطر سويسرا بين مؤيد بروتستانتي ومعارض كاثوليكي وأخذ الانشطار يزداد استقطاباً، رغم أن مجلس زوريخ أصبح إلى جانب زونغلي. وفي فرانكفورت حاول حزب زونغلي أن يعقد تحالفاً مع حزب لوثر، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل نظراً لأن زونغلي رفض الاعتراف بفضائل القربان والتجسّد، التي دعا إليها لوثر، وعام ١٥٣١ انهزم جيش زونغلي البروتستانتي أمام جيوش الكثلكة التي يدعمها فرانسوا الأول، وقُتل زونغلي في المعركة، وقد شرعت المقاطعات السويسرية تعود إلى الكنيسة الكاثوليكية مقاطعة بعد أخرى، خاصة وأن قضايا اللاهوت كانت تنتصر أو تنهزم في أرض المذابح لا في أرض القناعة والحوار.

بعد عام واحد من مقتل زونغلي، كان جون كالفن يعرض أطروحته اللاهوتية في جو باريسي ينشد الثقافة، وقد جاءت هذه الأطروحة على نحوٍ لوثري شفّاف، الأمر الذي أغضب الملك، ولولا شفاعة شقيقة الملك مرغريت دي نافار، لما تمكن كالفن من الإفلات من باريس والرحيل للانضمام إلى الجيل اللوثري في مدينة بازل السويسرية، مع ذلك فإنه لا يوجد في كالفن شيء من طباع مارتن لوثر، ففيما كان لوثر الريفي يؤثر الإيمان بالخرافات ونقده لنفسه بصورة جارحة، كان كالفن ابن الطائفة العليا من الطبقة الوسطى، أكثر استعداداً لنقد الخرافات المقدسة في شريعة الرهبان، كان لوثر خشناً ومرحاً يتمتع بحيوية دافقة وخيال ملتهب، أما كالفن فكان هادئاً حذراً مشرقاً ومتفوقاً في المجادلات، دون أن يظهر عليه أي عناء بسبب الصراع الداخلي مع نفسه، وقد ألف رياضة الفكر قبل رياضة الجسم، ثم راح يكرس جهده المكثّف ليجعل من جنيف جمهورية إنجيلية، وأن يقود فيما بعد، حزب الهيجونت الإصلاحي ـ البروتستانتي في بلده فرنسا.

كان كالفن رواقياً يحذو أثر المعلم سنيكا مرشد نيرون الروحي في الإمبراطورية الرومانية، فهو يؤمن بوجوب اتباع الفضيلة لذاتها دون أمل بثوابٍ أو خشيةٍ من عقاب، (وهو مبدأ قريب من المتصوفة في الإسلام)، وقد أصبح هذا المبدأ جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الكالفينية، أما مبدأ القدرية الجبرية، فلم يعثر عليه في الإنجيل، لكنه استقاه من تعاليم القديسين، بولس وأوغسطين. وقد افتخر كالفن في خطاب وجهّه إلى الخريّجين من رعاة الكنيسة في جنيف، بأنه خلال الفترة الطويلة التي قضاها في نشر تعاليم الإنجيل، لم يقدم قط على المّسْ بأي نص من نصوص العهد القديم في الكتاب المقدس، علماً بأنه وافق على إحراق الداعية اللاهوتي سرفيتوس عام ١٥٥٣ لتبشيره بعقيدة التوحيد*.

* كان ميكائيل سرفيتوس أول من دعا إلى المسيح بنظرة إسلامية خالصة، فالمسيح عنده نبي من أنبياء الله، وليس كفواً للآب أو سرمدياً مثله، ولهذا فالتثليث في لاهوته شرك بالله، فكل من يؤمن بثالوث مُقدس، كما جاء في خطبته في اورغسبورغ، إنما يؤمن بوجود ثلاثة أرباب، والملاحدة هم وحدهم، من ينكر وحدانية الله. عاش سرفيتوس الفرنسي حياة قصيرة ١٥١١-١٥٥٣ وأحرقه كالفن فوق تلة مشرفة على جنيف.

كانت الكالفينية أكثر أشكال الإصلاح البروتستانتي تأثيراً في المدى والعمق من أية كنيسة أخرى مماثلة، فقد خلقت الهيجونتية البروتستانتية في جنوب وغرب فرنسا، وشكلت الجمهورية الهولندية التي ستستأثر بالإشعاع اللاهوتي في ربوع القارة الأمريكية الجديدة، كما قبل الاسكتلنديون الكالفينية كديانة قومية لهم، واعتنقتها مقاطعات سويسرا الشرقية كما اعتنقها سكان المجر الذين شقوا عصا الطاعة في وجه روما، حتى الإنكليز أصحاب روح المحافظة، فإن قرار الحرمان الصادر من الكنيسة الرسمية في روما، ضد ملكتهم اليزابيث، كان معللاً باعتبارها كالفينية العقيدة، ومع اليزابيث ١٥٥٨-١٦٠٣ وبعدها فإن الكالفينية أصبحت قوة غالبة في السياسة الإنكليزية بحيث أن رواد الأنجلو ـ ساكسون إلى المناطق الساحلية في أمريكا الشمالية، خاصة مستعمرات نيوانجلند، منذ رحلة السفينة ماي فلور عام ١٦٢١، دانوا جميعاً بالعقيدة الكالفينية، التي أفتت بسياسة الإبادة ضد السكان الأصليين..

(٥)

آثار ونتائج

أثارت المجابهات على أرض الواقع، ضد ممارسات رجال الدين الكنسي الرسمي، تحولات عن جوهر العقيدة المسيحية كما فسرّتها كنيسة روما عبر العصور، واستدار المحتجوّن في جميع طوائفهم الملونة بلون وطني خاص، إلى اعتبار العهد القديم مرجعها الأول، وتبعاً لهذا التحول الحاسم، فقد فتحت العقائد البروتستانتية الجديدة، باب التفسير الشخصي لآيات التوراة على مصراعيه دون حدود أو قيود، وما من شك أن التفسير هو باب الدخول إلى عالم التأويل كذلك أُعتبرت اللغة العبرية القديمة، باعتبارها (لغة الله المقدسة) التي خاطب بواسطتها (شعبه المختار) هي لغة رجل الدين الجديد، وبما أن قصص التوراة وأحداثها كانت قد جرت على أرض فلسطين في معظمها، فإن اسم (إسرائيل) الوارد في كتاب العهد القديم أصبح جزءاً من التراث المسيحي، ونتيجة لانتشار الاتجاهات الدينية البروتستانتية بأسماء مختلفة في نصف الكرة الغربي (أوروبا وأمريكا) فإن الفرد ينشأ بالضرورة على الإيمان بمقولات مقدّسة تتمثل في أن

اليهود هم شعب الله المختار وأنهم في (كلمات الله) هم الأمة التي فضّلها الله على العالمين، والمشكلة أن التخصيص لم يعد حكراً على العبرانيين القدامى من أتباع ملّة إبراهيم وموسى.. بل شمل تعميمه يهود عصرهم بدءاً من منتصف القرن السادس عشر وحتى تدمير العراق، والمقولة المقدسة الأخرى تتمثل في (شعب الميثاق) حيث أن إله اليهود، هو الذي ربط يهود العالم بأرض فلسطين المقدسة عبر ميثاق إلهي لا يدحض، وهو لا يحول ولا يزول حتى قيام الساعة، والمقولة المقدسة الثالثة تقوم على النبوءات القائلة بعودة المسيح ثانية (حسب العقيدة المسيحية) أو بمجيئه للمرة الأولى (حسب العقيدة اليهودية)، ورغم هذا الفارق الذي ينم عن عدم إيمان اليهود بنبوّة السيد المسيح أصلاً، فإن كلا العقيدتين ربطت ما بين عودة المسيح أو مجيئه، مع قيام دولة اليهود في فلسطين بعد تجميعهم فيها، وأن هذه العلاقة المقدسة، هي نذير قيام المملكة الألفية السعيدة التي سيقودها المسيح المنتظر..

لقد أحدث نشر النصوص التوراتية بشكلها الأصلي على يد بروتستانتية ألمانية وبيوريتانية إنكلترا وكالفينية سويسرا وهولندا مع بقية الأراضي المنخفضة، وهيجونتيّة فرنسا.. مع تنمية التفسيرات الكنسية الرسمية، أحدث ثورة شاملة في عالم الفكر المسيحي، إذ لأول مرة تشيعُ صبغة الطابع السياسي على قسمات الكتاب الديني المسيحي، ففيما ينكر اليهود أي تدخل دنيوي لمجيء المسيح المنتظر، كانت المسيحية ـ المتهودة على أيدي الإصلاحيين الجدد، تدفع باتجاه تدخل بشري لتحقيق إرادة السماء، ومن هذه النقطة، ومع رواج المعتقدات اليهودية التي أصبحت جزءاً من طقوس الكنيسة، فقد باتت الأفكار السياسية من مثل الأمة اليهودية (إسرائيل) والبعث اليهودي وانتظار القدوم السعيد للمسيح.. تشكل جزءاً من طقوس الصلوات المشفوعة بأعمق ما وضعه الإنسان من ترانيم شجيّة، تثبت صحة العقيدة بالإبداع أكثر من اثباتها بعلم الآثار والتاريخ. فإذا كان التاريخ يصنع الإنسان حقاً، فإن العقائد الدينية تصنع روحه، وتحدد وجهته ومآله، والحقيقة أن المفاهيم الدينية، ظلّت قوة، منذ ما قبل الأديان السماوية، تشق طريق المجهول وما وراء الطبيعة لتستقر في عقول وأفئدة الشعوب. وهو ما تثبته ديانات (ثلاثة آلاف سنة) قبل السيد المسيح، وفي التعرض للبروتستانتية الآخذة

بالتوراة، كما الإيمان في صدر أي إنسان ينشد خلاص الروح وخاتمة الآخرة، فإن المرء ليس بصدد الطقوس والشعائر التي يراها الإنسان طريقاً للاتصال بخالقه، بل بالوظائف الاجتماعية التي تمارسها هذه العقيدة أو تلك، إذ يشير التاريخ إلى قوة البروتستانتية المحركة للكيان الاجتماعي والموجهة لنزعاته السياسية والقومية بمحمول عنف التوراة وإله الجنود والاستهتار بقيمة الآخر (غوييم أي الغرباء) بل وحتى أساس وجوده. ولعل أبرز مظاهر التطرف الذي أعقب عهود انتصارات البروتستانتية الدينية كان قد تمثل في العناوين التالية:

١ ـ استعمال العبرية لغة الصلاة في الكنائس وأثناء تلاوة الكتاب المقدس.

٢ ـ تعميد الأطفال في الكنائس بأسماء عبرية بعد أن كان يتم تعميدهم بأسماء القديسين المسيحيين.

٣ ـ نقل يوم الاحتفال الديني ببعث المسيح إلى يوم السبت اليهودي*.

ويضيف الأستاذ محمد السماك في كتابه الصهيونية المسيحية (دار النفائس ص٣٩) أن الأهمية الكبرى للتحول البروتستانتي عن الإنجيل إلى التوراة، قاد إلى التحول في النظرة (إلى فلسطين والقدس من كونهما أرض المسيح المقدسة والتي نشبت الحروب الصليبية بذريعتهما إلى كونهما وطناً لليهود) أما النتائج الإيمانية بالنبوءات، فقد جاءت أشد نكالاً إذ فيما (حتّمت عودة اليهود إلى فلسطين قبل مجيء المسيح بتدخل إلهي، ذهبت إلى إمكانية تحقيق النبوءة بتدخلٍ بشري). لقد آمنت العقيدة البروتستانتية بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس بشطريه القديم والجديد، وركّزت في فهمها للعهد القديم على موضوعات مركزية ابتداء من أسفار موسى الخمسة والكتب التاريخية إلى الكتب النبوية، وهذه الموضوعات بمحملها تتعلق بإسرائيل وشعبها المختار من قبل الله كعنصر مقدس، يستوجب الدفاع عنه ضد الذين يرومون إلحاق الأذى به، بطلب إغاثة الرب لإقالته من عثرته. ثم سيسّ البروتستانتيون نصوص الكتاب الحرفية، فذهبوا في رؤيتهم الدينية إلى اعتبار إسرائيل الواردة في العهد القديم، هي ذاتها إسرائيل

* الحقيقة أن يوم السبت هو يوم الراحة المخصص آخر أيام الأسبوع في التقويم البابلي قبل اليهودي بقرون.

المعاصرة في فلسطين، وأن قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨، تحقيق للنبوءة القائلة باقتراب العودة الثانية للمسيح، وأن عودة القدس إلى يد إسرائيل تأكيد لها، وقد خلصت المؤلفات الأمريكية والغربية العديدة مثل (الديانة في أمريكا لكاتبها هدسون ونثروب عام ١٩٧٣، والحركة الأصولية لكاتبها لويس كاسبر عام ١٩٦٣، وجذور الأصولية لكاتبها إرنست ساندين عام ١٩٦٨، وتاريخ العقائد للشعب الأمريكي لكاتبه سيدني أهلستروم عام ١٩٧٥، وتاريخ الأصولية في أمريكا لكاتبه جورج هولار عام ١٩٧٣) هذه المؤلفات وغيرها، أجمعت على أن الكنيسة البروتستانتية وفروعها المتمثلة في الإنجيلية والمعمدانية والدهرية والمتجددة والسبتيّة والماسونية.. كلها آمنت بنسقين من المعتقدات، نسق جرى في الماضي وانتهى وكان أهم ما فيه*:

- اختيار الله اليهود كشعب مُفضل ومختار.
- اختيار فلسطين كمكان لمعبد الله وموقع لمملكة إسرائيل.
- إرسال المسيح لهداية العالم وإنقاذه وقد رفضه اليهود.
- معاقبة الله اليهود لمخالفتهم تعاليمه.
- الصفح عنهم لأن الله لن يخلف وعده مع شعبه المختار.

أما المنظومة الثانية من المعتقدات، فتتصل بالنبوءات المستقبلية التي ستأتي وفق الإيقاع التالي:

- إن خطة الله تتضمن العودة الثانية للمسيح للتبشير بمملكة الله.
- إن ذلك مشروط باستعادة إسرائيل كشعب مختار لأرضها الموعودة في فلسطين من أجل تمهيد المكان للمجيء الثاني للمسيح.
- إن إنشاء إسرائيل في فلسطين وعودة القدس تحت حكم إسرائيل، إشارات دالة على اقتراب عودة المسيح.

ويبدو أن البروتستانتية ما كانت لتزدهر لولا دعوتها للمساواة في فهم الكتب المقدسة، ولا نعلم تماماً، كيف يمكن لكل الناس أن يفهموا الكتاب المقدس

* من كتاب الدكتور يوسف الحسن، البعد الديني في السياسة الأمريكية ص١١.

بصورة مشتركة، إذ من الواضح تماماً، كما يقول إسرائيل شاحاك في كتابه الديانة اليهودية وطأة ٣٠٠٠عام ــ شركة المطبوعات ص٧٠، أن اليهود قبل قرنين، عندما كانوا يقرؤون التوراة، فإنهم يقرؤون كتاباً مختلفاً تماماً ويحمل معاني مختلفة كلّية عن التوراة التي يقرأها الناس من غير اليهود، خاصة المسيحي الآخذ بالعهد القديم، ومرد ذلك إنما يرجع إلى مسألة التفسير، وقد رأينا تساهلاً كبيراً فيما يتعلق بالمعتقد، والعكس تماماً فيما يتعلق بالتفسير الشرعي للنصوص المقدسة، فالتفسير هنا راسخ رسوخاً صارماً لا يتزحزح، لأنه لا يستند في جوهره إلى التوراة بل إلى التلمود*.

ويؤكد موريس بوكاي صاحب كتاب (القرآن الكريم والتوراة والإنجيل) بأن (مساهمات البشر في التوراة كانت سلسلة لا تنقطع على مدى تسعة قرون وبلغات شتى ــ دار المعارف المصرية ص٢٢). ولعل من العناصر المهمة للتأثيرات اليهودية في العقائد البروتستانتية على اختلاف فروعها، اعتقاد أتباعها بأنهم يمتلكون طريقة خاصة توصلهم مباشرة إلى معرفة ما يريده الله. بما في ذلك جريان الأحداث في المستقبل، فالتاريخ لديهم يُفسّر على أنه وسيلة اتصال الله بشعبه، والتحليل السياسي والتاريخي، إذا ما أُحسن تدبّره، فإنه تأويل لمشيئة الله الحقة، ومن شأن هذا التحليل إذا ما أُسند بالنصوص الدينية، أن يكون الهادي في سبيل الخلاص.

ويمكن للمرء أن يأخذ نماذج من هذه التفسيرات القائمة على خليط عجيب من المزج بين الدين والنبوءات والسياسة والأحداث التاريخية.

- فالمجازر النازية بحق اليهود ــ علماً بأن هذه المجازر كانت بحق جميع شعوب العالم وليس اليهود وحدهم - كانت طريقة أرادها الله لإجبار شعبه المختار للعودة إلى أرض الميعاد - الحاخام ميناحيم كاشير - بعد حرب ١٩٦٧ و ١٩٧٣ نشر الحاخام نفسه كراريس مسيحيانية تعتبر الحقبة بأنها الدور الأعظم لبدء عملية الخلاص.

* من السخف الاعتقاد بجماعية التفسير لآية توراتية واحدة، فاليهود أنفسهم اختلفوا في تفاسير الوصايا العشر فكيف بالنبوءات الخيالية.

- بعد احتلال بيروت عام ١٩٨٢ اعتبر الحاخام ايلعازر فالدمان، بأن عملية الخلاص تتقدم.

- صفق ستمائة وثلاثون حاجاً من الإنجيليين الأمريكيين لمحاضرة وزير الدفاع الإسرائيلي موشي أرينز عندما قال بأن نجاح العملية العسكرية في لبنان، هو حدث من أحداث النبوءات العظيمة لإسرائيل والعالم الحر، وقد وصف أحد الحضور (الكاتبة غريس هالسل) بأن الحجاج الأمريكيين صفقوا ١٨ مرة وقوفاً. وكانوا يضربون الأرض بأقدامهم صائحين (آمين) (هلوليا). ويضيف الأستاذ جورجي كنعان في كتابه (الأصولية المسيحية ص١٢٩): (عندما سألتْ غريس هالسل صديقها الإنجيلي جورج من تكساس، كيف يمكننا التصفيق للغزو وتذبيح الأبرياء أجاب: إن غزو لبنان من إرادة الله، إنها حرب مقدسة، إن حذث لبنان بالغ الأهمية كونه يؤكد النبوءة التوراتية، إن ذلك يعني أننا نقترب من هرمجدون).

وهرمجدون هذه، سهل يقع إلى الشرق من عكا شمال فلسطين، وقد اشتهر هذا السهل، نتيجة لورود اسمه في نبوءة حزقيال القائلة بنهاية الزمان في هذا السهل.

ويؤكد الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان إيمانه المطلق بهذه النبوءة، فعندما سأله جيمس ميلز رئيس مجلس الشيوخ في ولاية كاليفورنيا حول نبوءات الكتاب المقدس، أكد ريغان حازماً أن الفصل ٣٨. من سفر حزقيال ينص (على أن أرض إسرائيل ستتعرض لهجوم تشنه جيوش الأمم الكافرة بما فيها ليبيا طبعاً)* ويضيف ريغان (إن تحوّل ليبيا إلى الشيوعية يشير بأن هرمجدون بات قريباً) وعندما قاطعه ميلز بقوله (لكن الحبشة داخلة في النبوءة، ولا أستطيع أن أرى الإمبراطور هيلاسيلاسي أسد يهوذا، شيوعياً ليخوض الحرب ضد الشعب

---

* أصل النبوءة كما يصوغها القس الأمريكي بات روبرتسون تقول: (في العصور القادمة عندما يتم تجميع أشتات إسرائيل سيحدث شيء ما، يقول الرب: هاكم ما سيحدث، سأضع الكّلابات في أفواه التحالف الذي يقوده جوج في أرض ماجوج (أي روسيا)، والشعوب التي ستكون معه هي توجرما (أي أرمينيا) وبوتا (أي ليبيا) وروش (الحبشة) وجومر (اليمن) وفارس... إننا ننتظر المعركة النهائية المحتومة...

المختار)، عندها رد ريغان بعصبية (لذلك يجب أن تتحول أثيوبيا إلى الشيوعية تحقيقاً للنبوءة) وبعد ثلاث سنوات صدقت نبوءة ريغان في هيلامريام الماركسي في أثيوبيا فكتب ميلز: (لعل ريغان سيكون ممتناً لرؤية التحقق الواقعي لتحول أثيوبيا ومجيء المسيح).

لقد طفق ريغان يردد منذ أن كان حاكماً لولاية كاليفورنيا إلى أن بات رئيساً للولايات المتحدة (هل نحن الجيل الذي سيشهد هرمجدون نووية؟ـ!) ويبدو أن معظم قرارات الرئيس السياسية ظلت متأثرة بهذا المفهوم، حيث ميله للانفاق العسكري الطائل وإحجامه أمام شعارات نزع الأسلحة النووية.

ويشير أندرو لانغ أشهر المعلقين السياسيين في الولايات المتحدة، أن (اعتقاد الرئيس شخصياً بأن الله قدّر حرباً نووية مُسبقاً، يثير عدداً من الأسئلة التي تبعث الرعب في النفس والرعشة في البدن، فهل يؤمن رئيسٌ (دهري) حقاً بجدوى مفاوضات لنزع الأسلحة النووية؟ وهل سيكون مثل هذا الرئيس متروياً وعاقلاً في حال نشوب أزمة نووية؟ أم سيكون متلهفاً للضغط على الزر النووي وهو يشعر في أعماق نفسه أنه يساعد الرب في تنفيذ خطته التوراتية المقررة مسبقاً لنهاية الزمان ـ كنعان. الأصولية المسيحية ص١٣٣).

إن عقلية ريغان الغربية تعكس نموذجاً لرؤساء قدامى في الحياة السياسية الغربية والأمريكية، إذ ما أن أضحت العبرية لغة الجامعات والمدارس والكليات على اختلاف مشاربها الثقافية والغنية والعلمية.. حتى كان القبول بالتفسير اليهودي القديم قائماً في كل كنيسة وأبرشية تحمل طابع الأصولية البروتستانتية وتحولاتها على مر القرون، وهو ما أدى بدوره إلى اقتناع أجيال من العروش والجيوش والباحثين والسياسيين والفنانيين وحملة العلم.. بأن كلمة (إسرائيل) الواردة في كتابهم المقدس، تعني كل الجماعات التي تدين باليهودية في العالم، وأن أرض فلسطين في الآيات على نحوّ متقدّم على أهمية الشعب المختار، فهي قبله وله منذ الأزل، ومن الملفت أن إعادة اليهود إلى أرض التوراة، لم يكن حباً لليهود قدر ما هو أيفاء بالوعد الذي أعطي لهمْ تمهيداً لعودة السيد المسيح!..

لقد تعاطف البيوريتانيون (المتطهرون) الإنكليز، وهم من أتباع العقيدة البروتستانتية المبكرة، مع العهد القديم، إلى درجة أنهم صنّفوا أنفسهم تحت اسم أبناء إسرائيل، وقد ذهب بعضهم حدّ اعتناق اليهودية، فيما آثر بعضهم الآخر استخدام العبرية في طقوس الصلوات الكنسية ثم انتهى المطاف بشعارهم إحياء السامية في الأوساط الرسمية والشعبية، وقد نودي في جيشانات العواطف أثناء المذابح والمذابح المُضادة، وما تخللها من سياسات تحريق للهراطقة، بأن يُتخّذ من العهد القديم دستوراً للمملكة الإنكليزية، وقد بلغ الإيمان ذروته عندما قامت هجرات الأنجلو ـ ساكسون المشبعة بالبروتستانتية وهرباً من اضطهادات الملكة ماري والملك جيمس الأول، إلى الطرف الآخر من المحيط الأطلسي، حين حطّ الرواد الأوائل فوق البر الأمريكي من القارة الجديدة، وتفرّعت عن هذه الطوائف شيع أسبغت على نفسها أسماء عقائدية مثل التطهّرية والأنجيلية والدهرية والمعمدانية، وكلها تطلق على مستعمراتها أسماء توراتية مثل صهيون وحبرون وسالم وعدن وأورشليم، ثم هجروا أسماء أبنائهم المسيحية واستبدلوها بأباء التوراة وأبطالها مثل: ديفيد (داوود) وجوش (يوشع) وكوين (كوهين)، وسام وصموئيل وساره وإستر وبنيامين وروبين.. ولم يمنع البيورتان من الأنجلو ـ ساكسون، أنفسهم من إقامة الشّبَه التاريخي بخروج العبرانيين من مصر، فقد فرّوا إلى أمريكا هرباً من ملوك إنكلترا الكاثوليك، كما هرب العبرانيون من ظلم فرعون، إلى أرض كنعان، كما أعلنوا حرب الإبادة ضد الهنود الحمر، كما أعلن يشوع حرب الإبادة ضد أريحا وعاى الكنعانيّتين، أي ضد سكان البلاد الأصليين، ويصف الأستاذ منير العكش في مجلته جسور (صيف عام ١٩٩٨) التي تصدر في واشنطن، بأن العاصمة واشنطن بُنيت فوق مقابر جماعية لشعب كونوي الهندي الأحمر، وأن مدينة (نكان شتنكه) الهندية قد أُزيلت عن وجه الأرض لتنبت مكانها مدينة واشنطن عروس عواصم العالم. ويتابع: (إن معظم المستعمرات الإنكليزية في أمريكا الشمالية، بُنيت في مجاهل العالم الجديد، كما بُنيت العروسة واشنطن، وقد لا يخطر للملايين الذين يحوسون ديار الهندي الأحمر، من شيكاغو إلى نيويورك، ومن بوسطن إلى ميامي، بأن تحت أقدامهم

مدناً وقرى مُدمرة بل ومغمسة بدماء شعوبها، بعضها أُقيم على بوائد مدن تجارية مثل مكسيكو وأكيتو، وبعضها أُقيم على حواضر متواضعة كـانت تـبرعمٍ مـا بيـن المحيطين مع نّوار البراري مثل نكان شتنكه).

أما الأستاذ شفيق منقار فيلاحظ في كتابه المسيحية والتوراة (مطبوعات لنـدن ١٩٩٢ ص ١٩٣) أن الرواد الأوائل من بُناة الدولة الأمريكية، ركّزوا علـى شـعار مستوحى من ملاحم إسرائيل الديّنية، لجعلـه شـعار الأمـة الرسـمي، (وقـد اقـترح بنيامين فرنكلين أحد كبار الأعضاء في لجنة رسم الشـعار القومـي لأمريكـا، بـأن يُمثّل الرسمُ النبيَّ موسى وهو يفلق بعصاه البحر مع غرق فرعون وجنـوده خلفـه، ثم اقترح توماس جيفرسون وهو الرئيس الأمريكـي الثـالث بعـد جـورج واشـنطن وجون آدامز (١٨٠١-١٨٠٩) بأن يأتي الرسم على شكل خروج موسى يتقدّمـه الرب يهوه كعمود نار ليلاً وعمود سحاب نهاراً، حيث عمود النار بمثابة مشـعل النور الـذي قـاد البشـر إلـى دروب الحضـارة، وعمـود السـحاب رمـز لعلـو بنـي إسرائيل من دون البشر) وقد أيد جون آدامز الشعار الـذي اقترحـه رئيـس أمريكـا الجديد آنذاك. ويُصنف جورجي كنعان طائفة بروتستانتية أمريكيـة جديـدة باسـم العصموية، وهي مأخوذة من إيمانها المطلق بعصمة الكتاب المقدسـة حيـث مـن شعائرها الترنيمية: ـ

«صدقٌ مطلـق وأبـدي.. صـالح لكـل زمـان ومكـان.. لا مجـال لمناقشـته.. ولا مجال للبحث عن أدّلة تؤكده أو تنفيه.. إسرائيل تحقيق للنبـوءات.. إسـرائيل إشارة لقرب نهاية الزمان.

البيورتيانية الإنكليزية والخروج على الكنيسة

عجزت الكنيسة الرسمية التي أسسها عصر الملكة اليزابيث (١٥٥٨-١٦٠٣) عن تلبية الروح الدينية الجموح، التي كانت تستقي عقائدها من مناهل كالفيّنية سويسرا الفوّارة، وعقائد هولندا البروتستانتية، ولم تكن هذه الروح الدينية التي بات يتحلى بها شعب إنكلترا، عقائدية ـ مذهبية كلها، بل إنها نجمت عن واقعية الكراهية المزدوجة: للكنيسة البابوية من جهة، وللنسل الملكي من آل ستيورات من جهة أخرى. فابتداءً من عهد الملكة ماري، إلى جيمس الأول، ثم إلى ابن الملكة ماري، الملك تشارلز الأول (١٦٢٥-١٦٤٩)، ظلت المملكة تشهد كوارث الاضطهاد لعقيدة البيورتان دون توقف. وكان الإنكليز يكرهون مبدأ الكنيسة الرسمية، في ترسيخ هيمنة رجال اللاهوت وأسرار حياتهم، وكان بعضهم الآخر، يكره الطقوس الرومانية التي درجت عليها الكنيسة البابوية، فالنظام الأسقفي، والرداء الكهنوتي الأبيض، وموضع المذبح باتجاه الشرق.. كلّها طقوس كرهتها العقيدة البروتستانتية ووقفت ضدها، وإزاء التناقض المستعصي كان السؤال يدور، حول ذهاب الكنيسة لاستيعاب أنصار العقيدة البروتستانتية المتمثلة بالبيوريتانية الإنكليزية، وهل يمكن التسامح إزاء لاهوت يفد بأفكاره ومشاعره من خارج إنكلترا؟! وبالطبع فإن جواب الملك جيمس الأول ورجال الكنيسة الإنجليكانية كان الرفض. وهكذا اتخذ التاريخ مجراه حيث كان لابد أن يكون كل شيء في مكانه، وآثر ثلاثمئة قس بيورتاني تركوا مواقعهم في الكنائس الرسمية، إذ رفضوا كتاب الصلوات الرسمي عام ١٦٠٤، وكانت المقدمة الأولى للشرارة التي أشعلت الحرب الدينية، والتي ستنتهي بإعدام الملك تشارلز الأول.
كان الدفاع عن الاعتدال الوسط الذي انتهجته الكنيسة الإنكليزية ناجحاً. طالما كانت الملكة اليزابيث على قيد الحياة، بفضل الإدارة الحازمة لرئيس الأساقفة ويت جيف إزاء الكاثوليك من جهة وإزاء المذاهب البروتستانتية من جهة أخرى،

وحتى مع هذا الاعتدال المتوازن، فإنه يمكن القول بأن تيار الفكر العقائدي داخل الكنيسة الإنكليزية كان يشق طريقه بعيداً عن روما، وضمن أقنية بيوريتانية خاصة، أما معارضة جيمس الأول وابنه تشارلز لهذه العقائد البيوريتانية، فلم تكن نابعة من مراعاة الكنيسة الرومانية أو التفكير بالعودة إلى حضيرتها، بل كان الملك تشارلز أكثر صراحة من أبيه في كهنوتيّته الإنكليزية من أنصار الكهنوت أنفسهم، فالملك يتقلد تاجه بموجب حق إلهي والملكية الستيوارتية قائمة بإرادة الله لا بإرادة وسطائه.

إن هذا العداء المبكر الذي قام بين ملوك ستيوارت والبيورتان، كان يمثل عمق الشعور المناهض للكاثوليكية أصلاً، وقد حمل هذا الشعور، إضافة إلى رجال الدين البيوريتاني، أفراد الطبقات الكادحة في لندن والمدن الإنكليزية الأخرى، وغذّت الأحداث الداخلية والخارجية هذا الشعور*، حيث تحولت أتفه الأسباب، إلى محركات قوية لانتشار الهجرة عبر المحيط إلى أمريكا الشمالية رغم عواصف المحيط وأوهام الأحمال العقائدية التي يُراد إنقاذها!..

ثم قرّبت المعضلة الدستورية المتمثلة بصلاحية البرلمان، من نهاية آل ستيوارت، إذ مزّق المحضر الذي نشره مجلس العموم على أيدي الملك جيمس الأول عام ١٦٢١، وكان المحضر يقول: (إن حرية البرلمان وامتيازاته واختصاصاته حقوق أصيلة وقديمة توارثها الشعب الإنكليزي منذ غابر الأزمان، وإن المسائل الخطيرة والشؤون العاجلة المتعلقة بالملك والدولة والدفاع والكنيسة ووضع القوانين وحمايتها وإنصاف المظلومين.. كلها موضوعات ومسائل من اختصاص البرلمان، يتشاور فيها أعضاؤه ويتناقشون). وبعد أن مزّق الملك جهاراً هذا المحضر، عمد إلى حلّ البرلمان ثم اتهمّ سبعةً من أعضائه بالخيانة العظمى. وكان جون بيم زعيم الثورة البيوريتانية أول المُتّهمين. وبعد أربع سنوات من الأزمات المتناوبة، سيرث الملك تشارلز الأول الذي تزوج من ابنة ملك فرنسا هنري الرابع، نوائب أبيه المتطيّر*، إذ رغم محاولته التقرّب من

* مثل محاولة الكاثوليك نسف البرلمان انكليزي بمجلسيه، وإكراه الناس على مزاولة القداس الكاثوليكي، أما الأحداث الخارجية فهي الحروب الدينية التي اندلعت في فرنسا وهولندا وبوهيميا..

* يبدو أن الملك جيمس الأول كان قد ورث عن أمه الملكة ماري، كراهية الطوائف الدينية التي لا تلوذ بكنيسة الملك خاصة البيوريتانية.

البرلمانات التي عادت إلى الحياة السياسية في عهده، إلا أن قلوب البرلمانيين لم يصفُ تجاه السلالة الملكية من هذه الأسرة، فقد اشتد تقتير البرلمانات بالنسبة لمخصّصات البلاط الملكي، ثم راحت تعدّ كل فلس يراد إنفاقه على مشاريع الدولة، وكانت الطامة الكبرى في عدم مراعاتها العجز الحربي الذي كان الملك تشارلز يأمل بتسويته استعداداً لمناحرة الإسبانيين في البحار.. وقد دفعت السياسات البرلمانية الملك إلى الرد على هذا التقتير المقصود والمتعمد، فراح يسلك سبلاً غير دستورية، حين فرض ضرائب جديدة على السفن كما فرض قروضاً إجبارية كان من شأنها تعطيل الحياة البرلمانية من جديد، ورغم استسلام أعضاء البرلمانات للدموع، إلا أنهم لم يفقدوا جلدهم ونشاطهم وعنادهم، في سبيل إقصاء الرغبات الملكية لا النظام الملكي بحد ذاته. في عام ١٦٢٨ رفض تجار لندن وكبريات المدن الأخرى، دفع الضرائب التي ابتدعها الملك تشارلز وقضاؤه المطواع، ثم ما لبث أن أصدر البرلمان بتحريك من القاضي الأعلى لمحكمة الدعاوى العامة، بياناً ببطلان أربعة إجراءات حكومية هي:

- إجازة الأحكام العرفية.
- جواز التصريح بإيواء الجنود في المنازل الخاصة.
- جباية الضرائب والقروض دون موافقة البرلمان.
- السجن التعسفي دون محاكمات قانونية.

وكانت مكافأة الملك التي رد بها على البرلمان هي حلّه، لمدة تزيد على إحدى عشرة سنة، جرى خلالها أحداث واضطهادات ورغم ما أسقطته مخيلة غلاة البيوريتانية من فنون التعذيب وضروب الاضطهادات في عصر تشارلز، إلا أنها مع ذلك، لم تبلغ في شتى صورها، تلك الاضطهادات العنيفة التي مارستها إسبانيا الإمبراطورية ضد الطوائف الأخرى من غير الكاثوليك، حيث الحرق على القوائم الخشبية وتقطيع الرؤوس وهرّس الآلات الحديدية، واسترقاق العبيد لتجديف السفن بالأسطول..

كانت الواقعة التي عملت على تأجيج المشاعر، تتمثل في رفض الاسكتلنديين قبول كتاب الصلوات الانجليكاني في كنائسهم، أما هذا الكتاب، فلم يعد كتاب

طقوس، قدر ما هو أوامر ملكيّة، وكانت المفاجأة بالنسبة للملك تشارلز، أن أشفع الاسكتلنديون رفضهم بإنزال جيشهم إلى الميدان، وفي اجتماعهم بكنيسة غلاسكو، أعلن زعيمهم إيرل آرجيل رفض كتاب الصلوات الإنكليزي، وراح يحضّ على الاستعداد للحرب. ضد إنكلترا. وبالفعل فقد عبر الجيش الاسكتلندي نهر تويد بقيادة ضابط محنك هو ألكسندر لسلي واحتل درهام ونورتمبرلند، وطالب بثمن من المال لقاء تفكيره بالانسحاب، وعلى الطرف الآخر من غرب إنكلترا عبر البحر الايرلندي، نشبت في الجزيرة الايرلندية، حرب أهلية بين الكاثوليك والبروتستانت أدت إلى نتائج دموية مروعة، مما جعل الجيش في مقدمة المسائل السياسية، وسط الصخب القائم، حول صلاحيات البرلمان وصلاحيات الملك.

كان على رأس البرلمان المشاكس، بيوريتانيون من أمثال بيم وهمبدن وهزلرج وهولز وسترود، وقد طالبوا بإلغاء النظام الأسقفي، وتنصيب كنيسة بيوريتانية تحت إشراف مندوبين من أعضاء البرلمان، وقبل أن يهم الملك بإلقاء القبض عليهم، كانت لندن تموج بجموع الجماهير والرعاع المعادية، مما أجبر الملك على التريث، ثم التفكير بالهرب، لكن البرلمان كان هو الآخر قد انقسم على نفسه بين حزب البرلمان وحزب السيادة المطلقة للملك، وقد زوّد أعيان الأقاليم كلا الخصمين بعناصر القيادة، حيث كسب جناح البرلمان لوردات سيكس ومانشستر يؤيدهم اللورد فيرفاكس وأوليفر كروමويل وجميعهم من طبقة مُلاّك الأراضي، فيما كسب حزب الملك سلاح الفرسان الذي يقوده ابن أخ الملك نفسه الأمير روبرت. وفي الثاني من حزيران عام ١٦٤٤ وقعت معركة مارستن مور بين الجيش الملكي الذي يقوده روبرت، وخليط من جيوش ضمّت الاسكتلنديين وغرب إنكلترا وأهالي يوركشاير، وما أن انكشف غبار النقع، حتى كان جيش الملك يلوذ بالفرار، وفي هذه المعارك التي دارت فوق أرض يوركشاير، أظهر أوليفر كرومويل، لأول مرة كفاءته البارزة كقائدٍ للفرسان، وفي معركة نازبي اللاحقة ١٦٤٥ سيهوي كرومويل بضرباته الأخيرة على الحطام المتناثر للحزب الملكي، ومن نقطة النهاية، سيكون للبيوريتان فضل تكوين الأداة التي ساعدت كرومويل للوصول إلى قرارين مُفجعين: إرسال الملك إلى

المقصلة، وحلّ البرلمان إلى غير رجعة. لقد سام البيورتـان أنصـار الملكيـة سـوء العذاب، وفرضوا بحق الباقين على قيد الحياة منهـم، غرامـات تعجيزيـة، وطـردوا الأكليروس من الانجليكان من وظائفهم، ونفرّوا أنصارهم من أمثال جـون ملتـون صديق هنري فنش، وأظهروا عـدم مبـالاتهم بخدمـات الجيـش الـذي حقـق لهـم النصر، واستطاع كرومويل أن يسجل اسمه بحروف من الدم في حوليات ايرلندا، إذ أراد أن يجعل من الايرلنديين شـعباً إنكليزيـاً بروتسـتانتياً، ولـم يسـفر استعمار كرومويل لايرلندا إلا عن نتائج مفجعة لا تزال الجزيرة تكتوي بنارها حتى اليـوم، فايرلندا تمثل صورة الشقاء الإنساني الذي لا نظير له فـي الجـزر البريطانيـة، وقـد غرس كرومويل في نفوس الايرلنديين مقتاً لكل العقـائد البروتسـتانتية، أمـا مذابـح ووكسفورد ودروجدا بحق الايرلنديين الكاثوليك، فقد أخلت المكان اعتباراً مـن العام ١٦٥٠ لأن يكون نصف سكان الجزيرة من الوافدين البروتستانت، (وهنـاك في اسكتلندا تجرّع الاسكتلنديون نصيبهم من دواء كرومويل الـذي خلّـف مذاقـاً مُرّاً، وفي كل مكان وقفت فيه الكاثوليكيـة والبروتسـتانتية وجهـاً لوجـه، كـانت الهوّة المظلمة تخيم فوق رؤوس الناس، وكان لابد لقرنين ونصف مـن الزمـن أن ينقضيا قبل أن يتوصل الناس إلى اتفاقٍ على الاختلاف ـ التاريخ الأوروبي. فيشر).

(١)

توراتية حامي حمى عموم إنكلترا ـ كرومويل

إن الكفاءة الشخصية العالية التي سمحت مع غيرهـا مـن الظـروف التاريخيـة، لكرومويل باعتلاء خشبة التاريخ الإنكليزي، إثر تحطيمه الخصم الملكي وتحويـل إنكلترا إلى بريطانيا عظمى بضمّـه الدمـوي لايرلنـدا واسـكتلندا وإلحاقـه الهزيمـة بالأسطول البحري الهولندي القوي عند ميناء دوفـر ١٦٥٢، فتـح البـاب عريضـاً أمام السجالات العقائدية التي تقول بنصرة العقيدة الحقة علـى غيرهـا مـن عقـائد الآخريـن المهزومـة*، ولئـن كـان الشـعب الإنكليزي متعطشـاً لرؤيـة الإصـلاح

* حتى اليوم فإن العديد من طوائف البروتستانتية الأمريكية تعزو أسباب نجاحات أمريكا وتطورها وقوّتها إلى مساندة الحكومات الأمريكية المتعاقبة لإسرائيل!. لأن الله مع إسرائيل وحلفائها على الدوام.

والخلاص من الاستبداد، فإن جموعه على انقسامها المستطير، كانت ترى إنكلترا في سلالات ملوكها لا في أوهام جمهوريتها، فالملك الطاغية بمشيئة الأقدار، قد يكون كاثوليكياً وقد يكون بروتستانتياً سواء بسواء، كما أن الملك الذي يقود شعبه بوازع من ضميره الذي زرعه الحق الإلهي في صدره، يمكن أن يكون من هذه الطائفة المذهبية أو تلك، وهو ما يراه مؤرخ لاحق ومحايد، غير أن التاريخ لا يمكن أن يجري أمام زمانه، فهو ابن مرحلته وشروطه وقواه الضاربة حتى ولو كان ثمة غفلة عن قواه المهزومة إلى حين، ومن هنا فإن التشكيلة السياسية ـ الدينية والاجتماعية، التي تحلّقت حول بلاط حامي حمى عموم إنكلترا، هي التي ستؤسس عتبة البداية لتاريخ المسيحية الغارقة في التوراة والتي كان عالم البيوريتانية من أوائل واضعيها، فقد جرّ اعتناق التوراة وتسييدها فوق الإنجيل، إلى نتائج قد لا تكون في حسبان القوى التي كان همّها الأول إزاحة الظلم بإسقاط الاستبداد الملكي ومنافقيه من الأكليروس الرسمي، وكتتابع منطقي، فإن العهد القديم بما اكتنفه من أساطير ورؤى وأسفار وبطاركة وبطولات.. أدى بدوره إلى تقديس التاريخ القديم، الذي هو في حقيقة علم الآثار، لا وجود له، وقد توقف البيوريتانيون عند عبرانيي أزمانهم، فوجدوا أن الإيمان بموجب تأويل شخصي لا يمكن استكماله إلا بتمجيد يهود العصر على أنهم من سلالة يعقوب التاريخية، ورغم أن كرومويل كان قليل الميل لمغامرات العقل الديني، إلا أن صديقه وعضو مجلس عمومه المقرّب الشاعر جون ملتون كان في المركز منها، ومع ملتون وقبله مستشار الملك القانوني هنري فنش، كانت الدفقة المسيحية التي تغترف من التوراة بأصلها العبري، تنتشر في ربوع العالمين القديم والجديد، كان عالم اللاهوت الإنكليزي توماس برايتمان يعتبر الأب الروحي لعقيدة بعث اليهود في إنكلترا، وقد جنح بعض أعضاء البرلمان الإنكليزي إلى اقتفاء أثر برايتمان، الذي كتب عن الانبعاث اليهودي (إن الله يريد عودة اليهود إلى فلسطين ليعبدوه هناك، إن الله نفسه يُفضّل أن تتم عبادته في هذا المكان دون غيره من الأمكنة.. إن اليهود كشعب سيعودون ثانية إلى فلسطين وطن آبائهم الأولين ـ ردّ الاعتبار اليهودي في الفكر البروتستانتي الإنكليزي مائير فيريت المجلد رقم ٨).

أما عضو البرلمان والمستشار القانوني لملك إنكلترا هنري فنش فقد كتب عام ١٦٢١ في كتابه المعنون (البعث العالمي العظيم) بأنه يتنبأ باقتراب حلول العودة، واستعادة اليهود للسلطان الزمني ثم بتأسيسهم إمبراطورية على نطاق العالم كله.. ويقول و. بارون في كتابه تاريخ الديانة والمجتمع اليهودي (نيويورك ١٩٣٧ المجلد٢ ص ١٩٨) عن هنري فنش بأنه (ظل يعبر عن إيمانه بالمستقبل الزاهر المُعَدّ لليهود في الخطّة الإلهية، ولذلك ظل طوال حياته يحث الأمراء المسيحيين على جمع قواهم لاسترداد إمبراطورية الأمة اليهودية)، وفي كتابه البعث العالمي يؤكد فنش بأن (اليهود سوف يعودون إلى وطنهم، وسيعمرون الأرض كما عمروها من قبل، وسيعيشون بأمان ويبقون هناك إلى الأبد.. ولن يكون هناك فصلٌ بين الأسباط العشرة وبين السبطين الآخرين، بل يؤلف الجميع مملكة غاية في الازدهار).

كانت الكنيسة الإراستيّة*، في هذه الفترة من حكم الملك جيمس الأول، تقف ضد غلواء البيوريتان الذين يؤججون الحقد على الكاثوليكية، ويرفضون الانصياع لإرادة الله في قيام مملكة استيوارتيّة، وفي هذه البيئة اختار الشاعر جون ملتون موضوعاته من العهد القديم، فصدح في قصيدته الشهيرة (الفردوس المستعاد) حيث تحدث عن بعث إسرائيل: لعل الله الذي يعرف الوقت الملائم.. سيذكر إبراهيم. وسيعيدهم نادمين وصادقين.. وسيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم.. كما شق البحر الأحمر ونهر الأردن عندما عاد آباؤهم إلى الأرض الموعودة.. إنني أتركهم لعنايته وللزمن الذي يختاره من أجل عودتهم.

وفي قصيدته الثانية (عقدة النصرانية) فإن ملتون يظهر إيمانه الراسخ بالعصر الألفي السعيد وبإحياء إسرائيل من جديد.

وقبل وفاة أوليفر كورمويل بثلاث سنوات أي في العام ١٦٥٥، حيث شاعت في إنكلترا تسمية البلاد باسم (إسرائيل الجديدة) زار الحاخام الأسطوري ميناسح ابن إسرائيل مدينة لندن، قادماً من امستردام، وأقيمت الاحتفالات وأطلقت

---

* نسبة إلى اللاهوتي توماس إراستوس من أصل سويسري ـ ألماني وهو يرى وجوب خضوع الكنيسة لسلطة الدولة والقانون.

الكنائس العنان لأجراسها، وبسط ميناسح أمام كرومويل رسالة مؤثرة كان قد بعثها إليه حاخام القدس ناثان شابيرا، وفي الرسالة ما يكفي عن عذابات (شعب الله) الذي يكابد ألوان الاضطهاد على يد المسلمين، ثم طفق يشرح لكرومويل مآثر الكومونولث الإنكليزي في مساعدة اليهود وفضائل تجميع هذا الشعب في فلسطين، وقبل أن يغادر ابن إسرائيل مدينة لندن كانت حملة التبرعات ليهود القدس تفوق كل التوقعات من شعب إنكليزي حريص، كان هناك إجماع يشبه الهيستريا في لندن، بأن المسيح نفسه حلّ في الحاخام اليهودي ابن إسرائيل، (وأن دخوله لندن وركوبه الحمار في بريستول يعيد إلى الأذهان دخول السيد المسيح إلى أورشليم ومعه الحواريون ينشدون ـ أوصنا ـ ثم يتوجونه ملكاً على اليهود ـ بوبكين في بحثه عن الجذور المسيحية للصهيونية، مجلة كونتشن ١٩٩٣). ويقول لورنس آبستن في مؤلفه (نداء صهيون): (إن كثيراً من أهل لندن كانوا يعتقدون بأن كرومويل يهودي، وأنه سيبيع اليهود كنيسة القديس بولص) وقد نبعت هذه الشائعات من سلوك كرومويل العملي، حين عمد إلى حماية جيمس تايلور (أحد زعماء طائفة الكويكرز) من محاكمة برلمانية كادت تؤدي برأسه إذ شبه الحاخام ميناسح بالمسيح، وقد ألغى كرومويل قانون النفي لليهود. من جهة أخرى، فإن الكاتبة بربارة توخمان تشير في مؤلفها (الكتاب المقدس والسيف) إلى أن اهتمام (كرومويل باقتراح ميناسح، هو نفسه الذي جعل لويد جورج يهتم باقتراح حاييم وايزمن بعد عشرة أجيال، وهو اعتقاد مشترك يتضمن بأن اليهود قادرون على تقديم العون في أوقات الحرب، ومنذ عهد كرومويل أصبح أي اهتمام بريطاني بفلسطين يعتمد على دافعين متلازمين: دافع الربح سواء أكان تجارياً أو استعمارياً أو عسكرياً، ثم يأتي الدافع الديني الموروث من الكتاب المقدس).

ومع موت كرومويل (٣ أيلول ١٦٥٨) هبت عاصفة هوجاء بسبب المرارة التي خلّفتها السنوات الأخيرة من حكم كرومويل (حين راحت أعمال البغي التي ارتكبها أولئك الطغاة من البيورتان تفيض فوق السند*، حيث أُثقل كاهل نبلاء الريف بالمغارم الجديدة، وأصبح حكام الولايات من ضُبّاط كرومويل المحلّيين

* تعبير إنكليزي يماثل بالعربية: بلغ السيل الربى.

لا يكتفون بالسهر على النظام فحسب، بل صارت لهم مهمات أخرى كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تطلع الشعب الإنكليزي للخلاص من قبضة رهيبة كانت قد فرضت عليه فرضاً ـ أصول التاريخ الأوروبي الحديث، هربرت فيشر ـ ترجمة الدكتورة زينب راشد والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ جامعة عين شمس. ص٢٩٥). ستقود الجمهورية نفسها، بعد رحيل كرومويل إلى الملكية من جديد، إذ باعتلاء تشارلز الثاني العرش ١٦٦٠ تكون بريطانيا قد ودّعت إلى الأبد، مرحلةً لم تكن من تاريخها، جمهورية الأمجاد والآلام، أو جمهورية إسبارطة الكرومويلية بقوة (ربّ الجنود) البيورتياني أو التوراتي على حد سواء..

لم يفد تشارلز الثاني من تجارب أسلافه الغابرين، ولا حتى من درس أبيه حين جزّ رأسه تحت فأس من فؤوس البيورتيانية الغاضبة، إذ ما كاد أن يعتلي العرش ليصل ما انقطع من حكم آل ستيوارت، حتى عاد أدراجه ينشد العون من فرنسا الكاثوليكية، ولا غرو إذ أن أسرة ستيوارت في هذه المرحلة، كانت فرنسية بعض الشيء، فشارل الثاني كان حفيد هنري الرابع ملك فرنسا، وقد تزوجت أخته من دوق أورليان الفرنسي الذي كان أخاً للويس الرابع عشر، وهكذا فإن كل شيء كان يجتذب آل ستورات إلى فرنسا. فالدم الفرنسي والضيافة الفرنسية أثناء العيش في المنفى (مرحلة كرومويل). والأبهة الفرنسية والأموال الفرنسية.. ولعل سحر العقيدة الكاثوليكية كان يضفي جاذباً خاصاً بالنسبة لتشارلز الثاني إذ هو (وعائلته) طريد الغوغائية البيوريتانية لذلك فقد آثر الاحتفاظ بسرّه عن اعتناقه الكثلكة، بعكس أخيه جيمس الذي أعلن الكاثوليكية جهاراً، وقد أمل كلٌ من تشارلز وجيمس مساعدة فرنسا في توفير التسامح الديني للعقيدة الكاثوليكية القديمة، حيث تستطيع الملكية في إنكلترا أن تنال بهذا التسامح السيطرة، وقد اعتبر تشارلز فرنسا ملاذه الأخير، إذا تعرض التاج لتحدٍ جديد، ومن ثم كانت إنكلترا في عهد الملكين الأخيرين من أسرة ستيورات ـ فيما عدا فترة قصيرة ـ موالية لفرنسا.

وإلى أن يحين موعد الثورة الإنكليزية البيضاء في العام ١٦٨٨، بسبب العقائد الكاثوليكية، ومرض الطاعون الفتاك، وحريق لندن الكبير، وتحالفات آل

ستيورات مع فرنسا، وهزائمهم أمام الأساطيل الهولندية، ستبزغ حقبة وتغرب أخرى، فما أصبح واقعاً في بلاد المملكة الإنكليزية أن شمس الستيوراتيّة قد غربت إلى غير شروق، وأن شمساً جديدة ستشرق على أسرة هانوفر بشخص وليم الثالث وزوجته ماري ابنة الملك جيمس الثاني آخر سلالة ملوك الستيوارتية، وكان ذلك في الثالث عشر من شباط ١٦٨٩. في هذه الفترة من الزمن الإنكليزي الغريب، حيث الملك (تشارلز الثاني) يخفي عقيدته الحقيقية في الكثلكة خشيةً من غضب شعب البيورتان، انتشر الطاعون في البلاد، واجتاحت الحرائق ألوف البيوت في لندن، حيث شهدت المدينة موت سبعين ألفاً من الناس، ورسم الناس على أبواب بيوتهم شارة الصليب مشفوعة بعبارة خلاصية (أنقذنا يا رب)، في هذه الفترة، سرت شائعة ظهور (المسي المنتظر)* في القسطنطينية متجسداً في حاخامها الأكبر شبتاي تزمي، وقد أحيا شابتاي الأمل بقرب انهيار عالم إسلامي بغيض، وأعطى الطاعون والحرائق والموت هلوسات قيامية نبوية، إذ أن المسي قادم من الشرق وتحت لسانه نهاية الزمان التي وردت في رؤيا الأنبياء التوراتية. ويعبر الكاتب العربي من سورية منير العكش عن هذه المرحلة (مجلة جسور - واشنطن صيف عام ١٩٩٨ ـــ فكرة أمريكا) إذ يقول: (كان شعب الله في هذا الكرنفال القيامي، كارنفال الفرح والنار والطاعون ينظر إلى المسي شابتاي تزفي ليقود سراياه وسرايا يهود العالم إلى آخر جثة في أرض كنعان، لكن المسي الذي يحب الانتظار والدلال منذ أن ولد في ذهنيّة الأحباط الأرضي والانتقام السماوي، خيّب الآمال ولم يترك لأهل لندن إلا آثار الطاعون واللهب وأشباح نهاية الزمان).

أما الكاتب اليهودي جيرشوم شوليم صاحب السيرة لحياة شابتاي فيقول: (لقد أصيبوا، أي شعب الله الإنكليزي، بالخيبة والانكسار، وتحوّلت أعراسهم إلى مآتم وأتراح، عندما تبين لهم أن المسي الموعود، موّحد الإنكليز واليهود، أعلن إسلامه ومضى حاجّاً إلى مكة) ويؤكد آخرون بأن شابتاي أسلم ثم عاد عن إسلامه فحوكم بتهمة الارتداد، والمحصلة أن هذا المُختّل الذي كان يوقّع

* هو نبي اليهود المنتظر الذي سيهبط على الأرض لتخليص العالم، وأما الفارق بينه وبين المسيح المنتظر، فإن المسي المنتظر ينزل لأوّل مرة، بينما المسيح المنتظر في العقيدة المسيحية يعود للمرة الثانية.

رسائله تحت جملة (إلهكم الرب شابتاي)، كان قد فتَن شعب الله على طرفي المحيط!..

ثم أذنت المرحلة بانتهاء الصخب المأفون مع أسرة هانوفر في إنكلترا، فلكي لا يُنهي المجتمع نفسه، كان من الطبيعي أن يحل العقل محل الخرافة، والتسامح محل التعصّب، والعلم محل الشعوذة، والحرية على أنقاض الاستبداد، سواءً الديني منه أو السياسي، وهكذا بدأت حقبة جديدة تشي عن نفسها تحت إرادة آل هانوفر تمثلت فيما يُسمى بعصر التنوير، ذاك الذي تبدّى في إشاعة التسامح الديني، حرية الصحافة، وإقامة الحكم النيابي الدستوري.. واستطاعت أسرة هانوفر أن تشقّ طريقها وسط التيارات الدقيقة والحسّاسة، دون أن تعتريها آفاق تقلّبات داخلية، كما استطاعت بفضل انفصالها عن مؤثرات الملكية الفرنسية، واستردادها قوة إنكلترا البحرية، وإقامتها التحالفات المتوازنة لكبح جماح لويس الرابع عشر... أن تعزز مركزها الداخلي خاصة وأنها أعلنت عن تحديد اتحادها مع اسكتلندا في العام ١٧٠٧.

(٢)

ما بين عصر التنوير وعصر الخرافة:

قبل الخروج من القرن السابع عشر، فإن أوروبا بعيداً عن البحار الإنكليزية، كانت هي الأخرى تعيش عقائدها البروتستانتية في لوثرية ألمانيا، وكالفينية سويسرا والأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ) وهيجونتيّة فرنسا.. وكلها عقائد بروتستانتية مُعدّلة عن الأصل شيئاً ما، وقد اتصفتْ هذه الحقبة بازدهار الحركات الأصولية المسيحية. ففي ألمانيا مهدت اللوثرية، نشر رجل الدين البروتستانتي بول فيلجنهاور كتابه (أخبار سعيدة لإسرائيل)، ربط فيه ما بين عودة المسيح المنتظر وهبوط المسي اليهودي، وتنبأ بأنهما حدثٌ واحد، وتشير الكاتبة ريجينا شريف (مصدر سبق ذكره) إلى أنّه حسب اعتقاد فيلجنهاور، فإن العصر الألفي السعيد يبدأ (منذ عودة اليهود إلى وطنهم الذي منحه الله لهم بوعده القاطع لآبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب) وحيث نثرت

الكالفينية بذورها في حدائق جنيف، ومقاطعات سويسرا الشرقية، فقد أزهرت في البلدان المجاورة، فرنسا مروراً بألمانيا إلى الدانمرك فالسويد، شخصيات أدبية ودينية وسياسية، كانت تنادي بمحو الذنب الذي ارتكبته المسيحية بحق اليهود، وقد بلغ بعالم مثل فيليب دي لانجير الفرنسي (١٦٥٦-١٧١٧) أنه طالب الخليفة العثماني بقبول روما بدلاً من مدينة القدس!.. وبدخول القرن الثامن عشر قرعت البشرية ناقوس عصر التنوير، ففي كتابه (الرؤيا كانت هناك) يؤكد فرانز كوبلر أن (حركتي التنوير الفلسفية والربوبية إبان مجدهما لم يُضعفا حركة الإحياء الديني اليهودية، بل أثرياها عن طريق مزجها بحماسة قوية واقعية ومفيدة، وعلى ذلك أخذت الفكرة الأساسية للإحياء الديني تنتقل من جيل إلى آخر، مع إجراء تعديلات كبيرة عليها، وهكذا إلى أن أحدثت الثورة الفرنسية تغييراً جذرياً مفاجئاً). والواقع أن عقيدة البيورتان اشتدت شوكتها في عهد ما يسمى بعصر العقل، على الرغم من المعارضة الرسمية الهادئة لها، فصاحب الوحي للثورة الإنكليزية البيضاء، جون لوك، الذي التمس جوهر الفكر في عصر الاستنارة وهو من خيرة أبناء كامبردج، كان في تسامحه الديني يُعلق على رسائل القديس بولص بأن (الله قادر على جمع اليهود في كيان واحد، وجعلهم في وضع مزدهر في وطنهم) ورغم إيمان لوك بالصدى العالي للأحاسيس البشرية، والحكومة المدنية القائمة على العقل ورفع الاضطهاد، فإن تنوير لوك لم يلحظ مثلاً، ما الذي سيحل بشعب آخر يسكن فلسطين واقعياً منذ ألف عام قبل ولادته، وآلاف السنوات الكنعانية قبلها*.

وعن معاصره العالم الكبير إسحاق نيوتن، فإن نظرياته العلمية لم تمنعه من التمتع بالهرطقة، حيث يصفه جامع تراثه في (مخطوطات السير إسحاق نيوتن اللاهوتية - د.هنري) بأن نيوتن ترك تراثاً قيامياً أكثر من تراثه العلمي، فقد كان مأخوذاً بالتجربة اليهودية وبمفهوم الألوهية العبراني، وكان يُقدّس طريقة القياس بالذراع لأنه قياس معبد سليمان، كما أنه وضع مخططاً هندسياً يرمي لإعادة بناء المعبد فوق أنقاض المسجد الأقصى، أما جون تولاند صديقه في أستاذية

---

* ولد جون لوك في العام ١٦٣٢ ودخل المسلمون العرب مدينة القدس في العام ٦٣٤ ميلادية، وبذلك يكون الفارق بين ولادة لوك ودخول العرب فلسطين زهاء ألف عام.

كامبردج، فطالب صراحةً بتأسيس دولة يهودية تكون أقوى دولة في العالم، وقد أفاد ديفيد هارتلي أحد مؤسسي علم النفس الحديث بأنه (لن تكون هناك سعادة حقيقية ولن تهبط أورشليم من السماء ولن تقوم مملكة الله إلا بعد دمار فلسطين ومحو بابل وحرق أهلهما بالنار) هذا ولم يمنع الأوكسجين مُكتشفه القس البروتستانتي جوزيف برستلي من أن يؤمن بأن المسيحية واليهودية تكمّل كل منهما الأخرى، ويقول فرانز كوبلر (مصدر سبق ذكره) بأن برستلي عندما فرغ من اكتشافه الأكسجين خاطب اليهود قائلاً (آمل أن يضع إله السماء، إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، الذي نعبده نحن المسيحيين، كما تعبدونه أنتم، حداً لتشردكم وأن يجمعكم في وطنكم أرض كنعان).

ولئن كان القرن الثامن عشر، هو عصر المخترعات والثورة الصناعية بما عاصرها أو كان سابقاً عليها ولاحقاً لها، من ثورات أدبية وفنية وفلسفية، فإن التاريخ والجغرافيا كانا من مخترعات القرن نفسه، وحيثما رحلت العقائد الدينية كان يحل الأدب بتلاوينه الشعرية والقصصية والمسرحية محلها، ورغم ميل الأدب إلى الهدوء والبساطة، بدلاً من العنف الذي ساده في القرنين السابقين، إلا أنه مع ذلك، ظل يستمد أفكاره من العهد القديم، وفي عصر التنوير الذي مهد السبيل لسياسات تسامح دينية، أطلَّ الكاتبُ المسرحي المغمور، ريتشارد كمرلاند، إذ قدّم مسرحيته (اليهودي) حيث بطلها (شيفا) الذي يتمتع بحميد الصفات وعظيم الخصال ومحيد السجايا.. رغم أن عمله الذي يعتاش منه كان قائماً على الربا، ويبدو أن كمبرلاند أراد بعمله هذا أن يتصدّى لتأثير مسرحيات سابقيه مثل تاجر البندقية لشكسبير أو يهودي مالطا لكريستوفر مارلو، ورغم أن النسيان قد طوى كمبرلاند، على نقيض شكسبير ومارلو، إلا أن يهود بريطانيا وحدهم أقاموا في وسط لندن، احتفالاً بذكرى مرور مئة عام على وفاة كمبرلاند في العام ١٩١١، ثم اتسع مجال الرواية على حساب المسرح أواخر القرن الثامن عشر، وتوارث الشخصية اليهودية البغيضة في الأدب الإنكليزي، فيما آثر ولتر سكوت تحميل صورتها في روايته أيفانهو، وفي هذه الرواية يظهر سكوت تعاطفه مع معاناة اليهود في أوروبا وخاصة ألمانيا، ورغم أنه قدّم صوراً من ألوان الفظائع التي تنصب على رأس اليهود في المقاطعات الألمانية، إلا أنه مع ذلك،

كان قد صارح أصدقاءه بأن كل ما كتبه في ايفانهو، كان يسمعه من صديق يهودي له، أثناء زيارته في مرضه.

وقبل أن يؤذن القرن بالغروب، كان الشاعر الإنكليزي وليم بليك يطلق تأوهاته الشعرية في وجه إنكلترا: استيقظي يا إنكلترا.. استيقظي استيقظي. فأختك القدس تناديك، لماذا ينام هؤلاء المؤمنون كالأموات ويغلقونها عن جدرانك القديمة.

هذا وستشهد القارة الأوروبية الغربية موضوعات أدبية، روائية وشعرية ومسرحية لا تقل في جوهرها وعمقها عن تلك التي سادت إنكلترا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ففي فرنسا قدّم الأدب الكلاسيكي رواية عبرية خالصة تحت عنوان أستير على يد الأديب الضليع جين راسين، وقد صور معاصرُه الباحث التاريخي جاك بوسيه، إسرائيل على أنها الأمة التي تعلو كل أمم العالم، ولم يتأخر الأدب الألماني عن محاكاة عصره، ففي العام ١٧٧٩ وضع الشاعر الألماني الشهير أبهرايم لسنغ روايته التي طبقت آفاق ألمانيا، ناثان الحكيم، وتصوّر الرواية التي تدور في زمن الحملة الصليبية الثالثة. شخصية صلاح الدين الأيوبي، على أنها الشخصية القاسية والسطحية التي تمكّنت مع ذلك من احتلال القدس، أما فارس الهيكل المسيحي في الرواية، فإن لسنغ، يظهره متعصباً أعمى لعقائده، وهو أقل شأناً من بطل الرواية اليهودي الحكيم ناثان.

وفي الترانيم الكنسية الألمانية، فإن النص الألماني كان يتضمن تعابير عبرية صريحة، وعبر الألزاس من ألمانيا إلى فرنسا، كان (ناثان الحكيم) يتمثل في جان جاك روسو، المواطن السويسري من جنيف، حيث ينحدر من أسرة بروتستانتية، فقد كتب روسو في روايته إميل:(لن نعرف الدوافع الحقيقية لليهود حتى تكون لهم دولتهم الحرة ومدارسهم وجامعاتهم) أما بليز باسكال العالم الذي شهد ذروة الهيجونت البروتستانتي الفرنسي، فقد سبق روسو في التبشير لإسرائيل جديدة التي هي النذير الرسمي، لعودة المسيح المنتظر، وقد وصف اليهود بأنهم (الأمة الأولى التي ظلت متمسكة بدينها بشكل صادق) وقد راع فولتير. بعد أقل من نصف قرن، أنَّ عالماً من بلاده مثل باسكال، يظن أن اليهود أقدم شعب عرفته

الإنسانية، وأنهم هم الذين يستأهلون التقديس من دون شعوب البشر، ثم وجّه له نقداً عنيفاً لا هوادة فيه.

وقبل أن يقتحم القرن التاسع عشر زمن العالم بنزاعاته الاستعمارية التي صبغت القارة الأوروبية (وخارجها) بألوان من الدماء، فإن تاريخ اللاسامية الذي تُرمى به ألمانيا وفرنسا (قضية درابفوس)* وكان مشوباً في أساسه بميول توراتية ضد الآخر، فالفيلسوف الألماني وعالم اللاهوت البروتستانتي جوهان جوتفرايد، رغم إيمانه بالعهد القديم وحديثه عن (نبوغ العنصر العبري) في التاريخ، إلا أنه لم يخف أزدراءه ليهود عصره ومقته لهم حتى الموت (لقد أخفقوا في تأكيد إحساسهم القومي، وجبنوا في تحيق حنينهم إلى وطن الأجداد، رغم كل المظالم الواقعة على رؤوسهم) وتذهب ريجينا شريف في كتابها الصهيونية غير اليهودية - عالم المعرفة ص٨٢، إلى أن هذا الفهم لليهودية كأمة عضوية متكاملة، بدلاً من كونها ديانة، كان واحداً من السمات المميزة للفيلسوف الشهير إيمانويل كانت، فقد وصف اليهود قائلاً، بأنهم (الفلسطينيون الذين يعيشون بين ظهرانينا اليوم) أما جوهان فيخته أستاذ اللاسامية الألماني، فإن عداءه لليهود كان مصطبغاً بأفكار صهيونية ما عتمت أن ارتدت زي القومية الألمانية المُتعصّبة: (ليس لليهود مكان في أوروبا، وعليهم أن يرحلوا إلى فلسطين، حيث نبتت جذورهم) وقد نظرت أوروبا بعيون استعمارية لهذا الحل الفيختوي، إذ اعتبرت، أن انتزاع الأراضي المقدسة من يد السلطة العثمانية، وإعادة اليهود إليها، حتى ولو بالرغم منهم، يشكل بداية صحيحة لحل المسألة الشرقية على الطريق نحو اقتسام العالم.

ومع بداية القرن التاسع عشر، كانت الأجواء في بريطانيا معبأة لمعركة تصفية الخلافة العثمانية، فقد بدت هذه التركة أكثر من أي وقت مضى، بأنها دانية القطوف، ومضت السياسة تبلور خططها، والجيوش ترسم خرائطها وحتى الأدب والشعر دخلا ساحة المعركة دون أن يعني ذلك بأن أوامر صدرت لنجوم الأدب والشعر بالدخول، إذ ما يحدث عادة أن المناخ العام السائد في أي بلد من البلدان

---

* حوكم الضابط الفرنسي ألفريد. ج. درايفوس عام ١٨٩٤ بتهمة الخيانة العظمى في باريس، وانتهت المحاكمة بطرده من الجيش وسجنه، قامت الصحافة الفرنسية اليمّينية باتهام درايفوس بخيانته ويهوديته، ثم ظهرت براءة درايفوس عام ١٩٠٦ فأصبح نشيداً هولوكستياً في تاريخ أوروبا اليهودي.

في مرحلة معينة من تاريخه، يمدّ تأثيره على كل شيء من المدفع إلى المسرح، ومن القنبلة إلى الأدب ومن الرصاصة إلى التاريخ الذي يكتبه المنتصرون..

لم تعد تقارير أوروبا عن فلسطين تظهر في الدراسات العلمية وحدها، بل والخططية أيضاً، فقد شهدت المرحلة من أواخر القرن السابع عشر وحتى أواخر القرن التاسع عشر، موجات من الحجيج والرحالة، ملأت الأدب الغربي بما كان ولم يكن، فمن المؤرخ هنري مونديل إلى عالم الآثار البريطاني توماس شو إلى الرحالة قسطنطين فولني إلى الشاعر الفرنسي دي لامارتين إلى القنصل البريطاني جيمس بين ثم إلى الكاتب الأمريكي الإنجيلي مارك توين في العام ١٨٦٧.. وسيصرخ السير هنري مكماهون في تاريخ لاحق: (لقد تحول هؤلاء الرحالة وعلماء الآثار ومن حولهم، إلى ضباط مخابرات). وفي هذه المرحلة من انتصار المذهب العقلي الذي دشن نفسه بانتصار مبادئ الثورة الفرنسية قبل أن تأكل نفسها، أو يأكلها العسكريون بعدها، كان الأدب الغربي ـ الذي صار يتكئ على تقارير الحجّاج والرحالة ـ يحوّل فلسطين من بلدٍ للتوراة إلى بلدٍ للتوراتيين، أي إلى وحدة جغرافية ـ مستكشفة قابلة لأن تكون وطناً معاصراً لليهود، وقد حملت القوالب الأدبية في بكورات القرن التاسع عشر، صور (التركي المسلم الرهيب.. الكافر والفظ، ويستشهد روبرت بورتون من خلال رحلتين قام بهما إلى القدس، بأن (المسلمين هم الذين جعلوا فلسطين أرضاً قاحلة، إذ أن الكفرة المتوحشين بحروبهم المتصلة، دمّروا هذه الأرض التي تخلّى عنها الله ـ بورتون من كتابه ملاحظات مشهودة عن التاريخين، القديم والحديث للأمة اليهودية). كما وصف العالم الشهير فرانسيس بيكون (أرض فلسطين بالحديقة الغناء التي أقفرت على يد المسلمين).. ولم ينج المسيحيون العرب في فلسطين من الاستهزاء، فقد وصفهم حجاج البروتستانت بأنهم (بقايا حماقات رومانية إذ هم يقبلون الأماكن والآثار المقدسة).

وعلى النقيض من المسيحيين العرب، فقد حظي يهود فلسطين بنماذج مثالية مُتخيّلة، بأقلام أدباء عصر التنوير، وحكايات الرحّالة العائدين، وتقارير عيون الإمبراطورية في البلدان المقدّسة على طريق الهند، الأمر الذي عزز من توثيق

الارتباط بين اليهود الذين أحيتهم آيات العهد القديم، وبين فلسطين أرض الآباء العبريين، وهو الاتجاه الذي عززه لاهوت بروتستانتي غربي.

(٣)

وكان قرناً من زمن الاستعمار:

كانت رياح واترلو المعركة الفاصلة التي أدت إلى هزيمة نابليون في بلجيكا، ما تزال تهب في أرجاء القارة الأوروبية المتذابحة على العقائد القائلة بتنفيذ أمر الله في مناطق النفوذ، فقد انقضى الزمان الذي كان ينتظر إرادة السماء في عودة المسيح المنتظر، الذي من علاماته تجميع اليهود في فلسطين، وها هي إرادة البشر تدخل عوناً لإرادة السماء في مناورة غير بروتستانتية مهيبة ـــ ومن نابليون (المسلم) إلى نابليون (اليهودي) كانت أوراق الإمبراطور تطبع في باريس:

(من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين. أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد، الذي لم تستطع قوى الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط.

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين، وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعيا ويوئيل، قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء عن طريق إيمانهم الرفيع أن عبيد الله*، سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون، وسوف تغمرهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد أختار القدس مقراً لقيادته، وخلال أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي استهانت طويلاً بمدينة داوود وأذّلتها يا ورثة فلسطين الشرعيين.

إن الأمة الفرنسية التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها، تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء. سارعوا، وإن هذه اللحظة هي المناسبة التي قد لا تتكرر لآلاف السنين، للمطالبة باسترداد حقوقكم ومكانتكم

* في اللغة العبرية، فإن كلمة إسرائيل أصلاً تعني أسير الله أو عبد الله.

بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سُلبت منكم لآلاف السنين، وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم يهوه، طبقاً لعقيدتكم، وافعلوا ذلك في العَلَنْ وافعلوه إلى الأبد).

لم يكن بونابرت يهودياً أو بروتستانتياً ولا حتى متديّناً كي نسمع نشيد مزاميره هذا، ولو أخفينا توقيع صاحب الخطاب، ومفردات تنمّ عن فرنسا فيه، لتبدّى كاهناً في حلّه بروتستانتية قشيبة، فأشعيا ويوئيل والنبوءات، بعودة اليهود المنشدين والجذلين إلى صهيون، واختيار القدس ووعيد دمشق وآلاف السنين التي وراء اليهود في فلسطين وعبادة الإله يهوه.. وكان ينقص نابليون أن يضيف نشيداً بونابرتياً إلى التوراة تحت عنوان: ـ ثمرات السياسات العقائدية الجديدة وأفضالها.

إن الخطاب البونابرتي لليهود، كان بمثابة نبوءة سياسية مستقاة من مستنبت النبوءات الدينية، وهي ما اقتحم الإنكليز مجاله بفعالية فيما بعد، فقد أخذ رئيس وزراء بريطانيا اللورد بالمرستون (١٧٨٤–١٨٦٥) عن إمبراطور فرنسا وتعلم منه، وكانت تلك هي ميزة بريطانيا في مراحل صعودها، فهي تحفظ الدرس ولو من أعدائها، ثم ما تلبث أن تحيله أداءً ممتازاً يبزّ الأصل في صورته وتصوّره وممارسته..

وإلى أن يحين موعد غروب الإمبراطور مع الشمس الآفلة في واترلو، جرت مياه غزيرة في التايمز، فأصحاب تيار العقل من الغربيين، سواءً في مجال السلطة أو الفكر أو الأدب، نظروا إلى حرّية اليهودي بتأثيرات مسيحية يهودية قومية، خارج شعار الاندماج الذي نادى بتعايش الأديان في أوطانها بصورة متساوية، وقد نظر أصحاب تيار العقل إلى حرية اليهودي على أنها الحرية لا الفردية، بل الجماعية القومية التي لا يمكن أن تتحقق إلا في وطن قومي، هو أرض الأجداد*، وأما أرض الأجداد هذه، بالنسبة لأصحاب النبوءات التوراتية، فلم تكن تحتاج إلى برهان. إن آخر ما كان يحتاج إلى البرهان هو الأدب، وبعيداً عن مسرح الحرب في واترلو (١٨١٥)، دخل اللورد بايرون مسرحاً آخر، فقد أطلق

* لا يمكن أن نفهم نحن العرب، كيف يتم هذا المزج بين تيار عقلي وأرض الأجداد، علماً بأن مبتدأ العقل اعتماده على البرهان والمنطق والتجربة والعلم خاصة علم التاريخ.

لمجموعته الشعرية العنان (١٨١٥) في ظل إعجاب مبهم وحميم بقدرة اليهود الخلاّقة، تلك القدرة التي تمكنت من تجاوز المحن على مر الدهور، وكانت (أغانيه العبرية) في مجموعته الشعرية رجع صدى لما حمله من إيمان البيئة التي أولدته:

لليمامة عشّها، وللثعلب كهفه

ولكل شعب أرضه إلا اليهودي

فليس عنده.. غير قبره

ولا يجد المرء أفضل من البيئة البيوريتانية الخلاّقة في نُواحها على الفردوس اليهودي المفقود، بما في ذلك القدرة الخلاقة لليهود أنفسهم، فهذا روبرت براوننغ بعد عقود من بايرون يطلق آهاته المتوجّعه في قصيدته (يوم الصليب المقدس):

سيرحم الله يعقوب

وسيرى إسرائيل في حماه

عندها ترى يهوذا القدس

وسيتشّبثْ المسيحيون ببيت يعقوب

هكذا قال النبي وهكذا يعتقد الأنبياء.

وعلى امتداد العصر الفكتوري ١٨٣٧-١٩٠٠ الذي شهد تأسيس القرن الإمبراطوري لبريطانيا، انتعشت نهضة تبشيرية بنسخة بيوريتانية مُعدّلة (إنجيلية) عن تلك التي سادت في القرن السابع عشر، وتصف بربارة توخمان هذه الفترة العبرية الفاصلة في تاريخ إنكلترا بقولها:

(بعد الفترة الهيلينية في القرن الثامن عشر عاد رقّاص الزمن ثانية لفترة عبرية أخرى، إذ حلّت حركة التقوى الفيكتورية، محل مذهب الشك الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر، كما حلّت حركة سفر الرؤيا محل المذهب العقلي ــ الكتاب المقدس والسيف ص١١٥).

وعلى قسمات هذه الفترة الإنجيلية بل ومنذ مطلعها، قام بيوريتانيّون مجدّدون كبار مثل إدوارد بيكر ستيث ولويس واي إلى جانب قائمة طويلة من المسيحيين الفيكتوريين بالدعوة إلى العودة للعبرانية القديمة. وكانت الدعوة مشفوعة باعتبارات سياسية عملية إلى جانب كونها دينية، وزاد من أهمية هذه الدعوة، كونها صادرة عن أعضاء بارزين في جمعية لندن لتعزيز الروابط المسيحية مع اليهود، التي تم تأسيسها منذ العام ١٨٠٧، ولعل من أبرز الشخصيات اللامعة في هذه الجمعية، اللورد أنتوني أشلي كوبر (١٨٠١-١٨٨٥) إيرل شافتسبري السابع، والذي سيتبوأ في تاريخ الصهيونية، مركزاً من أهم المراكز ذات الشأن الأكبر في عوامل انجاحها، حيث يمكن القول بأنه مع إيرل شافتسبري كانت الصهيونية، تقلع على جناح الطائر الميمون لبريطانيا نحو فلسطين.

كتب شافتسبري في يوميّاته (١٤ حزيران ١٨٣٨) التي يستشهد بها الكاتب المرموق محمد حسنين هيكل في كتابه (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الكتاب الأول ص٣٩) ما يلي: (أمس تناولت العشاء مع بالمرستون*، ورحتُ بعد العشاء أحدثه عن مأساة اليهود وعذاباتهم، وكان يستمع وعيناه نصف مغمضتين، يمسك بيده كأس براندي يرشف منه ما بين وقت وآخر وعندما تركت حديث المأساة اليهودية، ورحتُ أحدّثُه عن المصالح والمزايا المالية والتجارية التي تنتظر بريطانيا في الشرق، لمعت عيناه وتبدّى اهتمامه وترك كأس البراندي على المائدة جانباً وراح يسمعني..).

وبعد عام من استمالة قلب للورد بالمرستون لصالح المسألة اليهودية، كتب إيرل شافتسبري في مجلة المراجعة الفصلية (تصدر كل ثلاثة أشهر مرة) مقالاً في آذار ١٨٣٩ تحت عنوان (حال اليهود وآمالهم)، ذكر فيه (أن اليهود سيبقون غرباء في هذا العالم، إلى أن يعودوا لموطنهم فلسطين، أما الإنسان نفسه فقادر على تحقيق إرادة الله بتسهيل هذه العودة. إن اليهود هم الأمل في تجدّد المسيحية وعودة اليهود).

---

* اللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا ثم رئيس وزرائها في المرحلة التي سبقت وأعقبت سقوط الإمبراطورية الفرنسية في عهد نابليون بونابرت، وهو قريب إيرل شافتسبري بالمصاهرة، ولد بالمرستون في العام ١٧٨٤ وتوفي عام ١٨٦٥.

وقبل هرتزل بما يزيد على خمسين عاماً، كان شافتسبري هو الذي طرح فلسطين (كوطن بلا شعب لشعب بلا وطن) ومن أجل عدم الاعتراف بحدود إسرائيل، فإن الصهيونية استبدلت كلمة (وطن) في خطاب شافتسبري بكلمة (أرض). وفي هذه المرحلة، توهّجت لغة المذكرات المرفوعة إلى الحكومة البريطانية حيث اللغة الرفيعة المستقاة من عالمين: عالم التوراة وعالم السياسة العليا.

ولعل السياسي البريطاني الشهير، سكرتير عام البحرية البريطانية هنري إنس، كان من أبرز السياسيين الذين أودعوا الخارجية البريطانية، مذكرةً استرحامية لإنصاف اليهود، ولم يكتف إنس بالخارجية البريطانية، بل طيّر مذكرته إلى كلّ دول شمال أوروبا وأمريكا البروتستانتية، وتطالب المذكرة حُكام أوروبا بأن يحذوا حذو قورش الفارسي، ويحققوا إرادة الله في إعادة اليهود إلى فلسطين، ويقول ناحوم سوكلوف في كتابه (تاريخ الصهيونية) الصادر عام ١٩١٩ في لندن، بأن بالمرستون (بعد أن قرأ المذكرة وتمثّل فحواها، قام برفعها إلى الملكة فيكتوريا، ثم مالبثت الصحافة البريطانية، أن أضاءت ساحة المسألة اليهودية بوهج إعلامي لا مثيل له).

بعد عام نشرت التايمز في ١٧ آب ١٨٤٠، بأن اقتراح توطين اليهود في أرض آبائهم وبحماية القوى العالمية الخمس، لم يعد محلّ تفكير وتأمل، بل قضية سياسية غاية في الخطورة. وبعيداً عن إيمانية إنس البيورتيانية، فإن العالم المفتوح، أمام الإمبراطورية البريطانية، كان يتطلب النظر إلى المصالح والمستقبل، من نافذة المسألة الشرقية التي ظلّت تعتبر من أهم المسائل الموضوعة على جدول أعمال الإمبراطورية، وكان اللورد ولنغتون قاهر نابليون في واترلو، أول من رفع مذكرة خططية وسياسية، تمسّ خارطة المنطقة، التي ضمّت لوحتين للقوى المفاعلة: السلطان العثماني، وجيوش محمد علي باشا.

كتب ولنغتون تعقيباً على انتصارات إبراهيم باشا في بلاد الشام، مذكرةً إلى بالمرستون يقول فيها:

في هذا العام نشبت أزمة خطيرة بين مصر وتركيا نتيجة لتناقضات وصراعات سببّها والي مصر، وقد استطاع محمد علي في عشر سنوات أن ينشئ أسطولاً وجيشاً يفوقان كل ما يحتاجه للضرورات الشرعية لحكومته، واستطاع بتصرفات

متسمّة بالطغيان والاضطهاد ضد شعبه، أن ينشىء جيشاً في حجم ليس له ما يُبرّره، فقد جنّد مئة ألف جندي وحشدهم ضد سيدّه الخليفة العثماني، ورمى جانباً قناع الولاء الذي يتظاهر به، وأعلن أمام قناصل الدول في مصر، أنه يريد إعلان استقلال مصر، كما أنه طالب بضم سورية، ونجح فعلاً في أن يشن حرباً ناجحة ضد الخلافة، وتقدّم بجيوشه حتى نصيبين على الحدود التركية ـ السورية، ولم تقتصر قوة محمد علي على جيشه البري، وإنما تمكن أسطوله البحري من إلحاق الهزيمة بالأسطول التركي*.. إن هذه الأوضاع تتطلب تصرفاً سريعاً من الحكومة الإنكليزية، كما تتطلب تدخلاً عاجلاً يتكفل بإعادة باشا مصر إلى عقله، ثم إلى الخضوع والطاعة للسلطان).

وهكذا يصبح التاريخ أمام مشهدين نقيضين في مرحلة واحدة، ففيما يراد لليهودية، أنْ تدخل هيكلها على يد (تن داوننغ ستريت) مجلس الوزراء البريطاني، فإن البيوريتانية المتأصّلة تجد فُرصتها في اقتحام ساحة الإسلام، الذي ظل بعيداً، مسافة الحروب الصليبية عن ولنغتون، فالدفاع عن شرعية الخلافة العثمانية، كان في جوهره دفاعاً عن استبقاء الرجل المريض في غرفة العناية المشدّدة، في مستشفيات لندن وليس غيرها، والدعوة لاستئصال شأفة محمد علي ذات الطاقة الإسلامية، كان في جوهره هجوماً مسبقاً ضد احتمالات قوة إقليمية، قد تستبق الباب لفرض هيمنةٍ ذات جدارة، على موقع المنطقة وواقعها، وفي جميع الحالات فإن أريحيّة الدفاع عن السلطان العثماني، والهجوم على باشا مصر، كان استمراراً لحربٍ صليّبية من نوع آخر، إذ هو نابع من استراتيجية السيطرة والنهب، قبل أي اعتبارٍ عقائدي آخر، ويمكن الملاحظة أن إسلام المنطقة كان واقعاً على خارطة العداء التاريخي لأوروبا، قبل أن تبزغ قوة مصر المُهدّدة، بل وقبل أن تولد الإمبراطورية الإسلامية على يد العظام من آل عثمان، وبفضل المسألتين الشرقية واليهودية، حيث ساقتهما مشيئة التاريخ إلى نقطتي النهاية والبداية، فإن دين السياسة كان قد تقرّر وانتهى: تدمير الطاقة الكامنة في الإسلام، وهو هدف بيوريتاني في أساسه، وإحياء الطاقة الراكدة في اليهودية،

---

* والحقيقة أن الأسطول التركي مع عشرين ألفاً من بحّارته كانوا قد انضموا إلى الأسطول المصري في محاولة لتحديد قوة الإمبراطورية.

وهو هدف سياسي بيوريتاني أيضاً، ولعل المجال يتسع أكثر من أي وقت مضى، لتأكيد اليقين، أن إرادة البشر على الأرض، كانت قد جلست على مقعد إرادة السماء، فالنبوءات المؤجلة لم تصنع أكثر من أوجاع الانتظار، أما نبوءات الإمبراطورية المساعدة، فأصبحت تتقرر على خرائط الواقع، وهو ما دعا المُتطّهر البريطاني شافتسبري لتقليب الأمر من وجوه أرضية غير دينيّة، لكنها مع ذلك تخدم إرادة السماء، وهاهي لعبة الكوارث ما تزال تدور رحاها حتى اليوم.
ويكتب اللورد شافتسبري في مذكراته:

ما أسعدني هو قولُ بالمرستون لي، بأنه كتب إلى اللورد (بونسونبيي) سفيرنا في استمبول، يحثّه على فتح خط مع رشيد باشا لإقناع السلطان بتشجيع هجرة اليهود إلى فلسطين، ولكن كان أمامي أسئلة عديدة تحتاج إلى إجابات:

ـ ما هو شعور اليهودي العادي تجاه مسألة العودة إلى الأراضي المقدسة؟!

ـ هل يمكن أن يعود اليهود الأغنياء إلى فلسطين؟!

ـ ما هو المدى الزمني لتحقيق حلم العودة؟!

ـ هل يرضى اليهود أن يعيشوا تحت قوانين دولة إسلامية، حتى ولو قدمنا لهم ضمانات الحماية والمساعدة؟!

والغريب أن سؤالاً واحداً، عن مصير السكان الأصليين لم يخطر لشافتسبري على بال، فهو إذ يستنجد بالتوراة عن أحكامه ضد الآخر الغريب، إلا أنه في مذكرته، ظل ينشد أحكام ساسة لندن، حيث دوّن بالمرستون ملاحظته الساخرة:

ـ عزيزي اللورد شافتسبري.

يظهر أنه من السهل أن نقتلع اليهود من الغيتو، لكنه ليس من السهل أن نقتلع الغيتو من اليهود!..

وهو ما يعني أن اليهودي والآخر الغريب، أمران لا يمكن أن يكونا على وفاق، وقد استخلص شافتسبري من عناد يهود بلاده، ورفضهم العودة إلى فلسطين ما جعله يكتب على طريقة لوثر اليائس: (ليسوا أهلاً للخلاص، لكنهم عنصر حيوي في أمل المسيحية بالخلاص، بالرغم أنهم متعجرفون، سود القلوب ومنغمسون في الانحطاط الخلقي والعناد والجهل بالإنجيل ـ ألبرت هايسون من كتابه فلسطين تحت الانتداب ـ لندن ١٩٥٠ صفحة ١٠).

وعلى ما يبدو فإن هذا التعليق الساخن كان ناجماً عن رفض اليهود بصورة عامة، العودة إلى فلسطين عن طريق الخطط البريطانية الرامية لتوظيف ــ مأساة جماعية ـ في سبيل المصالح العليا للإمبراطورية. فالأغنياء اليهود في أوروبا الغربية، يؤمنون بالعودة إلى أرض الأجداد، ولكن عن طريق دفع فقراء شعبهم إلى فلسطين، وليس رحيلهم هم إليها، والفقراء اليهود الذين يُراد استخدامهم كرافعة إيمانيّة ـ تاريخية، لم يؤمنوا بالعودة عن طريق إرادة البشر، بل إرادة السماء، فالمسيح اليهودي لم يأت بعد، والعودة على هذه الشاكلة ستكون هرطقة في ضلال، وأمام هذا التمنع كان لابد لإرادة الأرض أن تساعد إرادة السماء، فالتعجيل في التدبير الإلهي، لعودة اليهود إلى فلسطين، يجب أن يُقرّر طوعاً أو كرهاً، وتجميع اليهود استعداداً لإبحارهم في (ماي فلور)* فلسطينية سواء شاؤوا أم أبوا، وبالنيابة عن إيمان اليهود الذي أصبح جاهزاً للعودة، كتب بالمرستون إلى سفيره في تركيا يحضّه على إقناع السلطان بقبول الهجرة اليهودية إلى فلسطين (وأن يُعدِّدَ للسلطان مزايا السماح لليهود بالعودة، هذا السماح الذي سيترتب عليه نتائج من أخطر ما يهم الإمبراطورية الإسلامية، تزويدها بالمال الوفير، ومساعدتها في التصدي لخطط الباشا المصري الشريرة). ولم ينس بالمرستون قنصله في دمشق، سير تشارلز هنري تشرشل (الجد الأعلى لسير ونستون تشرشل رئيس حكومة بريطانيا فيما بعد) حين كلّفه بإتمام المهمة مع السلطان العثماني (وتسعير مخاوفه من مآرب محمد علي باشا في مصر)، وقد كتب تشارلز هنري تشرشل، إلى موسى مونتفيور رئيس المجلس اليهودي عام ١٨٤١، رسالة يحث الأخير على (ضرورة تحديث الخطاب القيامي، بحيث يترجم البريطانيون البعد الديني لعودة اليهود إلى فلسطين، إلى لغة سياسيّة ويترجمه اليهود إلى حركة نضالّية) ويتابع إسرائيل كوهين، صاحب كتاب الحركة الصهيونية (الصادر عام ١٩٤٦ صفحة ٥٢) بأن تشرشل أكد في رسالته إلى مونتفيور بأنه (يتطلع بتلهف إلى اليوم الذي يستأنف فيه اليهود حياتهم كشعب، مع وجوب النظر لمسألتين ضروريتين:

ـ الأولى، وهي أن يتولى اليهود الأمر بأنفسهم على نطاق عالمي وبالإجماع.

---

* أول سفينة شراعية إنكليزية ضخمة أقلت المهاجرين الإنكليز من البيورتان الهاربين من إنكلترا إلى شمال أمريكا بداية القرن ١٧.

ـ الثانية، وهي أن تتولى أوروبا مهمة إسنادهم. وبذلك فإن دعوة تشرشل لبعث اليهود كشعب واحد في (أمة واحدة ووطنٍ تاريخي)، تكون قد سبقت كتاب (التحرير الذاتي) للرائد الصهيوني ليوبنسكر بأربعين عاماً، ومع أن مرحلة شافتسبري ـ بالمرستون، كانت من أهم المراحل الذهبية في تاريخ الصهيونية، إلا أن الأمر لم يتوقف على إنجيلي مندفع مثل شافتسبري، وسياسي داهية مثل بالمرستون، فقد كانت أرض الإنجيلية الإنكليزية المتهودّة أخصب من أن تكتفي بإنبات هذين الرجلين، حيث كان هناك نبلاء بريطانيون مثل دوق كنت وكثير من أعضاء مجلس اللوردات وهم قمة الثراء البريطاني من أمثال إيرل كراوفورد، ولندس إيرل جيرد، ولورد غراي ولورد بكسلي، كما كان هناك الأسقف الإنجيليماننغ وغلادستون من البرلمان، وكان من أنصار بالمرستون في وزارته، السياسي صاحب الحظوة إدوارد ميتفورد الذي أوضح بصريح العبارة أن (الدولة اليهودية ستؤمن مواصلاتنا التجارية، وستجعلنا إمبراطورية مُسيّطرة على الشرق كلّه ـ إسرائيل كوهين ـ الحركة الصهيونية ص٥٣).

أما الكولونيل جورج غاولر، حاكم مستعمرة أستراليا الجنوبية، فقد نادى بإقامة كومونولث يهودي يتمتع بالحكم الذاتي تحت وصاية بريطانيا، كما كتب إلى وزارة المستعمرات خطاباً يحض فيه بريطانيا (على تحديد شباب سورية، بواسطة الشعب الوحيد الذي يمكن توظيف طاقاته بصورة دائمة، أبناء الأرض الحقيقيين، أبناء إسرائيل ـ المصدر السابق).

ويذكر صاحب كتاب (أرض جلعاد) لورنس أوليفانت، المولود في جنوب أفريقيا لأبوين إنجيليين (عضو البرلمان الإنكليزي)، أن عودة اليهود يجب أن تبدأ بإقامة مستوطنة يهودية إلى الشرق من نهر الأردن لتوطين يهود روسيا ورومانيا، وكان هذا النداء الجلعادي لأوليغانت يسبق عصره إذ صدر في العام ١٨٨٠، أما بالنسبة إلى عرب المنطقة، فاقترح أوليفانت أن يتم تجميعهم في منطقة خاصة بهم (كما جرى للهنود الحمر في أمريكا)، ويتابع صاحب جلعاد (إننا ندعو إلى إقامة توطين الجنس الذي امتلك أرض فلسطين أولاً، أي قبل ثلاثة آلاف عام من يومنا هذا ـ أرض جلعاد، أوليفانت لندن ـ ١٨٨٠).

وبعد مهمات كلّفه بها رئيس الوزراء اللاحق دزرائيلي، استقر أوليفانت في فلسطين (١٨٨٢) مستوطناً، وراح يروّج لنظرية الاستيطان اليهودي، قبل الحركة الصهيونية بسنوات..

وخلال القرن التاسع عشر، قرن الذروة الاستعمارية، تضافرت ثلاثة عوامل ساعدت على اهتمام بريطانيا بفلسطين.

- ميزان القوى في القارة الأوروبية.
- تأمين السيطرة على (جوهرة التاج) الهند المهددة من فرنسا وروسيا.
- الطريق الآمن إلى الهند عبر سورية ومصر.

ومنذ ذلك الحين بدأ ما وصفه ديفيد بولك في كتابه (الستارة الخلفية للمأساة ص٤٠) حيث يقول:

(هذا الاتحاد العجيب بين سياسة الإمبراطورية وتيارٌ من الصهيونية المسيحية البطريركية، سيتّحلى في السياسة البريطانية كلها فيما بعد).

في هذه المرحلة من الذروة الإنجيلية ــ السياسية الإنكليزية كان المناوؤن للدين غاية في التدّين، وكما تتابع ريجينا شريف في كتابها (الصهيونية غير اليهودية ــ ص٩٢) نقلاً عن بربارة توخمان في كتابها (الكتاب المقدس والسيف)، حيث تقول (إننا نرى اللورد شافتسبري يناصر عودة إسرائيل بنفس العبارات التي كان يستعملها كارتر إيتس والبيوريتانيون المتطرفون.. ولم يكن هذا نتيجة الإحساس بيهود العصر، قدر ما هي روح الشعب الموروثة من العهد القديم، فعندما كان المسيحيون يرجعون لنصٍ من العهد القديم، كانوا يرون بأنهم ملزمون بتحقيق نبوءاته) ومع النبوءات كان جماح الخيال ينطلق من عقاله نحو رومانسية طاغية، أقرب ما تكون إلى العنصرية التي حلّت مع حركة التبشير الإنجيلي في المرحلة الفيكتورية، فقد حلَّ تمجيد الغرائز وجيشانات العواطف، محل حركة التنوير العقلي، وابتهج الكثيرون لكبح جماح المتشككين والربانّيين الذين ينكرون تقديم عالم الروح على عالم المادة، وكانت الإنجيلية السائدة تتجّهُ إلى الاحترام العميق لعوالم الطبيعة والدين والتقاليد، الأمر الذي أدى إلى إثراء المخيّلة الرومانسية التي راحت تسقط نفسها على عالم السياسة بل وعالم

التاريخ، (ففكرة الشعب في اللغة الإنكليزية فكرة مُبهمة، وهي تحتاج للتعبير عنها إلى ثلاث كلمات معاً، الشعب والأمة والجنس، وقد حلّت فكرة الشعب الآنفة، تحت وطأة الرومانسية محل فكرة (المواطنة) الدستورية والعقلية التي كانت سائدة في القرن الثامن عشر ـ هانزكوين ـ من كتابه القومية ص٣٠). لقد عبأ رجال كبار في عصر الفيكتورية الرومانسي، أجواء أوروبا، بتلك النفحة الأدبية الأخاذة، سواءً في مجال الرواية أو القصة والشعر والمسرح.. وكان هذا العصر حقاً، عصر الازدهار الأدبي في جميع فروعه، أما الموسيقا رائعة الكنيسة اللوثرية، فقد استراحت على أريكة إنجيلية متممة، بل لعلها ازدادت غنىً وثراء في عصر يرى كنوزه في ينابيعه البروتستانتية الأولى، فإضافة إلى اللورد بايرون شاعر الألحان العبرية، كان هناك والتر سكوت الذي وضع روايته الشهيرة إيفانهو، وهي تحكي قصة امرأة يهودية ذات نموذج مثالي إذ هي تدافع عن قوتها ودينها وشرفها، وفي تصوير سكوت لبطلته (ربيكا) فإنه لا يكتفي بالرثاء لأوضاع يهود العالم، لكنه يدعوهم بصوت (ربيكا) للعمل وعدم انتظار المعجزات لأن (صوت البوق لم يعد يوقظ يهوذا). أما وليم ووردز ورث فكان شاعراً من أهم قصائده (أغنية إلى يهودي متحوّل) و (أسرة يهودية)، ولم تتوانى الروائية الشهيرة ذات الصيت المُنتشر، جورج إليوت، من دخول الحلبة الإنجيلية ببهائها التوراتي، فقدمت روايتها (دانييل بروندا) حيث تبتدئ الرواية بالفكرة البروتستانتية عن البعث اليهودي، كما أن بطلها اليهودي المُتنّصر، يكتشف بنفسه إرثه وقوميّته اليهوديين بتأثيرٍ من غير اليهود. لقد كانت إليوت في مقتبل عمرها مسيحية تعلّقت بلاهوت البيورتان، وقد عاصرت الحركة الإنجليكانية فانضمت إليها، وتشير سيرتها الذاتية إلى ولعها حضور المنتديات اليهودية في المعابد

(٤)

في الطريق إلى القرن العشرين:

لم يكن الدهاقنة من السياسيين الساهرين على بناء الإمبراطورية البريطانية من أمثال بالمرستون ورهطه الإنجيلي من حوله، ولا اليهود من الأغنياء الرأسماليين الراغبين بإبعاد يهود الفقر من أوروبا الغربية إلى فلسطين من أمثال روتشيلد كما

لم يكن الاستراتيجيّون الداعون إلى فصل مصر عن بلاد الشام من أمثال اللورد ولنجتون أو الأدباء العظام من أمثال بايرون وورد روث وإيليوت... هم وحدهم مَنْ كان يدفع باتجاه فتح أبواب فلسطين لليهود، بل احتدام الصراع الاستعماري على مناطق النفوذ في العالم، ولعل من سوء الطالع أن فلسطين كانت واقعة على طريق هذا الصراع، فمنذ خمسينات القرن التاسع عشر والعالم يشهد اندلاع حروب قاريّة، بدت وكأنه لا نهاية لها، فمنذ حرب القرم (١٨٥٤) إلى فضيحة درايفوس (١٨٩٤) والعالم يتحرك بفعل أحداث الأرض لا عقائد السماء، ورغم أن حرب القرم نشبت بمصالح غربية على أسلاب شرقية، فقد كان من نتائجها تدفق عشرات الألوف من يهود البلقان إلى أوروبا الغربية.

وخلف البحار في الجزر البريطانية، كانت الحوادث تدفع بجيل جديد من الساسة الإنكليز، لم يكن أقل حماسة من أسلافه، للمخططات القديمة ببواعث المصالح والمعتقدات دون انفصام، فقد شهد (تن دواننغ ستريت) رئيسين للوزارة البريطانية في هذه الفترة هما جلادستون المسيحي البروتستانتي، ودزرائيلي اليهودي الإنكليزي، وباستثناء الإنكليزية الجامعة، فإنه كان من الصعب إقامة التمييز بينهما في درجة الحماسة للمشاريع الصهيونية، ومع أن كليهما كان استعمارياً من الطراز الأول، إلا أن دزرائيلي كان يجد فرصته في التعريض بمنافسه حين ينشر على الملأ (أريد أن يعرف الجميع أن الدول التي ساعدت اليهود، هي وحدها التي تقدمت وازدهرت، فإنكلترا لها قلب ولها ضمير، ولهذا فهي تقف مع اليهود مدركة أن الله ذاته يحارب من أجل بعث إسرائيل ـ هيكل. المفاوضات السرية ص٥٩ الكتاب الأول). مع ذلك فإن الشعب الإنكليزي كان يرجح في العديد من الانتخابات، كفة دزرائيلي اليهودي، على كفة جلادستون المسيحي، وفي هذا الصدد يقول بوب كين في كتابه (المواجهة بين عصر العقل وعصر الرؤيا)، أن الإنكليز كانوا أكثر حماسة من اليهود لتأسيس دولة اليهود في فلسطين، وبناء معبد سليمان، وإن صهيونيّتهم هي التي انتشلت حركة صهيون من هامشيّتها وجعلت منها قوة عالمية.

وبالفعل، فإن الصهيونية ظلت حتى منتصف القرن التاسع عشر، استراتيجية إنكليزية ـ عقائدية دون أي دور لليهود فيها، فقد كان أولئك الذين اختاروا

مناصرة الشعب اليهودي وحقه في العودة إلى أرض التوراة، يؤمنون بما لا يؤمن به اليهود أنفسهم، ففيما كان يؤمن اليهود بأن العودة دون إشارة من السماء (هبوط المسي)، مسألة تندرج في عداد الكفر والضلال، كان المسيحيون المتهوّدون (ربّما بفعل تطور علوم الكيمياء) قد توصلوا إلى إمكانية مزج إرادة السماء بإرادة الأرض، على أن (المسي) يمكن أن يؤجل هبوطه إلى ما بعد قيام الدولة اليهودية في فلسطين، أو يؤجل هبوطه إلى موعد لاحق في السماء! ولم تكن هذه النظرة الساخرة، بعيدة عن الإيمان المعتقدي بالنبوءات، فقد أتاحت مدرسة التأويلات البروتستانتية، مجالات شخصية واسعة، لوضع النبوءات والتوقيتات والأحداث والأماكن والشعوب... في محل اجتهادات تفسيرية أدت فيما أدت، إلى انقسام البروتستانتية نفسها، فإذا كان من الصحيح، أن البروتستانتية تؤمن بحرفية التوراة، إضافة إلى عصمتها، إلا أنها لم تستطع أن تضمن جماعية التفسير لهذه الحرفيّة، ولعل الأسباب، أكثر من أن تعد وتحصى، فما هو حرفي في مدلول لغةٍ ما، قد لا يكون حرفياً بذاته في لغة أخرى، وحتى أهل التوراة نفسها، فإنهم هاموا طويلاً بين الملل والنحل التوراتية، ولعل بعض اليهود حتى يومنا هذا، لا يؤمنون إلا بشريعة موسى، دون الشرائع الإضافية الأخرى*.

ولعل القس وليم هشلر (١٨٤٥- ١٩٣١) الذي وضع نفسه في خدمة استراتيجية النبوءات التوراتية، يعتبر النموذج الأفضل لإنجيلي يفهم التوراة على هواه. وقبل النظر في أهمية هذا القس بالنسبة لتاريخ الحركة الصهيونية، وما نذر نفسه في سبيل إنجاحها قبل هرتزل بسنوات، فإننا نمعن النظر في مدى تأثير مدرسة التأويل اليهودية في مسيحية هشلر، حين راح يطبق حسابات تنبؤية على رؤيا يوحنا وفق السيناريو التالي:

بما أن الرؤيا تقول أن الغرباء (سيدوسون المدينة المقدسة اثنين وأربعين شهراً) حسب الإصحاح ١١:٢، فإن ذلك يعني بالحساب ألفاً ومئتين وستين

* تشير حوادث التاريخ، إلى أن الصراعات الدينية داخل العقيدة الواحدة، كانت مشوبة بعوامل سياسية على الأرجح، إلا أن المرء لا يستطيع تجاهل تلك الصراعات الدموية التي نجَمَت عن الخلاف في تفسير النصوص المقدسة وتأويلها.

يوماً. لكن اليوم النبوي في اللاهوت يساوي سنة كاملة، ومنه فإن ألفاً ومئتين وستين يوماً دنيوياً، تساوي ألفاً ومئتين وستين سنة في الحساب اللاهوتي، ولما كان عمر بن الخطاب، قد داس مدينة القدس في العام ٦٣٧ ميلادية، فإن جمعها إلى المدة النبوية ١٢٦٠سنة تعطي الناتج التالي:

١٢٦٠+٦٣٧= ١٨٩٧ وهي السنة التي تنتهي معها مدة دوس الغرباء لمدينة القدس، وعودة اليهود إليها! فيا للطرافة الألمانية الثقيلة!..

كان القس هشلر قد ولد في جنوب أفريقيا لأبوين ألمانيين من أصول بروتستانتية، وقد رُبي في بيئة أصولية حيث سيطرت على عقله نبوءات العهد القديم، فضلاً عن الهوس بمقولة العصر الألفي السعيد، وقد ظل ينتظر إشارات الزمان التي توصي باقتراب هذا العصر. ويقول مارفن لوينثال في كتابه عن (يوميات هرتزل ـ لندن عام ١٩٥٦ ص١٠٥):

(ما أن وقعت عينا هشلر على كتاب هرتزل دولة اليهود، حتى كان من المسارعين إلى شرائه، ثم راح يلتهمه التهاماً، وحين عثر على ضالته في التعرف على هرتزل، هتف صارخاً أنت هو.. أنت الذي كنت أنتظره.. أنت المسيح المنتظر). ولعل أخطر ما في دور هشلر، لا يكمن في هلوساته المعتقدية، قدر ما هو نابع من وسطه الاجتماعي والوظيفي بآن واحد، فالقس وليم هشلر كان معلماً لأبناء دوق بادن الألماني عمّ القيصر، ومن خلال موقعه في قلب دوق بادن، لعب الأخير دوراً في تعريفه على القيصر ولهلم الثاني، وقد فتح هشلر الباب لصديقه هرتزل ليبسط أمام القيصر خططه بخصوص شعب الله المختار، وتقول الموسوعة اليهودية، بأن هشلر كان قد أفاض أمام الدوق عن السنة الحاسمة في تاريخ العالم (١٨٩٧) وأن (مشروع هرتزل هو أول محاولة جديدة جداً وعملية جداً، إذ هي تبيّن لليهود كيف يتحدّون ويبنون أمتهم من جديد في أرض الميعاد) ثم بهلوسة قيامية راح يقول: (سيدي الدوق، إن هرتزل نفسه لا يعلم ما سيحقق الله على يديه)..

لقد قابل هرتزل قيصر ألمانيا بوساطة عمّه دون بادن، وكانت المرة الأولى في القسطنطينية، أما الثانية فكانت في القدس (١٨٩٨) ولا شك أن الاجتماع الشهير الذي عقده هرتزل مع السلطان عبد الحميد كان قد تمّ بتوسط القيصر

الألماني حليف تركيا الرئيسي في تلك المرحلة، وتظهر صهيونية القس هشلر في اصطحابه خريطة فلسطين على الدوام، وتروي يوميات هرتزل، أنه فيما كان يركب القطار بصحبة هشلر، فإن الأخير راح يحدثه بحرارة عن أرض التوراة الموعودة، وفجأة سحب من جيبه خريطة فلسطين، وصار يؤكد (يجب أن تكون حدودنا الشمالية جبال كابدوكيا ـ أي طوروس ــ والجنوبية قناة السويس، أما شعارنا فهو فلسطين: داوود وسليمان).

ومن موقعهِ كملحق في السفارة البريطانية في فينا، فقد لعب القس هشلر دوراً ريادياً في مساعدة المهاجرين من يهود أوروبا الشرقية، وكانت الوجهة التي يرسمها ليهود روسيا، فلسطين، وقد نظّم في فيّنا مؤتمراً مسيحياً من أجل مساعدة اليهود الشرقيين في السفر إلى فلسطين، ومن هذه المسيرة المليئة، جاء وصف المؤلفات الصهيونية للقس هشلر، بأنه (حبيب صهيون المسيحي) وكما يقول بوب كين عن المسيحية اليهودية، فإن هشلر ليس إلا مثالاً على نجاح تلك (الصفقة) اليهودية ـ الأنجلو ساكسونية، (التي تبرّع بها المسيحيون الغربيون بخلع صاحبهم الناصري، لا حمداً ولا شكوراً، وألقوا في بئر النسيان ستة عشر قرناً من تاريخٍ مسيحي ماجد، ليعيشوا على أمل مجيء المسيح من مستقبلٍ يهودي عاصف ـ فكرة أمريكا.-منير العكش. مصدر سابق). والحقيقة أن نقطة الانطلاق في هذه الاستدارة، كانت في الأوساط المسيحية البروتستانتية، قبل الأوساط الكاثوليكية بمراحل طويلة، فالدعوة لتجميع اليهود وإعادتهم إلى أرض فلسطين، وإقامة الدولة اليهودية، دون النظر إلى الكوارث التي ستلحق بالسكان الأصليين، كلها نتائج لمقدمات الدعوة البروتستانتيّة القائلة باعتماد التوراة، والتوراة بمجملها كما يقول الكاتب العربي جورجي كنعان (هي تاريخ اليهود في فترة غزوهم بعض مرتفعات فلسطين في القرن العاشر قبل الميلاد، فكان من الطبيعي أن يرسخ في وجدان الشعوب المسيحية الشعور باقتران فلسطين باليهود، ففي فلسطين أقام داوود مملكته، وفي القدس أقيم هيكل يهوه (إله إسرائيل) وصار تاريخ فلسطين يعرفونه ـ من التوراة ــ هو تاريخ اليهود في فلسطين ــ الأصولية المسيحية في نصف الكرة الغربي ص٥٦) والمشكلة أن هذه البديهيات التي عاشت طويلاً مع تاريخ البشرية. لاستنادها إلى النصوص التوراتية، تمَّ

دحضها من قبل مدارس الغرب التاريخية نفسها لا من سواها، فقد فصل الدارسون المهتمون بتاريخ المنطقة هنا من أمثال آ. سوغنين ودكتور ج.م. ميلر بين حقائق علم الأركولوجيا (علم الآثار) وتاريخ شعوب المنطقة (وأماكنها) كما تسوقها التوراة، كما أن الدارس التاريخي ج.ج. بيمسون استنتج صراحة أن القسم الأكبر (من التأويلات والمقارنات والشفويات والتسلسل الزمني لتاريخ فلسطين مع جوارها، كان قد تم ترتيبه على أساس الإجماع الافتراضي للدارسين، إذ أن كلَّ شيء مفترضْ، يجب إعادة التدقيق فيه مجدداً، وكل ما بُني في الأساس، لا يمكن اعتباره نقطة انطلاق تاريخية أو في حكم البدهية الموثوقة ـ توماس تومسون. التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي ترجمة صالح سوداح).

ويتابع البروفسور تومسون الذي كلفته دراسته هذه، مقعده في جامعة ميلووكي الأمريكية، فيقول (لقد عجزت الحفريات الأركولوجية في فلسطين، عن إثبات ما هو مميز بين كنعاني وإسرائيل، ومرد ذلك ببساطة إلى أن الكنعاني كان موجوداً، فيما الآخر الذي يراد تمييزه لا أصول تاريخية ثابتة له). وخلال التسعينات من هذا القرن الغارب، يكون قد مضى قرن كامل على حمل المعول بيد والتوراة بيد أخرى، لتنبش أغوار الأرض في فلسطين، على يد الأساتذة الكبار من علماء الغرب، للحصول على سندٍ تاريخي لما أفاضت به التوراة، ومع الأسف العميق، فإن دراسات بالغة الأهمية من وزن دراسة بروفسور م. غون (عن قصة الملك داوود) ودراسة بروفسور ج.ج. فوكلمان (عن قصص يعقوب وصموئيل) ودراسة البروفسورة ك. كينيون (عن اثار مدينة اليبوسية) ثم الدراسة الجامعة، مع كتاب ج.م. ميلر عام ١٩٧٧، وما أعقبها من مراجعة شاملة (أطروحة) على يد البروفسور ج.و. رامسي الذي ردد آراء أساتذة كبار مثل دوفو وتومبسون وميلر.. كلها مع كثير غيرها، ظلت تشير حسب توماس تومسون في مؤلفه (التاريخ القديم ص٧٥) إلى خلاصة حاسمة تقول:

أ ـ عدم نهائية أية محاولة كانت ترمي لإعادة بناء تاريخ إسرائيلي بصورة إيجابية مع ما ورد في التوراة.

ب ـ نشوب رد فعل قوي، ضد تكييف التاريخ التقليدي في دراسات العهد القديم، خاصةً فيما يتعلق بقصص هذا العهد وأماكنه المجهولة.

ج ـ ظهور رد فعل حاد في الأركولوجيا ضد الخضوع للدراسات التوراتية أو الارتباط بها بغية الحفاظ على تاريخانيّتها.

د ـ فشل التوفيق بين الأركولوجيا والدراسات التوراتية في المدرستين الشكلية والاستنتاجية لدراسة التاريخ (أي مدرسة أولبرايت ومدرسة آلت).

هـ ـ نشوب استنكار صارخ، لما يراد إرغام التاريخ عليه، إقامة العلاقة القسرية بين أحداثه وما جاء في قصص التوراة.

و ـ مع كتاب غوتولد (قبائل يهوه) عمَّ الاضطراب مدارس الحفاظ على الأركولوجيا التوراتية (الموعودة)، إذ أسس كتاب (قبائل يهوه) لبدائل سوسيولوجية وانتروبولوجية، مخالفةً لما ورد في التوراة تماماً، فضلاً عن عنصر النموذج الثوري الذي يحاول عقد المقارنة بين القبائل اليهودية والقبائل الإغريقية القديمة، وهي مقارنة ـ رغبة، لا مقارنة ـ تاريخ!.

ز ـ نقض أسلوب التركيز القائم على مناهج الروايات والتاريخ الاستنتاجي لعدم مشروعيته إذ يتضارب مع المناهج العلمية ـ التاريخية الحديثة.

ح ـ إن سمات الرواية في التوراة غير تاريخية، ولا يمكن افتراض تاريخيّتها ولا حتى ملاءمتها لمجال البحث التاريخي، أما البيّنات الأركولوجية فإنها لم تعد مجرد ترف يمكن تطويقه أو تزويره في مواجهة العلم الحديث، بل إنها ضرورة من ضرورات الحقيقة التاريخية، إذ بدونها لا يمكن أساساً كتابة التاريخ أو التعرف عليه.

أما ماكس نوردو، رفيق هرتزل الحميم وصاحب الدفعة الأولى في مشروعه*، فإنه يصف التوراة في كتابه (كذب حضاراتنا التقليدية) بقوله: (إن التوراة كأثر جاء متأخراً عن الفيدا، وإن قيمتها كعمل أدبي تفوقها قيمة أي شيء كُتب في الألفي سنة الأخيرة، حتى ما كتبه المؤلفون من الدرجة الثانية، إنها لا تُقابل بحق، بإنتاج هوميروس أو سوفوكليس أو دانتي أو شكسبير أو غوته.. ولا يفعل ذلك إلا كل متعصّب فقد قدرته على الحكم، أما مفهوم التوراة عن الكون فهو

---

* يورد دزموند ستيورات صاحب كتاب تاريخ الشرق الأوسط، بأن نوردو عندما سمع هرتزل وهو يحدثه عن مشروعه، قفز صارخاً: (إذا كان ثمّة من يتهمك بالجنون فأنا مجنون مثلك).

سخيف، ومبادئها الأخلاقية مغلقة، كما أنها لا تتوانى عن تنسيب الانتقام الخبيث لإله اليهود).

فإذا كانت التوراة في قفص اتهام الغرب المسيحي قبل غيره، وإذا كان اليهود من العلمانيين يطلقون عليها صفات الدونية والسخف والانتقام، وإذا كان المؤرخون من علماء الآثار وأساتذة التاريخ القديم، لا يجدون محلاً للتاريخ في التوراة، إذن ما الذي يدفع الغرب لاقتفاء أثر الصهيونية حتى الآن؟!

بين سياسة الدين ودين السياسة

لعل السبب التاريخي لمعاداة الساميّة، يعود إلى تلك الفترة من خمسينات القرن التاسع عشر، حيث تدفقت طوابير الهجرة اليهودية إلى أوروبا الغربية من روسيا وشرق أوروبا والبلقان بعد حرب القرم، أما السبب الأقدم لهذا العداء، فربما يعود إلى الوظيفة الربوية لليهود فضلاً عن انكفائهم في حياة الغيتو المنعزلة.. وللسببين الآنفين مع أسباب دينيّة وتاريخية أخرى، فقد حظي اليهود بما سيسمى العداء للسامية عبر تاريخ القارة الأوروبية، وتزداد المشكلة تعقيداً، بأن العداء للسامية، كان يصدر عن جهات شعبية ورسمية بآن واحد، وقد ازداد العداء لليهود حين توّسمت أوروبا البروتستانتيّة عودة اليهود إلى المسيحية في مرحلة من مراحلها، لكن إحجامهم كان سيد الموقف. كانت الطبقة الإنكليزية العليا التي تزامنت مع مرحلة دزرائيلي، مصابة بالخوف من الغرباء جراء تدفق الهجرة اليهودية إلى بريطانيا، واشتدت الهواجس حين راحت الصحافة، تنذر بوقوع خطر محقق، وتنامى الشعور المعادي أمام هذه الظاهرة، إلى درجة أن زملاء دزرائيلي في الحكومة البريطانية، لم يستطيعوا إخفاء مشاعرهم ضد اليهود، وطالت هذه المشاعر دزرائيلي نفسه، فقد وصفه لورد سالزبري زعيم المحافظين، بأنه (يهودي مُجرّد من المبادئ الخلقية لاحق له في أن يكون أحد أعضاء مجلس العموم)، كذلك حذا إيرل دربي الحذو نفسه حين وصف دزرائيلي بأنه (أحد الغرباء الذي يؤمن بمظاهر الأبهّة الفارغة)، أما اللورد آرثر بلفور الذي ينتمي إلى الطبقة التي خلقت الإمبراطورية، فإنه لم يخف عداءه ليهود عصره، طالما أن الإعجاب باليهود القدماء، لا يؤثر على مصالح الإمبراطورية، وقد دعا بلفور ـ على طريقة تشمبرلن ـ إلى المحافظة على النسل الممتاز في الاتحاد الأنجلو ـ ساكسوني، وأدت محاضرته في جامعة كمبردج عن مخاطر العيش مع الغرباء البرابرة، إلى مراسلات عتابيّة بينه وبين الرئيس الأمريكي تيودور

روزفلت، فأصبح يرى فضيلة الجمع بين براغماتية المصالح الإمبراطورية، وطرْح شعار: خدمة اليهود بتهجيرهم إلى الخارج.

والواقع أن الصهيونية الهرتزلية، ما كان لها أن ترى النور، لولا المسيحية المتهودة مع تأثيرها النافذ من جهة، وعداء المسيحية غير المتهودة في مراحل موازية، ومن الطبيعي أن تجد الصهيونية تربتها الخصبة في البلد الأول الذي انقلب إلى البروتستانتية رسمياً، أي إنكلترا البيوريتانية، ولطالما عبرّ القادة الأوائل للحركة الصهيونية، عن امتنانهم العميق (لتوراتيّة الأغيار من المسيحيين)، إذ اعتبروها بحق، الأساس الأول في بناء الحركة الصهيونية، التي نادت بتشجيع الهجرة إلى فلسطين على أسس دينية، واتخاذ الخطوات العملية للحصول على موافقات دولية، في سبيل إنشاء دولة يهودية في فلسطين.

ومن سالزبري إلى بلفور الذي سيصبح رئيساً للوزارة بعده، ومن تشامبرلن إلى لويد جورج (حيث أصبح بلفور وزيراً لخارجيته) كان دينٌ للسياسة يبزغ من جديد، دينُ اللاسامية العنصرية، ودينُ تحقيق أهداف الحركة العنصرية، وأما الجامع بين النقيضين فكان بالطبع مصالح الإمبراطورية العظمى. ففيما ظلت اليهودية قرابة ثلاثة قرون فكرة دينية مجردة، تتحقق بإرادة السماء، أصبحت الآن ذات رافعة بشرية، تتحقق بإرادة الإمبراطورية ومصالحها العالمية.

كان جوزيف تشامبرلن (١٨٣٦-١٩١٤) يُجسّد النمط النموذجي لدين السياسة الجديد، وكان اهتمامه منصباً على الإمبراطورية البريطانية التي ستصبح (قوة مهيّمنة في تاريخ الحضارة العالمية) ولم تكن التوراة ولا نبوءاتها تهمّه بكثير أو قليل، بل ولم يكن له أي التزام أدبي، أي سياسي، بشعب الله المختار، ومع ذلك فقد كان يرى كسلفه بالمرستون، أن (الادعاءات الصهيونية تتيح فرصاً حقيقية لتوسيع الإمبراطورية، وكان يرى اليهود مجموعة من المستعمرين الأوروبيين الجاهزين لاستيطان وتطوير وامتلاك أرض خالية تحت الوصاية البريطانية - ريجينا شريف ص١٥٠) ولم تكن صهيونية تشامبرلن دينية أو فلسفية، بل براغماتية عملية، ففي عام ١٩٠٣ قدّم لهرتزل منقطة العريش المصرية، لتكون وطناً لليهود، وهي دلالة على عدم اهتمامه، بوطن التوراة اليهودي في فلسطين، وكما يقول كريستوفر سايكس في تصويره لتشامبرلن: (علينا ألا نفترض

تشامبرلن ذلك الرجل الذي يؤمن بالتعاليم الألفية، فهـو ليـس خليفـة شافتسبري، ولا أخاً روحياً لهشلر أو شبشروب، لقد كان اهتمامـه بمصـائر اليهـود ناتجـاً عـن دوافع مادية ـ سايكس ـ دراستان في الفضيلـة. لنـدن ١٩٥٣ ص١٦٢). وعندمـا فشلت فكرة العريش كبقعة لاتحاد يهودي قريب من فلسطين، لـم يتوان تشامبرلن عن عرض أوغندا، حيث هي الأخرى بحاجة إلى مستعمرين أوروبيين، ولـو بـأداة (جنسٍ يهودي مستقّل)، وبصعود آرثر بلفور إلى رئاسة الوزارة، وامتناع المؤتمـر الصهيوني السادس ١٩٠٣ عن الموافقة علـى أوغنـدا، أخفـق مشـروع تشـامبرلن الأفريقي. كان بلفور كسلفه تشامبرلن، يؤمن بالمزايا المتفوقة للعـرق الأنجلـو ــ ساكسوني، وكانت عنصريته ضد الغرباء، وخاصة اليهود بادية للعيـان، ورغـم أن ابنة أخته المؤرخـة بلانـش دوغـاديل، تصـف تـأثره بالفلسـفة اليهوديـة، (وإيمانـه العميق بالتوراة، واعترافه بحضارة المسيحية التي تدين لليهوديـة تاريخيـاً، وتربيتـه الأنجيليّـة الاوسـكتلندية منـذ نعومـة أظفـاره ــ جريـدة الدسـتور الأردنيـة بتـاريخ ١٩٨٤/١١/٤) إلا أنـه مـع ذلـك كـان إنجيليّـاً مـن نـوع آخـر، فقـد كـان أول المعترضين على هجرة اليهود الشرقّيين إلى بريطانيا (لست متعّصباً للعرق، إلا أنني بدأت أفهم وجهة نظر أولئك الذين يعترضون علـى هجـرة الغربـاء إلـى بريطانيـا) وفي محاضرته بجامعة كمبردج عن الموضوع ذاته قال (إن المهاجرين من الغرباء البرابرة، هم الذين عصفوا بالإمبراطورية الرومانية في التاريخ) وفي ردّه على السير تشارلز ديليك أثناء مناقشة قانون الهجرة فـي مجلـس العمـوم أجـاب (لقـد أدان السير المُبجّل، الروح اللاسامية التي ألحقـت الخـزي الشـديد بالسياسـة الحديثـة لدول أخرى في أوروبـا، وأعلـن أن يهـود هـذه البـلاد يعـدون عنصـراً مهمـاً فـي المجتمع، ولم يكن على استعداد لإنكار أي من هذين الأمرين، لكنه كان يرى أنه ليس من مصلحة حضارة هذا الوطن أن يكون فيه كثير من الأشخاص الذين يقون نتيجة تصرفاتهم، شعباً مستقلاً ويعتنقون ديناً، يختلف عن دين الغالبية العظمى ولا يتزاوجون إلا من بني جنسهم، ليس من مصلحة الوطن أن يكونوا فيه مهما بلغـت درجة وطنيّتهم وقدرتهـم وجدّهـم وانغماسـهم فـي الحيـاة اليوميـة ــ بروتوكـول المجلس الصهيوني ص٣٥).

وقد رفض بلفور التدخل لدى الحكومة الروسية لإعطاء اليهود المواطنية، بناء على مداخلات بعض أعضاء مجلس العموم البريطاني، وكانت ذرائعه في هذا الرفض، أن اليهود يعتنقون ديانة هي محل كُره متوارث من الشعوب المحيطة بها، أو الشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها، وأضاف (إنني لا أبرر الاضطهاد، لكن الاعتبارات التي أسوقها إليكم يجب أن تكون محل اهتمامكم، حين يقترح أحد، التدخل لدى الحكومات الأجنبية من أجل تحرير اليهود ـ مذكرة ستين وولف عن حديثه مع بلفور).

لقد وقف التوراتيون صفاً واحداً وراء التوراة، لكن التأويل في مستهل القرن العشرين، كان شيئاً آخر، فبالنسبة إلى اليهود فإن الغرباء أو الأغيار (جوييم) كانوا أولئك الذين يتحدرون من أصلاب غير يهودية ـ أما بالنسبة للإنجيليين التوراتيين على نسق بلفور وتشامبرلن ولويد جورج.. فإن الغرباء ظلوا أولئك الناس الذين يتحدرون من أصلاب غير بريطانية، حيث اليهود يحتلون المركز الأول على قوائم غرباء بلادهم. ويبدو أن (جوييم) هرتزل كان على وشك خسارة المعركة أمام (جوييم) بلفور، مما حدا بالأول إلى إطلاق صرخته الشهيرة في لندن (إن يهود شرق أوروبا لا يستطيعون البقاء حيث هم، فأين يذهبون؟ إذا كنتم ترون أن بقاءهم هنا غير مرغوب فيه، فلتتعطفوا بإيجاد مكان آخر يهاجرون إليه، دون أن تثير هجرتهم لهم المشاكل التي تواجههم هنا ــ أوسكار رابينويك. ونستون تشرشل والمشكلات اليهودية).

وفي العام ١٩٠٠ مع المؤتمر الصهيوني الرابع المنعقد في لندن راح هرتزل يصدح (من هذا المكان ستحلق الحركة الصهيونية عالياً.. إنكلترا العظيمة.. إنكلترا الحرة.. إنكلترا التي تمدُّ عيونها إلى البحار السبعة.. إنكلترا التي ستفهمنا). كانت بريطانيا أول راع فكّر هرتزل في اختياره، خاصة وأنه كان قد أخفق في تحقيق ربح من الجنازة العثمانية، وقد أكسبت ظروف بدايات القرن العشرين فكرة هرتزل دافعاً جديداً، ففلسطين تحمي الناحية الشرقية من قناة السويس، ثم أصبحت واحدة من شرايين الإمبراطورية إلى صدر المتوسط، لذلك فإن فلسطين يهودية معتمدة على بريطانيا، ستكون قوّةً موازنة لأطماع فرنسا

وروسيا في المنطقة، خاصة وأن النفوذ الألماني يمدّ سيطرته باتجاه القسطنطينية، ولما كان اهتمام بريطانيا مُنصّباً على مصر في هذه المرحلة من تاريخ الإمبراطورية، فقد كان لدى الحكومة في لندن، سبب كاف للتخلي عن الحفاظ على وحدة أراضي الإمبراطورية العثمانية، وقد دعت وزارة المستعمرات، لتأمين فلسطين كحصن لبريطانيا في مصر وكحلقة وصل برية إلى بلاد الشام فالأناضول..

ومن سالزبري إلى ابن أخيه بلفور إلى تشامبرلن (الذي وصفه هرتزل بأنه رجل أعمال لا قلب له) ثم إلى لويد جورج، كانت المصالح والمذاهب والحوادث، تتجمع عند نقطة انطلاق واحدة، وحتى العام ١٩١٤ فإن بلفور كان يعترف لحاييم وايزمن بأنه كان يشاطر العديد من اللاساميين مشاعرهم ضد اليهود، خاصة وأن السيدة كوزيما فاغنر أرملة الموسيقار الألماني ريتشارد فاغنر، كانت قد شرحت له شيئاً عن يهود ألمانيا في بيروت!..

وحتى إعلان بلفور الشهير، الذي يعتبر بمثابة تجسيد للصهيونية السياسية، فإنه لا يعفي صاحبه من لا ساميّته، ففضلاً عن كنس اليهود من أوروبا الأنجلو ساكسونية، وتحويل فلسطين إلى مستعمرة بريطانية بأداة يهودية، وتحقيق فصل اصطناعي بين بلاد الشام والعراق من جهة ومصر من جهة أخرى.. فإن إنجيلية بلفور اليهودية. لم تكن تتضارب مع لا ساميّته العنصرية، خاصة إذا كانت المسائل الصهيونية والعنصرية واللاسامية تُشكّل جوانب مثلثة لهرمٍ واحد، ولعل أعنف ما في إنجيلية بلفور التوراتية ضد الأغيار، يكمن في تلك المذكرة التي رفعها إلى الحكومة، حول مصير عرب فلسطين: (ليس في نيتنا مراعاة المشاعر الخاصة لسكان فلسطين الحاليين، رغم أن اللجنة الأمريكية، تحاول الوقوف عليها، إن قوى العالم الأربع، ملتزمة بالصهيونية، سواءً أكانت على حق أم على باطل، جيّدة أو سيئة، إنها مسألة متأصلة الجذور في التقاليد القديمة والحاجات الحالية وآمال المستقبل، وهي ذات أهمية تفوق بكثير مشاعر أو رغبات سبعمئة ألف عربي يسكنون الآن هذه الأرض القديمة ــ وودورد وتبلر. وثائق السياسة الخارجية البريطانية ـ لندن ١٩٥٢ ص٣٩).

أما لويد جورج رئيس الوزارة، حيث كان بلفور يشغل فيها منصب وزير الخارجية*، فقد كان مسيحياً إنجيلياً متحمساً للصهيونية بكل جوارحه، إذ كان يرى في السياسة (تلك الأداة لتحقيق هدف سماوي). وقد عاش لويد الصغير في حمى خاله الواعظ ريتشارد، حيث كان معمدانياً ويلزّياً من حواريي المسيح (كامب لنش)، وتقول ريجينا شريف في الصهيونية غير اليهودية، بأن لويد جورج كان قد اعترف لأقرانه، بأنه تمرس في التاريخ العبري، أكثر من إطلاعه على تاريخ إنكلترا، وفي كتابه نابليون وفلسطين يقول (فيليب جوايدالا) ص٤٥ بأن لويد جورج كان قد صرح أمام الجمعية التاريخية اليهودية في ٢٥ أيار من العام ١٩٢٥ بما يلي:

نشأت في مدرسة تعلمتُ فيها تاريخ اليهود أكثر من تاريخ بلادي، بمقدوري أن أذكر أسماء جميع ملوك بني إسرائيل، وأشك أنني أستطيع ذكر أسماء بضعة ملوك من تاريخ إنكلترا أو ويلز. لقد أُترعنا بتاريخ جنسكم في أعظم أيام مجده، عندما أقام أدبه العظيم، الذي سيتردد صداه حتى آخر أيام هذا العالم ويصوغها ويُلهمها جميع الحوافز الإنسانية، لا لليهود بل وللمسيحيين في هذا العالم، لقد استوعبناه وجعلناه جزءاً من أفضل ما في أخلاقنا المسيحية ـ نقلته شريف. المصدر السابق).

ومن لويد جورج رجوعاً إلى سلفه دزرائيلي ثم إلى سلفهما بالمرستون، فإن عزل مصر عن بلاد الشام بواسطة وطن قومي يهودي، كان مُهمّة سياسية ودينيّة، أما عزل الساحل العربي عن داخله الصحراوي، فكان مُهمّة الحرب العالمية الأولى قبل أن تنشب، وقد ساعدت الخلفية المذهبية لرجال السياسة البريطانية الكبار ونظرائهم الفرنسيين، في تحقيق سياسات الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بعد اقتسام المنطقة.

---

* رغم أن بلفور كان رئيساً للحكومة قبل لويد جورج، إلا أن شهرته كوزير للخارجية، كانت أقوى منها في رئاسة الحكومة، ويعود السبب إلى وعده الذي أطلقه لصالح الصهيونية..

(١)

على رائحة البارود ـ اللنبي في القدس

مع وجود لويد جورج في رئاسة الوزارة، وآرثر بلفور في منصب وزير الخارجية، تغلغلت الشخصيات البريطانية المسيحية ذات الهوى التوراتي في أعماق دوائر القرار البريطاني، حيث أثبتت إخلاصها للصهيونية بدوافع مركبة وغير متناقضة: (المصالح العليا للإمبراطورية) (والإخلاص لأصول المسيحية المتهودة والمتجذّرة في التاريخ اليهودي) وحتى في النقاش حول إدارة دفّة الحرب، فإن لويد جورج، انطلاقاً من مشاعره التوراتية، فضّل أن تدور رحاها على أرض الشرق الأدنى، خاصة وأن القتال كان قد توقف في الجبهة الغربية، وكانت حملة فلسطين بالنسبة للويد جورج، هي الفصل الأهم إذ أن أسماء ميادين الحرب نفسها كانت تثير مشاعره، وكما يقول ستين فورد عن لويد جورج في مؤلّفه ذكريات الحرب (كان متأثراً بذكرياته عن الكتابات المقدسة التي ألفها منذ طفولته التي كانت تتنبأ بعودة الشعب اليهودي للأرض المقدسة) أما لويد جورج نفسه فقد دون في مذكراته (لقد استشعرنا المكاسب السياسية والمعنوية على هذه الجبهة، خاصة بعد احتلالنا للقدس). ويبدو أن عبارات من نوع أورشليم، وشعب الله القديم، وعودة المسيح المنتظر وإيقاع ترانيم النبوءات.. وغيرها من الآيات التوراتية، هي التي حالت دون التفكير بضم فلسطين إلى ممتلكات الإمبراطورية، وإضافة إلى مبدأ تقرير المصير الذي أطلقه الرئيس الأمريكي ولسون، فإن كبار الساسة البريطانيّين آثروا إطلاق شعار (فلسطين تحت الوصاية) وكان مارك سايكس هو الذي لفت نظر اللورد روبرت سيسل إلى أنه (ينبغي ترتيب سياستنا في فلسطين، بحيث نصبح أكثر المرشحين لمهمة إدارتها بإجماع الرأي ورغبة السكان، حين يحين الوقت لاختيار هذه السلطة ـ شين ليزلي. عن مارك سايكس. حياته ورسائله. لندن ١٩٣٣).

كان ظهور مارك سايكس، الذي اشتهر بشراكته مع جورج بيكو الفرنسي في القسمة (اتفاقية سايكس ـ بيكو)، على مسرح الشرق الأوسط، والدور الذي قام به في تلك المرحلة، لغزاً لا يزال يكتنفه الغموض، ولم يكن سايكس يهودياً بل كاثوليكياً، وكان يجمع بين كاثوليكيّته وصهيونيّته من خلال بيئته الأسروية، فوالدته الليدي هنريتيا سايكس ظلت لسنوات طويلة، عشيقة لرئيس الوزراء

البريطاني اليهودي بنيامين دزرائيلي، وذلك حسب تاريخ حياته الذي نشرته جين رادلي في لندن عام ١٩٩٥، وتضيف الكاتبة (كان مارك ابن هنريتيا موضع اهتمام كبير من قبل دزرائيلي، الذي ظل في رئاسة الوزارة أو خارجها سياسياً واسع النفوذ شديد الارتباط بالفكرة الصهيونية، مؤمناً وعاملاً من أجل توطين اليهود في فلسطين) ومن المرجح بالطبع، أن يكون الكثير من آراء دزرائيلي وقناعاته، قد رسخت في وعي مارك أثناء طفولته وشبابه.. وقبل الحرب العالمية الأولى بقليل، اصبح مارك سايكس عضواً في مجلس العموم البريطاني، وذاع صيته كداعية، مُبّشر بالتعاطف مع الحركة الصهيونية، وكانت أكثر العلاقات حميّمية بالنسبة لشخصه، تلك العلاقة التي ربطته باللورد اليهودي الشهير روتشلد. ويذهب الأستاذ محمد حسنين هيكل، في كتابه المفاوضات السرية ص٩٧ (الكتاب الأول)، إلى أن مارك سايكس طبقاً لروايته عن نفسه كان (يلتحق بفرقته العسكرية التي تقاتل في فرنسا، حين رآه في يوم من أيام ربيع العام ١٩١٥، اللورد كيتشنر قائد القوات البريطانية على الجبهة الفرنسية والذي كان قائداً لقوات بريطانيا في مصر قبلها، وكان كيتشنر يتفقد المواقع في الجبهة، ويروي سايكس بأنه ما أنْ وقعت عينا كيتشنر عليه، حتى حدجه بنظرة حازمة ووجه سؤاله على الفور: سايكس. ماذا تفعل هنا؟! ورد سايكس: أقوم بواجبي يا سيدي. وأجاب كيتشنر بسرعة: مكانك في هذه الحرب ليس هنا. مكانك في الشرق. فاذهب من فورك إلى هناك. واستطرد كيتشنر موّجهاً أوامره: مارك سايكس. سلّم كتيبتك الليلة إلى نائبك وتوجه إلى لندن. وستجد هناك تعليمات تنتظرك بما يتعيّن عليك أن تعمله). وما أن وصل سايكس إلى لندن، حتى كانت مهمته التي تنتظره، رحلات مكوكية إلى باريس والقاهرة وعودة إلى لندن، ثم الاتفاق على القسمة الشهيرة مع قنصل فرنسا في القاهرة جورج بيكو، حيث ما زالت المنطقة العربية تعيش كارثة (سايكس - بيكو) حتى يومنا هذا..

كان سايكس واحداً من جيلٍ كامل حمل التوراة بيد وخرائط المخططات بيد أخرى، وقد تميزت شخصياتُ هذا الجيل، بالفرادة والنفوذ سواءً في الحياة الاجتماعية أم المذهبية أم الرسمية، وكحلقات في سلسلة طويلة آمنت بالانحياز إلى التوراة ومصالح الإمبراطورية، وقف الكثير من نجوم بريطانيا المعهودين إلى جانب السياسات الصهيونية التي باتت تجمع بين أمجاد العهد القديم، وقرن بريطانيا البازغ سواءً بسواء.

وقد فرّخت توراتية شافتسبري، وأحلام بالمرستون، ويهودية دزرائيلي، وواقعية لورانس أوليفنت، وصهيونية لويد جورج، وبراغماتية بلفور.. جيلاً وضع نفسه في قلب الأحداث، وكان هذا الجيل كحبلٍ من مسدْ، بدءاً من مارك سايكس ومروراً بـ : ليوبولد أميري، واللورد ملنر، والميجور غور، وهربرت سايد بوثام، وروبرت سيسل، وسيمتس، وريتشارد ماينر تهاجن، وجوسيا وود جود، وسكوت، وغيرهم ممن ترعرع في أحضان النشأة الأنجليكانية والذين لولاهم، لما كان الحديث عن شعب خاص، ونبوءات تتحقق وتواريخ تُصطنع ودولة تقوم.

كانت النقلة التالية، بعد أن جلست إرادة الأرض فوق مقعد السماء، باختراع مادة الأسيتون على يد حاييم وايزمن لصالح المجهود الحربي البريطاني (الأمر الذي حدا بلويد جورج أن يقول: لقد جعلني أسيتون وازيمن صهيونياً)، كانت هذه النقلة بعد أن استراح جنود اللنبي تحت أفياء القدس، ثم تجأشوا أبخرة السمك من بحيرة طبريا.. تكمن في الاستيطان اليهودي في فلسطين، فبعد أن استنهض هربرت صموئيل، المندوب السامي اليهودي بامتياز، سياسة استيطان لا مثيل لها في فلسطين كلها، لم يكن (أسيتون) الهجرة وبناء المستوطنات، قد تم اختراعه على يد صموئيل فحسب، بل كان امتداداً لسياسات قديمة تمثّلت في برامج مسيحيين إنجيليين أمثال وليم هشلر، ولورانس أوليفنت الذي انتهى به المطاف في مدينة حيفا، ثم مساعده اليهودي نافتالي زامبير، مؤلف نشيد الهاتكفا (أي الأمل) حيث اصبح النشيد الوطني لإسرائيل فيما بعد.

وكان من بين الشخصيات التي كسبتها سياسة الاستيطان اليهودي في فلسطين الممول الإنكليزي الكبير (قبل روتشلد)، إدوارد كازاليت الذي حصل على دعم من دزرائيلي لمشروعه الاستيطاني، خاصة وأن كازاليت كان قد دعا إلى الاعتراف باليهود (أمة واحدة لها الحق في إقامة دولتها الخاصة في أرض الآباء العبريين - أسعد رزوق. إسرائيل الكبرى ص٦٤). ويعزى الفضل في تقديم صورة تفصيلية واضحة عن فلسطين، وإثارة مزيد من الاهتمام الاستيطاني في فلسطين، إلى صندوق استكشاف فلسطين، حين أنشئ هذا الصندوق في لندن عام ١٨٦٥ برعاية الملكة فيكتوريا وبركات رئيس أساقفة كانتربري، وقد لعب الصندوق دوراً ريّادياً في تزويد السياسيين والعسكريين بالمعلومات التاريخية

والسكانية والسياسية والعسكرية.. خاصة وأن فلسطين كانت قد وقعت في قبضة محمد علي باشا لمدة قاربت على عشر سنوات. وكانت فرنسا وروسيا، تؤججان الاهتمام بفلسطين، كونهما من الدول الطامعة، بوراثة الإمبراطورية الإسلامية العثمانية وإضافة إلى ذلك وفوقه، فقد قدم صندوق استكشاف فلسطين، مساعدات هامة فيما يتعلق بالآثار والتاريخ والجغرافيا والمناخ، وبالرغم من أن القائمين على إدارة الصندوق، ظلوا يجهرون بأن منطلقاتهم تحمل طابعاً دينياً وعلمياً، إلا أن المقاصد كانت واضحة حين تجاوزت نشاطاتهم كل أهدافهم المُعلنة باتجاه هدفين ملموسين: تركيز الاستعمار البريطاني في فلسطين، وإطلاق سياسة الاستيطان اليهودي في ربوعها.

كانت الدراسات والتقارير الصادرة عن رجال الصندوق العاملين في رحاب فلسطين، تدعو في معظمها إلى أهمية فلسطين وضرورة عودة اليهود إليها، وقد افتتح سلاح الهندسة الملكي البريطاني والذي معظمه من رجال المخابرات، سجّل فلسطين أمام وزارات المستعمرات والأسطول والخارجية، وحكومة عموم الهند، بحيث تستطيع هذه الوزارات أن تدلي بدلوها بخصوص مستقبل فلسطين. فالكابتن وارن صاحب الميول المسيحية ـ اليهودية، دعا بعد أن وضع مذكراته العملية عن مسح فلسطين، إلى إحياء مدينة القدس، وكان من أهم اقتراحاته تولي شركة الهند الشرقية، مهام تنمية الموارد الزراعية والتجارية في فلسطين. أما كتابه عن أرض الميعاد، فيفضح المهمة الحقيقية التي قام الصندوق من أجلها، فالكابتن وارن الذي أصبح فجأة عالماً من علماء التاريخ والشعوب والأنساب.. يقول في أرض الميعاد ما هو بالحرف:

(من المرجح أن يتبادر للذهن على الفور: ما الذي سيحدث لعرب فلسطين في مثل هذه الحالة، وأجيب متسائلاً: من هم العرب؟ إنهم ليسوا أتراكاً على وجه التحديد، ومعظمهم ليسوا من عرب الجزيرة العربية، أو من الصحراء تحديداً.. إن بعضهم يتحدّر من الكنعانيين والبعض من اليهود والبعض الآخر من الجزيرة العربية، ومن الواضح أن كثيراً منهم اعتنق الإسلام إيثاراً للسلامة، لذلك لا يمكننا اعتبار أهل فلسطين بمثابة مسلمين من عرق واحد، بل يجب أن يُنظر إليهم كخليط من الكنعانيين والإسرائيليين والإغريق والرومان والعرب والصليبيين الذين اعتنقوا اليوم الديانة الإسلامية أو المسيحية حسب الظروف.. وفي بعض

الحالات فإنه لا يساورني أدنى شك بأنهم يحافظون على دياناتهم القديمة الحقة). ووفق هذا المفهوم للكابتن وارن، فإن التاريخ والأرض واللغة والمشاعر والاقتصاد.. كلها ليست من مقومات الأمة، بل الدين والدين وحده!. فالأمم عنده تتحدر بأديانها، وليس بعناصرها القومية التي تتشكل عبر التاريخ، ولعل مفهوم وارن، رغم تآكله الزمني، هو الذي أعطى إسرائيل: (الروسية والرومانية والبولونية والخزرية والفرنسية والإنكليزية واليمنية والمغربية والعراقية والحبشية..) الحق بادعاء الأمة أو الشعب، طالما أن هذه الأمة أو الشعب يحمل ديناً واحداً هو اليهودية..

ويأتي بعد وارن، دور الكابتن ويلسون صاحب الأبحاث والتنقيبات في سهول سورية ولبنان ومرج ابن عامر ونابلس والقدس والخليل.. وقد نقّب ويلسون طويلاً على هدى ـ من التاريخ التوراتي، ثم كانت المسوح التي أجراها كوندور لعموم فلسطين ولمدة ست سنوات كاملة، وقد دبجّ دراسة بعنوان (مستقبل فلسطين) جاء فيها (أن المستوطنين اليهود هم العنصر الفعال الوحيد الذي بمقدوره أن ينهض بفلسطين وخاصة مدينة القدس.. وكلما ازداد رأس المال الأوروبي والمستعمرون الأوروبيون فيها، ازدادت فرص خروجها من الجسم التركي، وإن أي محاولة عنيفة للتدّخل في تطوير فلسطين، ستؤدي حتماً إلى حدوث مشكلة فلسطينية ـ إسلامية هائلة ينبغي حلها في كركميش ومجدو) وهو ما يعني كسر شوكة العرب والمسلمين باحتواء مزدوج!. هذا وقد عملت الشخصية المسيحية ـ التوراتية لصالح صندوق استكشاف فلسطين، وكان أبرزها في هذه المرحلة، وولتر بيسانت، إذ قدم دراسة، حسب خيرية قاسمية، تحت عنوان: المدينة والأرض، جاءت مُفعمة بآيات من الأراجيف المُقطّرة: (كنا نستعيد مجد فلسطين في عهد هيرودوس، وكنا نستعيد بلاد داوود، ونرد إلى الخريطة، أسماء مدن دمّرها القائد العظيم يوشع، لقد أعدنا إلى القدس مكانتها ومجدها وفخامتها، لقد أعدنا لفلسطين عالمها المُحمّل بالأماكن والأسماء المذكورة في التوراة، وعندما وُضعت الأسماء فوق أماكنها، اصبح في وسعنا تتبع سير الجيوش في زحفها ـ خيرية قاسمية. صندوق استكشاف فلسطين ص٩٣)*.

* من الواضح أن بيسانت يسبغ على فلسطين تعابير فيكتورية من نوع المكانة والمجد والفخامة.. لا تمت للتاريخ الحقيقي بصلة، أما خرائط الحاضر، فيستطيع راسمها أن يحملّها على هواه!..

ولعله من الواضح الآن، أن أسلوب بيسانت وأضرابه، كان يجهد في إسقاط التوراة على الخارطة، فيما المطلوب العلمي، استخراج الخريطة من الأثر والصك والرسالة والوثيقة.. لا العكس، ويبدو أن انهماك بيسانت كغيره، كان يذهب إلى إثبات ما ورد في التوراة، حتى لو كان ذلك على حساب النزاهة والتاريخ. وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن علماء من ذوي نزاهة الضمير والبحث، كانوا قد لحقوا التاريخ في آثاره، ورسومه، ولغاته، ورسائله، ومواده الباقية حتى يومنا هذا، دون أثر من خلفية مسبقة أو إسقاطية، وكان من هؤلاء، آزيكو فرانكلين، وكاثيلين كينيون والأب دوفو والأب ويدفر، وحتى علماء يهود من أمثال: بنيامين مازار، وأهاروني، وروث، ويادين، وأميران.. وكان من العلماء العرب: يوسف سعد، وديمتري البرامكي، وسالم الحسيني.. وغيرهم ممن جابوا فلسطين أثراً أثراً، تؤازرهم المدارس الغربية السامية لوجه العلم، بعيداً عن ضغوط التفكير الديني - التوراتي ـــ المسبق، حيث من أهم هذه المدارس، مدرسة فيلهوزن الألماني، وتلميذه ماير، والبروفسور إيسفلت، والأستاذ فولبرايت، حيث هذا الأخير، حاول زحزحة تاريخ التوراة وأماكنها، كي يُكيّفها مع عصور التاريخ المجاورة.. لكنه عاد واستسلم إلى اليأس حين قال: (لا توجد دلائل تاريخية تشير إلى مملكة إسرائيل موحدة، ولا إشارات إلى غزو يشوع، فدمار المدن الكنعانية بفعل الزلازل، كان واقعاً قبل يشوع المُفترض بمئات السنين ــ اغتيال التاريخ. حمدان حمدان ص٥٢).

وإضافة إلى دراساته وتقاريره المفيدة أمنياً، فقد أصدر صندوق استكشاف فلسطين، خريطتين لفلسطين وشرقي الأردن، وقد حُمّلتا تضاريس البلاد، جبالها وسهولها ووديانها وطبيعتها المناخية وحتى مصادر المياه وطرق توزيعها وكان ذلك ما بين عامي ١٨٨٤-١٨٨٩، وسمحت هذه الخرائط الدقيقة بعمليات تحرك الجيش البريطاني وانتقاله عبر الأراضي خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد تقدّمت عروض المسيحية ـــ المتهودة في مجال التاريخ والطوبوغرافيا والمسح والآثار، كما تقدمت السياسة البريطانية نفسها بشكل مواز، وكان ذلك قبل أن تنبت لحية هرتزل بعشرات السنين، فمنذ أواسط القرن التاسع عشر، ابتداءً بموسى مونتغيوري الذي أقام مزارع يهودية حول مدن القدس ويافا وصفد، إلى

شلوموبهودا، والبرتغالي جوزيف ناسي، حيث أقاما مزارع صغيرة حول بحيرة طبريا، إلى الفرنسي أدولف كيرمييه، الذي أنشأ الاتحاد اليهودي العالمي (الأليانس عام ١٨٦٠) واستأجر أراض حول يافا لمدة ٩٩ سنة، إلى تمويلات البارون أدموند دي روتشلد، والبارون موريس دي هرش، لتدريب اليهود على أعمال الزراعة وإقامة المستوطنات شمال الجليل وحول القدس ويافا.. ثم إلى تمويل الفرع الإنكليزي للجمعية الإنكليزية ـ اليهودية، يهود القدس لشراء ٣٤ ألف دونم من أراضي قرية ملبّس، التي ستبنى عليها ما سيسميه اليهود أم المستوطنات بتاح تكفا.. إلا أن الهبّة الآورور يهودية لبناء المستوطنات أواسط القرن التاسع وأواخره، كانت تتعثر بفعل عوامل النزاع بين القوى الاستعمارية، ومقاومة الإمبراطورية العثمانيّة، وتعقيدات المشكلات التي خلقها نظام محمد علي باشا في مصر، ولذلك فإن المرحلة الذهبية لبناء المستوطنات اليهودية في فلسطين، جاءت ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. وفي هذه الأثناء كان جوزيف مايتس أحد المسؤولين عن منظمة الاستيطان اليهودي (تحت الانتداب البريطاني ١٩٤٠) يصرح جهاراً (إن هذا البلد، لا يمكن أن يتسع لكلا الشعبين.. إننا لن نحقق هدفنا في الاستقلال إذا ما بقي العرب في هذا البلد الصغير، والحل الوحيد يتمثل في إفراغ فلسطين، أو على الأقل فلسطين الغربية من العرب، وليس ثمة وسيلة غير نقل العرب الموجودين هنا إلى البلدان المجاورة، ينبغي ألا تبقى قرية واحدة أو قبيلة واحدة هنا ـ روز صايغ الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة).

ولعل جوزيف مايتس اليهودي، كان يردد ما أطلقه البروتستانتي الاسكتلندي آرثر بلفور في يوم من الأيام: (ليس في نيتنا مراعاة مشاعر السكان الفلسطينيين، سواء كانت الصهيونية على حق أم باطل، جيّدة أو سيئة، إن القوى العالمية الكبرى ملتزمة بالصهيونية ـ وود ورد وبتلر. وثائق السياسة الخارجية البريطانية).

هذا ويصور محمد عرابي نخلة في أطروحته (تطور المجتمع في فلسطين ١٩٢٠–١٩٤٨) تطور بناء المستوطنات اليهودية بمساعدات استعمارية وتمويلات غربية ويهودية، حيث شهدت فلسطين إنجاز خمس مستوطنات بواقع خمسمئة عامل زراعي ومساحة ٢٥ ألف دونم في العام ١٨٨٢، إلى أن وصلت في العام ١٩٤٦ إلى مئتين وخمس وسبعين مستوطنة بواقع ١٦٠ ألف عامل

زراعي ومساحة مئة وثمانية آلاف دونم من أفضل الأراضي الفلسطينية، وما بين العام ١٩١٤ والعام ١٩٤٨ أي زمن الانتداب البريطاني، كانت فلسطين تشهد ذروة النشاط الاستيطاني، إذ بينما شهدت فترة اثنين وثلاثين عاماً قبل الانتداب البريطاني (أي من العام ١٨٨٢ إلى العام ١٩١٤) ولادة سبع وأربعين مستوطنة بواقع ١١ ألف مزارع، كانت فترة أربعة وثلاثين عاماً من انتداب الاستعمار البريطاني، تشهد ولادة مئتين وسبع وعشرين مستوطنة إضافية، بواقع ١٥٠ ألف مزارع، وهي نسبة تصل إلى زهاء ٨٣ بالمئة من كامل النشاط الاستيطاني في الفترة الانتدابية البريطانية على فلسطين.

(٢)

من النبوءات إلى الهجرات:

كانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، هي الشرط الملازم لبناء المستوطنات والعمل فيها، حيث يمكن القول، بأن إسرائيل مثلما كانت ثمرة المعتقدات المسيحية ـ المتهودة في الماضي، فإنها ثمرة الهجرة والاستيطان إبان الاستعمار البريطاني فيما بعد، ورغم أن بنيامين نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل المتطرف، يصف بريطانيا بأنها خنقت الهجرة اليهودية إثر إصدارها لكتابها الأبيض، فإن تاريخ الهجرة نفسه، يشير إلى سلسلة متوالية من الهجرات اليهودية إلى فلسطين، كانت قد تمت تحت بصر ومراقبة البريطانيين أنفسهم بل وبتشجيع من أعلى الدوائر الحاكمة في لندن، ففيما لم يتجاوز يهود فلسطين عام ١٩٢٢ رقماً يجاوز ٥٦ ألفاً، أصبحوا بعد ثماني سنوات ١٧٥ ألفاً، حيث التزايد بالولادة لا يتشكل رقماً بالنسبة ليهود أوروبا على وجه العموم، ومنذ العام ١٩٣٣ إلى العام ١٩٣٩ بلغت الموجة الرابعة أعلى مستوىً لها، حين سمحت السلطات الانتدابية بدخول ٢١٥ ألفاً من اليهود، ومن ١٩٤٠ إلى موعد رحيل بريطانيا عن فلسطين عام ١٩٤٨ زاد تعداد المهاجرين الشرعيين وغير الشرعيين على ١٢٠ ألفاً من اليهود.. وقد بلغ الرقم الإجمالي للتعداد اليهودي في فلسطين يوم ١٥ أيار ١٩٤٨، ٦٢٥ ألف يهودي، أي ما يعادل أكثر من ثلث سكان البلاد الأصليين.. ثم توالت الهجرات إلى يومنا هذا.. ولعل الفضل في البدايات يُعزى إلى رجال

الإدارة البريطانية في فلسطين، من أصدقاء لويد جورج وخطّه المسيحي ـ التوراتي، من أمثال رئيس فرع المخابرات العسكرية البريطانية الكولونيل ريتشارد ماينر تهاجن، والمشرف على إدارة الانتداب السير هربرت صموئيل صاحب الأيادي البيضاء في إطلاق العنان للهجرات اليهودية حتى بسقفٍ أعلى مما كانت تخطط له وزارة المستعمرات في لندن.

لقد كان كل من صموئيل وتهاجن أصدقاء شخصيين لحاييم وايزمن، مثلما هم أصدقاء لرئيس الوزارة لويد جورج، فعن صموئيل يقول حاييم وايزمن زعيم المنظمة الصهيونية العالمية (كنتُ المسؤول الأول عن تعيين السير هربرت صموئيل كرئيس لإدارة الانتداب في فلسطين، إنه صديقنا، وقد قبل هذا المنصب الصعب تلبية لرغبتنا.. إنه صموئيلنا). أما الكولونيل تهاجن، رجل الأمن الأول في فلسطين، فلم يكن يخفي كراهيته التوراتية لعرب فلسطين، ففي تقرير له إلى إدارته ربيع العام ١٩٢٠ يقول:

(رغم كل ما فعلنا لأجلهم ـ أي العرب ـ فإنهم لا يعرفون معنى الاعتراف بالجميل، حتى أنهم سيكونون عبئاً علينا، في حين سيكون اليهود ذخراً لنا.. إن اليهود أثبتوا جدارة في القتال منذ أن احتل الرومان القدس، أما العربي فهو مقاتل وضيع، رغم أنه متطرف جداً في عمليات السلب والقتل والتخريب). (الموسوعة الفلسطينية. فترة نيسان ١٩٢٠) وللتقريب، فإن أوصاف وايزمن عن عرب فلسطين لا تقل عنصرية عن تهاجن، ففي مؤتمر فرساي، أطلق وايزمن العنان لخياله الخصب عن شعب فلسطين حين قال:

(شعب فطن وذكي لكن بشكل سطحي، إنهم يعبدون شيئاً بعد الله، ألا وهي القوة المسيطرة المصحوبة بالنجاح، فالفلاح العربي متخلف بما لا يقل عن أربعمئة سنة من أزمنتنا الحاضرة، والأفندي شخص شره قليل الوطنية ولا أمانة له، وعلى المدى الطويل لا يمكن مقارنة هؤلاء، مثلما سيفعل الشعب اليهودي لبريطانيا) (وثائق مؤتمر فرساي حزيران ١٩١٨). فهل جرى هذا اللقاء بين المسيحي الإنجيلي، واليهودي التوراتي، مصادفةً عن الموصوف نفسه، وإلى أي مدى كان يمكن إطلاق تعميمات حاقدة على الأغيار من الشعوب، لولا ذلك الانخراط الغريب، مع مقولة شعب الله المختار، وأرض الميعاد، وعودة المسيح

أو المسي، والسياسات الإبادية والنبوءات القيامية، وغيرها وغيرهـا مـن شحنات الكراهية ضد (الآخر الغريب) بحيث أتاحت المجال لزعيم صهيوني مثل دافيد بن غوريون لأن يقول: (ليس في بلدنا إسرائيل مكـان إلا لليهـود، وسنقول للعـرب، انجوا بأنفسكم، فإذا لم يذعنوا وقاوموا، فلسوف نرمي بهم خارج البلاد بالقوة ــ تاريخ الهاغاناة. دافيد بن غوريون) وعشية حرب حزيران ١٩٦٧، قام يوسف ماينر مدير دائرة الاستعمار في الوكالة اليهودية. بإطلاق وعيد مشابه: (من الجلي أنه لا مكان في هذا البلد لكلا الشعبين، فالحل الوحيد إذن، هـو تحقيق شعار إسرائيل لإسرائيل دون عرب، وعلى عرب فلسطين أن يخرجوا إلى بلدان أشقائهم للتوطن فيها).

استبدال أمـة بأمـة، وثقافـة بثقافـة، وهـذا مـا فعلـه البيورتـان مـن الأنجلـو ــ ساكسون بالسكان الأصليين في القارة الأمريكية.

لقد استوحى الغزو الصهيوني لفلسطين حججاً دينيّـة جـاءت قوتهـا الكاسـحة من خارج الدين اليهودي نفسه، وكان الشعار الذي أُطلق في القرن التاسـع عشـر (عيدنا القادم في أورشليم) يعني اجتياح أرض يسكنها أهلهـا منـذ آلاف السـنين، أما الأمل الخلاصي بحلول ملكوت الله في أورشليم، فقد دعا المسيحية المتهودة في أوروبا إلى مساندة مشروع الكراهيـة الصهيونـي، الـذي تحـول إلـى مفـردات سياسية ـ عسكرية علـى يـد بريطانيـا فـي مستهل القـرن العشـرين. ويذكـر هـذا المشروع، كما يقول روجيه غارودي في كتابه فلسطين أرض الرسالات (ترجمة ميشيل الحكيم وقصي أتاسي) يذكر بمشروع الصليبيين حين جرى استغلال لئيـم للعقيدة المسيحية المتأصلة في أعماق شعوب الغرب والمستعدة للتضحية من قبل القادة السياسيين أو الدينيين الذين كانوا يستخدمون اطروحات قـادرة علـى إثـارة حماسة الشعوب المسيحية، وذلك بغية خدمة المصـالح الخسيسـة للحكـام والقـادة، إنها مصالح رجال اللاهوت الذيـن يريـدون استرداد سـلطانهم علـى أمـراء الإقطـاع، ووضع حد لانقسام الكنيسة في الشرق، فضلاً عن مصالح أمراء شرهين لضم ممـالك في الأراضي المقدسة، كذلك رفدت مصالح تجار البندقية وجنوة الحمـلات وغذّتهـا بمزيج متطيّر من الهرطقات الدينية المشحونة بأسـباب الكراهيـة للشـرق، ممـا وضـع إمكانيات هائلة، للأغنياء وغرف المغانم وجمع الثروات دون حدود.

ويتابع غارودي (لقد مارس الغزو الصهيوني ما مارسه الصليبيون من حرف للعقيدة وتشويه لها، بغية تحقيق المشاريع السياسية، والتعدّيات العسكرية، واحتلال الأرض بأسلوب جديد، أسلوب الاستعمار في القرن العشرين ـ المصدر السابق. ص ٢٥١).

وسواءً أكان احتلال أراضي الغير، بأسلوب قديم أم بأسلوب حديث، فإنه يظل (أسلوباً) يستقي من مناهل الأسطورة وموقفها حيال الآخر، حيث الأسلوب هو أداة الفكر وقوته العاملة، فقد دعا المفكر الصهيوني مارتن بوير وهو من شخصيات المرحلة الهرتزلية، بضرورة استبدال شخصيات البيوريتان في التاريخ الأوروبي، بشخصيات أنبياء التوراة في تاريخ الشرق، علماً بأن البيوريتان أنفسهم، كانوا قد استخدموا تاريخ الشرق التوراتي لا تاريخ الغرب المسيحي، وكان واضحاً أن بوير يدعو يهود عصره، إلى تقليد خط بيوريتاني بأسماء عبرية، أو بصورة أدق، تقليد خط إبادة الهنود على يد البيورتان في أمريكا، بخط إبادة الفلسطينيين على يد اليهود في فلسطين. لقد زوّد الاستعمار البريطاني بما يحفّه من شخصيات توراتية فاعلة، اليهود بحلم موحد، كما زوّد العرب والفلسطينيين بكابوس موحد، وسوف يوفر الحلم والكابوس، مزيجاً مفجعاً لشحنات الانفجار التي لا تتوقف، فإذا ما أصبح حلم الصهيونية حقيقة عيانيّة بعد حربين عالميتين، فإن إسرائيل الراهنة تكون قد ورثت كوارث أسلافها سواء برضاها أم بغير رضاها، فالنزاع الذي افتتحه هرتزل في بال، والاحتقان الذي أسّسته بريطانيا، لدوافع مصلحية أو مذهبية، أو لكليهما معاً، قد وضعا الصراع في مفهوم اللانهاية، من حيث هو استبدال أمة بأمة، وثقافة بثقافة، أو اقتلاع تاريخ وإحلال تاريخ آخر، فالصراع العربي ـ الإسرائيلي اليوم، صراع مُعّقد ومركب، إذ هو يستقي من طاقات يهودية وعربية متواجهة لا تنفد، وفي جانب منه، فإنه يحمل مفهوماً ديّنياً مقدساً من المحرم التنازل عنه، وهو في أحد جوانبه الأخرى، يحمل مفهوماً قومياً يحد في إسرائيل مانع وحدته، وزارع انقساماته، وحائل تطوره..

ثم هناك المفهوم الفلسطيني القطري الذي يحاور بالتاريخ والإسلام واليسار والعروبة والحجر والانتفاضة، فالدولة الوطنية الفلسطينية هي مطلب الفلسطينيين جميعاً، والقدس بتاريخها المُثقل، هي رمز الحرية الفلسطينية والعربية والإسلامية

على حد سواء، أما ظهـور أبنـاء هرتـزل المدججيـن صبـاح مسـاء، فسـبب آخـر لاحتكاك دموي لا يهدأ، وعلى صعيد الساحة الفلسطينية المحلية، وما لا يستشعر به الآخرون إلا بالخطاب، فإن هناك المحاولات المستميتة لإحداث صراع أهلـي فلسطيني ـ فلسطيني، وهناك سياسات الاقتلاع والتهجير من منطقـة إلـى أخـرى، بذرائع خطط الأمن الإسرائيلية، وهناك الأسـرى فـي السـجون المغلقـة علـى مـنْ أراقوا الدم الإسرائيلي حيث الدم الفلسطيني صديدٌ يجبُ إسـالته، وهنـاك البيـوت المُهدّمة تحت بصر أهليها وكاميرات الفضائيات العالمية، راعية حقوق الإنسـان، وهناك المستوطنات والطرق الالتفافية، وتبديـل معـالم القـدس بحـرث تاريخهـا، وجعلها مدينة الهيكـل بُقبّـة الكونغـرس الأمريكـي، أمـا الشـتات الفلسـطيني فـي المنافي، فما زال ينتظر منذ خمسين عاماً، دون تدخـل إرادة سـماوية أو أرضيـة، فالأمم المتحدة تصدر قراراتها فيما تُلقيها إسرائيل في البحر، وبسبب قرار واحد، قـد يُدَّمـر العـراق، وصربيـا، وكوسـوفا، دون السـؤال عـن الكـوارث الإنسـانية الناجمة، فيما تنشب أعمال عسـكرية بحالهـا (إصبـع الجليـل) (عنـاقيد الغضـب) (سلامة الجليل).. بسبب محاولة اعتداء مجهولة على سفير في لنـدن*، أو جـرح جندي على الشريط الحدودي. وفي جميع الأحوال، فإن الصمت الغربي، والفيتو الأمريكي كانا ينقذان إسرائيل من الإدانة..

ومرة أخرى كان الغرب الأوروبي المطواع للولايات المتحدة، يتحديان العالم بالموافقة على الاعتداءات الإسـرائيلية دون كـابح، ومـرة أخـرى تصبـح إسـرائيل المخلوقـة بسياسـات غربيـة استعمارية ومذهبيـة، (وكيـلاً عامـاً) لاسـتراتيجيات بريطانيا، ثـم لاستراتيجيات الولايـات المتحـدة بكـل مـا فيهـا مـن فظاظـة القـوة والاستكبار والنهب وسياسة الضرب المفتوح..

---

* أقدم مجهولون على محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي فـي لنـدن أواسـط العـام ١٩٨٢، وقـد ردت إسرائيل على هذه المحاولة بغزو لبنان!..

المسيحية ـ اليهودية في أمريكا الشمالية

خلال مئة سنة بين مستّهل القرن السابع عشر ومستهل القرن الثامن عشر، تدفق تيار الهجرة من أوروبا عبر المحيط إلى أمريكا، ولعل حركة الهجرة هذه تُعد من أعظم حركات الهجرة في تاريخ أوروبا، ولم تكن نتيجة لعاملٍ أُحادي دون غيره، ولو أن الحروب الدينبة في أوروبا، وبصورة خاصة إنكلترا، كانت من أقوى العوامل التي بعثت على المغامرة والهجرة، فأمريكا في عصر الاستعمار الأوروبي، كانت مسرحاً للتوسع من كل صوب وحدب، وهكذا عَبَرْت المحيط الأطلسي جماعات متعاقبة من الإنكليز والفرنسيين والألمان والاسكتلنديين والايرلنديين والهولنديين والسويديين وغيرهم مما يُسمى بشعوب الانكلوـ ساكسون، وكانت كل جماعة، رغم التحولات المذهبية، تَعتبر نفسها بمثابة رأس جسر، لوطنها الأم في القارة الحديدة، ولو أن أقواها تمثَّلتْ في الجماعة الإنكليزية البيورتيانية، حيث شغلت إنكلترا مساحة من تاريخ العالم آنذاك.

كان الفارق الزمني بين اكتشاف أمريكا الشمالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وبين تدفق حركة الهجرة الفعّلية، يساوي مئة سنة أيضا، وما بين اكتشاف أمريكا وسقوط الأندلس (١٤٩٢) من جهة، ووصول ماي فلاور إلى البر الأمريكي * من جهة ثانية، كانت الصراعات الدينية تلهب ظهر القارة الأوروبية، وقد كانت محاكم التفتيش الإسبانية التي قضت بذبح المسلمين واليهود، أو تحويلهم عنوة إلى المسيحية، أول نموذج أوروبي إبادي، أدى إلى فرار جماعي إما إلى بلاد المغرب العربي القريبة ، أو إلى البلدان الأوروبية المحاورة، وكان طبيعياً أن يفر (المورو من العرب المسلمين) إلى المغرب يلحقهم اليهود، إلى أوروبا والبلقان.

---

* ماي فلاور. اسم أول سفينة أقلت المهاجرين الإنكليز من البيورتيان إلى الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة.

كانت الرحلة البحرية عبر طرفي المحيط من الجزر البريطانية إلى الشاطئ الأمريكي، تستغرق زهاء عشرة أسابيع، وكانت العواصف الهوجاء تقذف بالسفن بعيداً عن أهدافها، كما كان سكون المحيط يؤدي إلى تأخر الوصول أسابيع إضافية، وسْط مكانٍ ليس فيه إلا الماء والسماء.. وتختلج القسوةُ نفوسَ المهاجرين بأفظع أشكالها، خاصة حين يتذكر المرء، بأن من بين أهم أسباب هجرتهم، كان يكمن في الاضطهادات الدينية التي لاقوها من عسف أسرة ستيورات الإنكليزية، إبان حكم ماري وجيمس الأول وتشارلز الأول (١٥٥٣وحتى إعدام تشارلز ١٦٤٩)، ولا ريب أن عوامل أخرى، كانت تزيد من سعير هذه القسوة، تحدّي الطبيعة والإنسان (الهنود الحمر)، خاصة وأن مستعمرة جورجيا نفسها كان سكانها من السجناء الإنكليز، الذين تم إطلاق سراحهم نتيجة صفقة بين المتمول البيورتياني في أمريكا جيمس أوجل ثروب، وملك إنكلترا من أجل الانخراط في محاربة الهنود الحمر .

كانت الخلفيات العقائدية لمعظم المهاجرين الأوائل، مأخوذة عن البروتستانتية الأصل، فبالنسبة إلى الجماعات الانكليزية كانت البيورتيارنية، وبالنسبة للجماعات من الأراضي المُنخفضة أو الدول الاسكندنافية، كانت الكالفينية، أما بالنسبة للجماعات الفرنسية فكانت الهيجونتية .. وكلها اشتقاقات بروتستانتية ضد الكنيسة الرسمية في روما.

ومن جورج واشنطن إلى جورج بوش، كما يقول منير العكش في دراسته فكرة أمريكا (مجلة جسور ـ واشنطن صيف عام ١٩٩٧) فإن المهمة تظل في كرنفالات الإبادة للأغيار الآخرين، فالنهم الأمريكي القيامي لسفك دماء الشياطين يخلق لديهم أبداً ذهنية المأزق، فالقراءات الدرامية للنصوص وسادية الأوصاف الحادة للأعداء، والجوع المرضي لرؤية ما بعد التاريخ، لابد أن تصطنع عدواً كونياً يتقمص ويتناسخ في جميع الأغيار، هذا وتفرز ذهنية المأزق جميع المبررات التنظيرية لممارسة العنف الأقصى حيث الإبادة عقاب من الله على أيدي مختاريه من الأنجلو ـ ساكسون والعبرانيين ويقول المؤرخ الأمريكي مارتن

مارتي عن لواعـج الأمريكيـين المعتقديـة: (إنهـم مثـل اليهـود، مسـكونون دائمـاً بهاجس الخطر الذي يهدد وجودهم و ثرواتهم، إنه خطر الهنود وخطر الكاثوليك وخطر الإسلام وخطـر الأيديولوجيـات الخارجيـة وخطـر المهـاجرين الغربـاء .. وجميع هذه الأخطار تتلاحق زرافات ووحدانا.. إنهم يبدأون بـإطلاق النـار علـى الشياطين من حملة هذه المخاطر، ويعلقون على صدور الجثث بطاقة تقول: لقـد كنا دائماً في حالة دفاع عن النفس هذا هو القاسم المشترك بين النفسية الأمريكية والنفسـية اليهوديـة، وكمـا يعلـق روبـرت فولـر فـي كتابـه تسـمية الدجـال (إن الأمريكيين والعبرانيين بحاجة دائمةً إلى استحضار الشيطان والحديث عـن خطـره المصيري الذي يتطلب فلسفة أمنية متطورة تقتل حتى علـى مجـرد الظـن، وعلـى كل حال فإن هؤلاء الأنجلو ـ ساكسون البروتستانت متحذرون ثقافياً مـن تـراث توراتي يمدهم بفضاء واسع من استعارات عمياء وما أن تتصـل هـذه الاسـتعارات ولو بالمصادفة بحادثة تاريخية أو بزعيم من بلاد مغايرة..حتى يصبح سفك الـدم عملاً مقدساً..)

ويتابع فولر قائلاً(ما كان لهذه الاستعارات القيامية لتتجذر في الأدب السياسي الأمريكي لولا ذلك التشـابك المعقـد بيـن فكـرة أمريكـا المختـارة ومملكـة اللـه اليهودية التي تتطلب تجميع اليهود في فلسطين، ويترتب علـى ذلـك فعـل بشـري يتمثل في حفلات صيد الشياطين الذين يعيشون مؤقتاً في خريطـة أرض إسـرائيل وجوارهـا، إن هـذا ليـس مـن فعـل اللوبـي اليهـودي فـي أمريكـا، بـل إن العلاقـة المصيرية بين أمريكا وإسرائيل لها امتدادات تاريخية ومعتقديـة قبـل قيـام إسـرائيل وبعد قيامها).

ويتابع العكش قائلاً:

إن تزوير المنتصرين يغوص إلى أعمق أعماق ما في الغثيـان مـن بشـاعة، حيـن يعتمد كتابة التاريخ وفقاً لفلسفة تقول بكمال الجريمة ضد الهمجي، وهو ما فعله جورج واشنطن بشعب(كونوي)، فالسائح الأجنبي الذي يتزود بـالدليل السـياحي في مطار واشنطن، يظفر أول ما يظفر بصورة الرئيس على غـلاف الدليـل، حيـث النظرة الناعسـة المتكسـرة والابتسـامة الجوكنديـة الغامضـة، وبعـض المعلومـات

التاريخية فوق مقبرة تاريخ المدينة الملغي، وعبارة تقول: أجمل عواصم العالم اليوم، كانت قد بنيت فوق محاهل مستنقعية... وتلك هي واشنطن.. ونتابع فلسفة (كمال الجريمة) فتشرح كيف أن جورج واشنطن وهو من الآباء العظام، كان قد اختار موقع هذه المدينة فوق أرض عذراء على ضفاف نهر بوتومك، وكيف أنه طاف بنفسه في محاهلها البكر فاستحسن موقعها المفتوح على خيرات نهر أوهايو حيث تتوسط محاهل الشمال مع محاهل الجنوب، فيما لا يتعلم طفل أمريكي واحد، شيئاً عما تحت أبهة التاريخ من أشلاء ودم، أو عما لا يعرفه إلا الموتى من أعضاء مدينة واشنطن السفلية.

لا يروي الدليل السياحي في بلد لا يشكو الكمال، شيئاً عن شعب كونوي الذي تمت إبادته الجماعية في العام ١٦٢٣ تحت عاصمة إسرائيل الجديدة كما فاضت البيوريتانية الأنجلو ساكسونية في أول لقاء دموي لها مع شعب كونوي أو كما أسموه شعب كنعان البائد الذي تتطاير أشلاؤه أمام الظفر الذي يحرزه شعب الله المختار، أما إسرائيل الجديدة فكانت قد انطلقت أول ما انطلقت من مستعمرة فرجينيا الإنكليزية في أمريكا، قبل أن ينطلق هرتزل من رحم الأسطورة بثلاثة قرون، وللتذكير فإن بقايا شعب كونوي المنقرض، أو من هو في عداده من بين أربعمئة أمة وثقافة.. يطلق عليهم اليوم اسم عرب أمريكا.

إن هذه المدن التي نصبت عروشها فوق مقابر جماعية هي التجسيد الحي لفكرة أمريكا حيث استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة، فالشعب الأول هو أول في كل شيء، في اختيار الله، وفي لون البشرة وفي التفوق ومسحة العبقرية الخاصة، والشعب الآخر هو الأخير في كل شيء، في لون البشرة وفي اللعنة وضروب الهمجية الأزلية، إنه غير موجود إلا في العدم، من حيث أن إبادته تمت في الفكر قبل أن تتم في الواقع، فأنت لا تجد في قاموس إبادته، أي ذكر لاسمه أو مشاعره أو تفاصيل موته اليومي، إذ كيف يموت من لم يولد بعد، ومن هو ذاك الذي يشيع جنازة العدم؟!

كان العدم هو الآخر الذي أوصى رب الجنود بإبادته، وكانت القسوة في واحدة من وجوهها، نابعة من الإيمان بالتوراتية، حيث النبوءات والمواعيد القيامية وحروب يشوع الإبادية، وانتصارات المكابيّين الأسطورية وانتحارات المَسّادات الجماعية، وأحزان السبي البابلي وإحراق أورشليم على يد روما..

كان الموقف من الطبيعة.. وكان الموقف من الإنسان.. ثم كان الموقف من الله.

فإله التوراة يعطي الحق لشعبه الخاص بتملّك الأرض طولاً وعرضاً مع امتداد الأفق إلى اللانهاية، والروح العظمى للهنود الحمر لا تعطي مثل هذا الحق لشعب من الشعوب بما فيه شعوبها، فعلى لسان الزعيم الهندي الأمريكي من إقليم ميلك ريفر القريب من مونتانا أنه قال حين طُلب إليه أن يتخلى عن الأرض لصالح ميثاق إقليمي: (مازال هناك وقت طويل تتألق فيه الشمس، وتجري الأنهار وتبقى الأرض لتهب الحياة للإنسان والحيوان.. ربما تفكرون أن الخالق قد أرسلكم لتنظيمنا حسب إرادتكم.. ولكن افهموا جيداً سبب حبي لهذه الأرض، أنا لم أقل أبداً أن هذه الأرض ملكي أستخدمها على هواي، إنما وُضِعَتْ هنا من قبل الروح العظمى، لخدمتها، ولذلك لن أستطيع بيعها، لأنها مُلك الروح العظمى وليست ملكنا ـ غارودي. الولايات المتحدة طليعة الانحطاط ترجمة مروان حموي. ص١٥٦).

ومن جهة العلاقة مع الطبيعة، فإن كلمة حدود، لم تأخذ أياً من المعاني الإنسانية أو الجغرافية أو التاريخية، فالحيّز المكاني بالنسبة لمهاجري الولايات المتحدة من البيوريتان، كان امتداداً مفتوحاً لا يقف عند حدود، وبقي كذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر، حيث بلغ التوسع والاحتلال مداه بالوصول إلى المحيط الهادي، وكان هذا الفضاء المفتوح على كل أنواع السلب وأشكال الإبادة، في استغلال الغابات بصورة وحشية وفي إبادة بعض حيوانات القارة التي تُقدّم جلودها أو فراؤها أو ريشها، أسعاراً محترمة، كذلك كان التنقيب المجنون عن الذهب والفضة، حيث كان الثمن المدفوع دماء السكان الأصليين على الدوام.

أما العلاقة مع البشر الآخرين، فكانت التوراة في سفر يشوع، هو هادي البيوريتان الأول:

(وكان بعد موت موسى أن الرب كلّم يشوع بن نون خادم موسى، موسى عبدي قد مات، فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب الذي أنا مُعطيها لكم، أي لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم، لكم أعطيه كما

كلمت موسى، من البرية، ولبنان هذا، إلى النهر الكبير، نهر الفرات، جميع أرض الحثيين، وإلى البحر الكبير، نحو مغرب الشمس يكون تخمكم. قال يوشع: بهذا تعلمون أن الله الحي في وسطكم، وطرداً يطرد الكنعانيين والحثيين والحوّيين والغرزيين والجرجاسيين والآموريين واليبوسيين - سفر يوشع. الإصحاح الأول). ففي البداية، كان اصطياد الهنود للاستيلاء على أرضيهم، دون أن يترك لهم خيار غير خيار التصفية العرقية أو الإبادة داخل المحميات التي فُرضت عليهم، وبسبب إيمانيّة البيورتان التوراتية، فقد حملوا معهم الاعتقاد الراسخ، في أشد الفنون فتكاً في تاريخ الإنسانية، ألا وهو الاعتقاد بفكرة الشعب المختار، ذاك الاعتقاد الذي أعطى الشرعية لعمليات استئصال السكان الأصليين واغتصاب أراضيهم، بأمر إلهي اقتداءً بنموذج يشوع، حين أوكل (ربُّ الجنود) لشعبه مهمة ذبح السكان في بلاد كنعان، والاستيلاء على أراضيهم.

وقد كتب ترومان نيلسون في كتابه (بيوريتانيّو ماساشوستس من مصر إلى أرض الميعاد) يقول: (من الجلي أن الله دعا المستعمرين إلى الحرب، حيث يركن الهنود إلى عديدهم وأسلحتهم، يتربّصون الفرص لارتكاب أعمال الشر، تماماً مثلما فعلت قبائل الفلسطينيين والآماليين الذي تحالفوا مع الآخرين من أعداء إسرائيل).

كان البيوريتانيون يشعرون أن تماثلاً قائماً بينهم وبين العبرانيين القدامى، سواء في القهر الذي حفزهم على الخروج من ديارهم، أو في المصير الذي آلوا إليه في القارة التي يكتنفها المجهول، فهم فروّا من اضطهاد ملك إنكلترا، جيمس الأول، بحثاً عن ملاذ في أراضٍ جديدة، كما فرّ العبرانيون من عذاب فرعون مصر إلى أرض الميعاد، فإنكلترا بالنسبة لهم، كانت مصر، والقارة الجديدة هي أرض كنعان، وأما الأطلسي الفاصل بين الجزر البريطانية والقارة الجديدة، فهو نفسه البحر الذي شقّه موسى بعصاه، وقد بلغت قوة الإيمان بالعهد القديم، ما جعل المهاجرين يطلقون أسماء توراتية على الأماكن مثل حبرون وسالم وعدن وأورشليم الجديدة، كما سمّوا أبناءهم بأسماء عبرية ابراهام وساره وايزاك

(اسحاق) وجوش وهو الاسم المحبب ليشوع.. وقد فرض البيوريتان تعليم اللغة العبرية في مدارس وجامعات مستوطناتهم، إذ هي لغة التوراة، فأول دكتوراه منحتها جامعة هارفارد في العام ١٦٤٢ كانت بعنوان (اللغة العبرية هي اللغة الأم) وأول كتاب صدر في أمريكا الحديدة كان سفر المزامير، وأول مجلّة صار يتداولها الناس، كانت باسم (اليهودي).. ويقول ريتشارد موريس في كتابه (الحريات المدنية والتقاليد اليهودية في أمريكا الجديدة): (إن أسماء الأماكن التوراتية التي باتت تطلق على المستعمرات المحتلة حديثاً، وتغلغل التماثل البيوريتاني مع الشخصيات العبرية التوراتية، شكّل في الحياة الأمريكية القومية الحديثة، إرثاً ملازماً لما سيسمى بالتقاليد الأمريكية فيما بعد)، أما بالنسبة للشعار الرسمي الأمريكي، فقد اقترح بنيامين فرانكلين وهو من أعضاء اللجنة الفنية التي شكلت عام ١٧٧٦ لهذا الهدف القومي، أن يكون شعار أمريكا مستوحى من ملاحم بني إسرائيل الدينية* ، ولم يتراجع توماس جيفرسون الرئيس الثالث بعد جورج واشنطن وجون آدامز، عن فكرة فرانكلين حول الشعار الرسمي، بل عدّله باتجاه فكرة توراتية تقول برسم بني إسرائيل وهم يخرجون من مصر بقيادة موسى، يتقدمهم الرب (يهوه) وهو على شكل عمودٍ من نار مضيء في الليل، وعمودٍ من سحاب ظليل في النهار، واستحسن جون آدامز، الذي أصبح مواطناً عادياً بعد جيفرسون، فكرة الشعار، وأودع تفسيره القائل: (إن عمود السحاب هو رمز لحرص الرب على حماية بني إسرائيل وعلو شأنهم، أما عمود النار فهو رمز لبني إسرائيل حاملي مشعل النور الذي قاد البشر إلى دروب الحضارة ـ المسيحية والتوراة ـ شريف مقار. لندن. ص١٦٣).

لقد انقسم المستعمرون الجدد، حول تفسير ظاهرة التواجد الهندي في القارة الجديدة، فمنهم من رد هذه الظاهرة، إلى تأويل يقول، بأن الهنود الحمر، هم كنعانيو العالم الجديد، وقالت جماعة منهم، بأن الهنود يمثّلون قبائل إسرائيل العشر، التي فُقدت في التاريخ القديم، ويشغف الأمريكيون حتى يومنا هذا،

* كان شعار فرانكلين الذي اقترحه، يمثل موسى وهو يغلق البحر الأحمر بعصاه، مع خلفية زرقاء تمثل أمواجاً عاتية وهي تغرق فرعون وجنوده، فيما يعبر الإسرائيليون إلى البر بسلام..

بفكرة الرجوع (أو التقمص)، وما أفكار الانتحارات الجماعية (الديفيدية مثلاً) إلا انعكاسات لهذا المفهوم، حيث الإيمان في العودة الثانية لا في الخلق الأول (إذ ما لم تولد في المسيح من جديد، فليس لك دين يوصلك إلى الجنة). وهو ما تقول به مدرسة الإنجيليين المتجددين (العودة الثانية).

وقبل أن يودع القرن الثامن عشر زمانه، كانت تنتشر في القارة الجديدة، تشكيلة من الطوائف والشخصيات والكنائس والأحزاب.. ما يمكن وصفه بالتيارات الأصولية في المجتمعات الأوروبية، فبالرغم من أن بيوريتان أمريكا، هم حالة انتقال عن بيوريتان إنكلترا، فإن التطور والتفاسير والاجتهادات خلقت جواً من التعددية المذهبية ذات الأصل البروتستانتي الواحد، فموزاييك الطوائف والجماعات كان في صلب العهد القديم لا خارجه، وقد استنّت الملل قواعدها الأساسية من التوراة، وكانت الأصولية الإنجيلية وارثة البيوريتانية، من أشدّ القوى الاجتماعية والثقافية حيوية، لا في أمريكا فحسب، بل وفي القارة الأوروبية أيضاً.. كانت فلسطين بالنسبة لمهاجري القارة الجديدة، في التوراة قبل أن تكون في الجغرافيا، فالطائفة المورمونية البروتستانتية التي تاهت في الصحراء الأمريكية، ثم لاقت نفسها في ولاية يوتاه، كانت لا تعرف شيئاً عن مصر أو فلسطين غير ما ذكرته التوراة، ومع ذلك فقد شبهت تيهها بتيه بني إسرائيل في صحراء سيناء، وأطلقت على نهر كولارادو اسم نهر باشان الوارد في التوراة.

يقول سيلينغ آلدر في كتابه أمريكا والأرض المقدسة، (الذي نشر عام ١٩٧٢ ص٦٢) أن المهاجرين تمتعوا (بميل مسيحي قوي الإيمان، بمجيء المسيح المنتظر، وكان على المسيح أن ينتظر عودة الدولة اليهودية، ولم يكن ذلك الرأي اجماعياً تماماً بين اللاهوتين المسيحيين، لكنه كان يشكل نسقاً متراصاً في تاريخ الفكر الأمريكي، حيث تضمّن إيماناً عميقاً بالعصر الألفي السعيد). وقد استهوى هذا التيار المحافظ في البروتستانتية الأمريكية أتباع كالفن من بروتستانتية الأراضي المنخفضة التي هاجرت إلى أمريكا، كما استهوى أتباع الملل البروتستانتية الأخرى، على نحو ملّة العصمة والمعمدانية واللوثرية وأتباع الكنيسة المشيخية الأمريكية.

كانوا جميعاً يؤمنون بالتفسير الحرفي لنبوءات التوراة، وبالإحياء القومي للشعب اليهودي، ومع دخول القرن التاسع عشر، دفعتهم توراتيّتهم إلى اعتبار اليهود مفتاح المستقبل. وعلى التوازي والتقابل، فقد اعتبرت إشارات إسرائيل النبوئية، بمثابة إسرائيل طبيعية تتمتع بحقها التاريخي والديني سواء بسواء، أما إسرائيل الروحية فهي الكنيسة المسيحية التي تنتظر عودة أبناء الله إليها، ووفق هذا التقابل بشقّيه، فإن إشارات إسرائيل النبوئية، تكمن فيما يتعلق بالأرض والشعب والوعد، وكلها أهداف دنيوية لا غبار عليها، أما إشارات إسرائيل الروحية، فهي مكسب المسيحية في السماء، فإذا ما كان على اليهود غير العائدين إلى كنف المسيحية، كما ظل يتوقع أنصار البروتستانتية، أن ينتظروا نحواً من قرن زمني أو أقل، فإن على المسيحيين كي يفوزوا بنصيبهم الأخروي، أن ينتظروا حتى نهاية الزمان.. وهكذا كان..

فطوائف الإنجيلية والعصمة والمعمدانية.. من ورثة البروتستانتية المعدلة في أمريكا، لم تعد تنتظر إرادة السماء، خاصة وأن النصر في حرب الاستقلال قد عُقد لواؤه لإرادة الإنسان قبل أي اعتبار آخر، فالشروع بعملٍ دنيوي (لمساعدة إرادة السماء)، كان يجلب نفسه إلى ساحة النشاط العملي لنصرة اليهود في العودة إلى فلسطين، فبعد عمود جيفرسون للشعار الرسمي الأمريكي وموافقة جون آدامز عليه، مع الاستغناء عن شعار النسر الأمريكي، كان مؤسس الكنيسة المورمونيّة، من أصحاب التيه في الصحراء الأمريكية، القس جوزيف سميث، يدعو إلى نظرية البعث اليهودي في فلسطين، ثم ارتفعت الدعوات الإنجيلية منذ العام ١٨١٤ لتوطين اليهود في فلسطين، ويقول بيترجروس في كتابه: إسرائيل في ذاكرة أمريكا (نيويورك ـ ١٩٨٣،ص ٩) أن القس الشهير جون ماكدونالد، راعي الكنيسة الإنجيلية في مدينة أولباني (دعا الأمريكيين إلى وجوب مناصرة اليهود في حُلمهم، العودة إلى أرض صهيون، وهو ما يجب أن يكون على أيدي أمريكا التي ستقود الأمم) وكان ذلك في العام ١٨١٤ أيضاً. كذلك فإن من روّاد المسيحية ـ الصهيونية في تاريخ أمريكا، القس والرحالة ليفي بارسوتر، الذي زار فلسطين عام ١٨١٩، وكان بمعيّته عشرات الزائرين من رجال الدين الذين عادوا إلى الولايات

المتحدة، لينشروا فيها لوحات من أساطير الشرق وأحلامه، ومن الطبيعي أن تكون الروايات سواء من بنات الخيال أو من الواقع، رجع صدىً لأطروحات البروتستانتية الأولى، وهذا هو القس جوزيف سميث راعي الكنيسة المورمونيّة. يعود من جديد، ليرسل تلميذه القس أورسون هايد إلى القدس عام ١٨٤٠ من أجل الاضطلاع بدور ريادي لتسهيل نبوءة بعث إسرائيل.

ويرد اسم القس وورد غريسون، أحد قادة البروتستانتية الأمريكية، في منتصف القرن التاسع عشر، حيث دعا إلى مساندة اليهود كشعب، ومناصرتهم في العودة إلى أرض الميعاد كنبوءة، وقد هاجر غريسون إلى فلسطين حيث عمل قنصلاً عاماً للولايات المتحدة في القدس عام ١٨٥٢، وانخرط في مشاريع التأسيس لوطن قومي يهودي، ويقول أمين عبد الله محمود في كتابه مشاريع الاستيطان اليهودي (سلسلة عالم المعرفة ص٤٤) إن القس غريسون قام بإنشاء مستوطنة زراعية يهودية لتدريب المهاجرين اليهود على أعمال الزراعة، وشؤون الإنتاج الزراعي، ثم ما عتم القس البروتستانتي أن تحوَّل إلى اليهودية، خاصةً وأن مؤسسة مالية يهودية مسيحية إنكليزية، كانت ترعى مشاريعه وتقوم بالسهر على تمويلها..

بعد غريسون أو معه، تأتي مدرسة القس الايرلندي جون نلسون داربي (١٨٠٠-١٨٨٢) الذي سبق له أن خدم في كنيسة إنكليزية، ثم هاجر إلى العالم الجديد، ناقلاً أفكاره البروتستانتية حيث شاركه القس سايروس سكوفيلد من ولاية ميتشغان، حماسته في جمع الأتباع. وقد مثّل كلٌّ من داربي وسكوفيلد (برنامج الله) في عليائه، على أنه البرنامج الذي يتصل بمجموعتين من البشر (حيث المجموعات الأخرى لا برامج لها عند الله)، أما المجموعة الأولى في مذهب داربي - سكوفيلد، التي يعمل لها الله، فهي إسرائيل مملكة الله على الأرض، وأما الثانية، فهي الكنيسة المسيحية ملكوت الله في السماء. لقد بدأ سكوفيلد منذ العام ١٨٧٥ يتحدث عن دور النبوءة الرئيسي في سلسلة من المؤتمرات جاب البلاد من أجلها، ثم رأى نظامه المعتقدي في حركة جوّابه لا تهدأ، فوضع مرجعه الإنجيلي الذي سيعتبر بدءاً من العام ١٩٠٩، إنجيل

سكوفيلد، حيث بيع منه الملايين من النسخ، وتقول غريس هالسل في (الفكر التوراتي والحرب النووية) نقلاً عن جوزيف كانفيلد في كتابه (سكوفيلد المدهش وكتابه الإنجيلي): - (إن العامة كانت قد فشلت في التمييز بين كلمات سكوفيلد، وكلمات الروح القُدس) أما جورجي كنعان في كتابه الأصولية المسيحية فيقول أن سكوفيلد مؤسس العقيدة الدهرية، كان يلقي مواعظه مبتدئاً بأن التاريخ الإنساني ينقسم إلى فترات متميزة هي الدهور، وفي هذه الدهور، كان الرب يتراءى فيها للإنسان بصور شتى، وعلى التعاقب، فإن سبعة دهور يجب أن تمر بالبشرية حتى تصل إلى غايتها في المملكة الألفية السعيدة، ومن هذه المراتب السبع، ستكون معركة هرمجدون الرهيبة التي تصل دماء الناس فيها إلى أعنّة الخيل، وفي تفسير عصري لاحق كما يقول الداعية الدهري القس هال ليندسي، فإن هرمجدون، ستكون إبادة عصرية، حين سيلعلع في سمائها هدير الصواريخ النووية بفعّالية التدمير الشامل، ويقول القس ديل كورلي (جورجي كنعان المصدر السابق) إن المعاهد التي تدرس سكوفيلد في الولايات المتحدة، إضافةً إلى معهد مودي في شيكاغو، وكلية فيلادلفيا الإنجيلية والمعهد الإنجيلي الضخم في لوس أنجلوس، بلغت زهاء مئتي معهد وكلها تُدرّس مبادئ سكوفيلد، وهناك ما يربو على ٧٥ ألف طالب يتخرجون من هذه المعاهد سنوياً، يدعون لعقيدة سكوفيلد بعد التبشير بها.

ومن مدينة فيلادلفيا، حيث نشطت الأصولية الإنجيلية والدهرية، قامت سيدّه الإحسان كلورندا مينر، وهي زوجة أحد أثرياء المدينة، بدعوة مجموعة من رجال الدين المسيحي لزيارة الأراضي المقدسة عام ١٨٥٠، وهناك قامت مع مجموعتها الدينية بشراء أراضٍ بالقرب من مدينة يافا (أقرب إلى تل أبيب الآن)، ووهبتها لخدمة الرب في إقامة مستوطنات يهودية فوقها، وبالفعل فإن سيدّة المستوطنات الصهيونية الأولى (بتاح تكفا) أو جبل الأمل، كانت قد بُنيت فوق هذه الأرض بأموال أمريكية، ثم أعيد توسيعها في العام ١٨٨٣ بعد الموجة الأولى من المهاجرين اليهود إلى فلسطين.

وبعد عقد من الزمان، سيحذو القس آدم من ولاية ماين حذو السيدة كلورندا، فيصطحب في رحلة واحدة، أكثر من ١٥٠٠ رجل دين مسيحي في زيارة مشابهة للأراضي المقدسة.

على أن دور الداعية الإنجيلي القس وليم بلاكستون من أصحاب مذهب العصمة الحرفية، كان الأهم، في تاريخ الدعوة لصهيون.

وقد وصف الكاتب الأمريكي بيرث لندبرت في كتابه (الله ـ قصة وليم بلاكستون) بأنه (كان الممول والرحالة العالمي والمؤلف والمبشر الإنجيلي الذي كان ينفق الملايين على دعاواه التبشيرية.. لقد كان بحق بطل صهيون البارز) ولا شك أن كتاب بلاكستون (المسيح آت)، كان من أهم الكتب الدينية انتشاراً في طول الولايات المتحدة وعرضها، وبعد أن تُرجم إلى ٤٨ لغة عالمية، كان رواجه يتعدى ملايين النسخ، ويحفل الكتاب بآيات بروتستانتية على الطريقة الأمريكية (الإيف إنجيلية)، ولعل السبب في رواجه الواسع، يعود إلى تضمينه عقائديات إيمانية بالعصر الألفي السعيد، وفي هذا الصدد يعلق الكاتب الأمريكي وليم سميث في كتابه (إشارات الأزمنة ـ ص٥ عام ١٩٦٦) بأن كتاب بلاكستون (المسيح آت) كان (من أهم الكتب المتصلة بعودة المسيح، وأن عدد الزعماء المسيحيين الذين أثار الكتاب انتباههم لعودة المسيح كان يفوق في تأثيره، أي كتاب ديني آخر، نشر طوال عشرات السنين) وتعد الكاتبة ريجينا شريف العديد من الزعماء الذين تأثروا بكتاب بلاكستون حيث من بينهم مالفل فولر كبير القضاة الأمريكيين، ورجال من البرلمان، يؤازرهم رجال دين من الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية، وقد أيّد رأسماليون ورجال أعمال، مواعظ وكتابات بلاكستون منهم: بيربونت مورغان، وجون روكفلر، ووليم روكلفر (اللذان عرضا شراء فلسطين كلها) كما كان من بينهم راسل سيغ، وتشارلز بانر، وغيرهم ممن دعموا حق اليهود في فلسطين.. وعام ١٨٧٨ مع صدور كتاب (المسيح آت) أسس بلاكستون، منظمة دينية جعل اسمها (البعثة العبرية من أجل إسرائيل) وقد عاشت هذه المنظمة حتى يومنا هذا، بعد أن اكتسبت اسماً جديداً

هو (الزمالة اليسوعية الأمريكية) حيث تعتبر هذه الزمالة، قلب جهاز الضغط (اللوبي الصهيوني) في الولايات المتحدة الأمريكية، وأهم ما يذكر في تاريخ هذه الشخصية اللامعة، سعيه لجمع تواقيع أكبر عدد ممكن، من نجوم المجتمع الأمريكي الفكري والسياسي والمالي والقضائي والصحافي، وعبر منظمته العبرية ـ تمكّن من الحصول على ٤١٣ توقيعاً كلّها تطالب بتأييد إقامة وطن قومي يهودي في فلسطين، ورفع بلاكستون عريضته بتواقيعها إلى الرئيس الأمريكي الثالث والعشرين بنجامين هاريسون الذي كان محامياً ورعاً من الحزب الجمهوري*، وقد أطلّع الرئيس هاريسون على فحوى العريضة يوم الخامس من آذار عام ١٨٩١، ووعد أن يأخذها بعين الاعتبار، ثم ما عتمت الصحافة في طول البلاد وعرضها، أن أطلقت العنان، لإبراز الجوانب الإنسانية والمذهبية التي حملتها عريضة بلاكستون: (ماذا فعلنا من أجل يهود روسيا، ولماذا لا نعيد إليهم فلسطين من جديد؟ ولماذا لا تدعوا الولايات المتحدة لعقد مؤتمر دولي للنظر في المطالب العادلة للإسرائيليين، وتوفير كل الوسائل لإزالة معاناتهم بإعادتهم إلى فلسطين...) وقد اعتبرت عريضة بلاكستون الذي كان قد زار فلسطين مع ابنته، الأساس التمهيدي لاستقبال وعد بلفور وتبنّيه والموافقة عليه..

لقد كان بلاكستون بحق، بلفور السياسة الأمريكية وهرتزل الحركة الصهيونية قبل أن تنشأ بسنوات، وما زالت نسخة العهد القديم التي أهداها بلاكستون إلى هرتزل، محفوظة في القاعة الملحقة بقبر هرتزل في القدس حتى يومنا هذا.

(١)

رؤساء أمريكا ـ حبلٌ من مسد

مع إطلاق وعد بلفور في العام ١٩١٧، بعيد الحرب العالمية الأولى، كان الرئيس وودرو ولسون الديمقراطي المولود لقسٍ مشيخي في مدينة ستونتون

---

* كان جد الرئيس بنجامين هاريسون، وهو وليم هاريسون الرئيس التاسع للولايات المتحدة، وقد اكتسب مجده من خلال مذبحة ضدّ الهنود الحمر هي مذبحة تيبيكانو في أراضي إنديانا، وكان وليم الجَدْ، من رعيل المستعمرين الأوائل في فيرجينيا.

بولاية فرجينيا، يسارع لمباركة الوعد دون الرجوع إلى الخارجية أو الكونغرس*. ففي الثلاثين من شهر آب عام ١٩١٨ بعث الرئيس ولسون برسالة إلى زعيم الصهيونية الأمريكية ستيفن وايز، يصادق فيها بشكل رسمي على وعد بلفور، وقد اعترض وزير خارجيته روبرت لانسنغ على التأييد الرئاسي السريع منطلقاً من اعتبارات سياسية واقعية، وقد كتب لانسنغ من وزارة الخارجية كتاباً رسمياً موجهاً إلى الرئيس نفسه يقول فيه: ـ «عزيزي الرئيس

هناك ضغط كبير لإصدار بيان حول الموقف الذي ستقفه حكومتنا تجاه فلسطين، وهذا متولد من العنصر الصهيوني لليهود بالطبع.

أرى أن علينا أن نتّمهل في إصدار إعلان لأسباب ثلاثة: أولها، أننا لسنا في حالة حرب مع تركيا، ولذا يتوجب علينا أن نتحاشى كل ما من شأنه، أن نظهر أننا نؤيد أخذ أراضي الغير بالقوة، وثانيها، أن اليهود أنفسهم ليسوا راغبين جميعاً في إعادة جنسهم كشعب مستقل، ومن غير الحكمة تفضيل فريق يهودي على آخر، وثالثها أن الفرق المسيحية والمسيحيين سيغضبون حتماً، إذا ما وضعت الأراضي المقدسة تحت السيطرة المطلقة للجنس الذي يُعزى إليه موت المسيح. ولأسباب عملية، لا أرى ضرورة الذهاب إلى أبعد من السبب الأول فهو كافٍ لتجنب إعلان سياسي حول وضع فلسطين النهائي».

ولم يأبه الرئيس ولسون لمذكرة وزير خارجيّته، بل واصل تأكيده لزعماء الصهيونية، أنَّ باستطاعتهم الاعتماد على تأييده الشخصي، وحين راح زعماء الصهيونية يفيضون بالأسئلة حول مدى دعم ولسون لقضيتهم في مؤتمر باريس للسلام أجاب: (لم أفكر يوماً بأن من الضروري أن أقدم لكم تأكيدات جديدة على التزامي بوعد بلفور، ولم أجد حتى الآن من يعارض الهدف الذي يجسّده، إنني لا أرى ما يدعو للشعور بالإحباط، بل أرى كل مبرر للأمل بالحصول على ضمانات مرضية ـ ليونارد شتاين. إيضاحات حول بلفور. لندن. ١٩٦١).

---

* قال ولسون أثناء تأييده وعد بلفور أمام أصحابه: إنني ربيت ببيت قسسي، وينبغي أن أكون قادراً على المساعدة لإعادة الأرض المقدسة لأهلها ـ ستيفن وايز سنوات التحدي ص٧.

وقد كان بلفور على حق، عندما علّق ساخراً: (يصعب علي أن أفهم، كيف يوفق الرئيس الأمريكي ولسون بين تأييده للحركة الصهيونية ومبدئه في حق تقرير المصير ـ اغتيال التاريخ ـ حمدان حمدان. دار بيسان ص٦٥).

كان وودرو ولسون الذي نال درجة الدكتوراه في الحقوق من جامعة جونز هوبكنز، قد تمّرس بمعرفة التاريخ السياسي لأوروبا، وفي جوّ مُثقلٍ برداء القضاء الكهنوتي، أصبح رئيساً لجامعة برنستون، ثم حاكماً لولاية نيوجرسي، ومن هناك أطلق مشروعه القائل: (انطلاقاً من حقيقة أن التجارة، ليس لها حدود قومية، وانطلاقاً من أن الصناعي يريد امتلاك العالم من أجل الأسواق، فإن على راية بلاده أن تتبعه حيثما ذهب.. وعلى الأبواب الأخرى المغلقة للأمم، أن تنخلع.. وعلى وزراء الولايات المتحدة أن يحموا امتيازات أصحاب رؤوس الأموال، حتى لو أدى ذلك إلى انتهاك سيادة الأمم المتمردة الأخرى، يجب خلق المستعمرات أو الحصول عليها، بحيث لا نهمل أو نتغاضى حتى عن أصغر زاوية في هذا العالم.. ويتابع غارودي (الولايات المتحدة طليعة الانحطاط ص٤٣): (إن هذه العبارات الصادقة بسبب صراحتها، تحمل دلالة حقيقية عن المثل الأعلى لولسون، سواء في الحرية أو حق تقرير المصير، فالنظام والسيادة الذي نادى ولسون بتدريب الشعوب عليهما، باحترامهما والخضوع لهما، كانا من الناحية العملية، بل والقانونية يعنيان حق أمريكا في (خلع) أبواب غيرها من الأمم، أمام تجارتها ورساميلها وأسواقها وعامليها).

وقد طبق ولسون، عندما أصبح رئيساً للولايات المتحدة، عقيدته حول حرية تقرير المصير، بغزو المكسيك مقتفياً أثر سلفه الرئيس الأمريكي وليم تافت (١٩١٢) الذي قال في خطبة شهيرة: (إن من واجبي أن أحمي شعبنا وممتلكاته في المكسيك إلى أن تفهم الحكومة المكسيكية، أن هناك ربّاً في إسرائيل، من الواجب تقديم الطاعة له) هذا وقد كان هذا التعبير (ربّ إسرائيل) قد ظهر في التاريخ السياسي الأمريكي منذ تأسيس مستعمرة بلايموت ذات الجماعات البروتستانتية عام ١٦٢٠، وقد تابع ولسون سياسته في تقرير المصير، فأمر باحتلال جزيرة اسبانيولا، التي تشكل تاهيتي وجمهورية الدومينكان، وقام جنوده

بأعمال القتل والسلب وأسّسوا لحالةٍ شبيهة بالرق، ودمروا النظام السياسي، ووضعوا هذه البلاد في أيدي المستثمرين الأمريكيين.

لقد تفوّه لانسينغ وزير خارجية ولسون عن مبدأ مونرو الذي يطبقه الرئيس ولسون، بعبارات مشابهة لما تفوَّه به عند تأييد الرئيس المبكر لوعد بلفور فقال: (في الحقيقة فإن دفاع الولايات المتحدة عن مبدأ مونرو، إنما تدافع عن مصالحها الخاصة، أما إنصاف الأمم الأخرى فإنها مسألة إضافية، وبقدر ما يبدو هذا المضمون مبنيّاً على الأنانية، فإن واضع هذا المبدأ، ليس لديه دافعاً أسمى كي يقدمه) وعندما سمع ولسون بتعريض وزير خارجيته، رد قائلاً: (قد يكون ذلك سوء تصرف سياسي، لكن حيثيات تصريح لانسنغ لا يمكن أن تُهاجم ـ غارودي المصدر السابق) ومع ولسون وبلفور، يكون داوود الضئيل قد أعد عدّته ليقذف بمقلاعه جوليات العربي المفترس، وما بين وعد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧) وتأييد ولسون له في ٣١ آب ١٩١٨ (زهاء تسعة أشهر)، كان ولسون يعد الشهور بل والأيام لهزيمة تركيا في الحرب الأولى، حيث موقع الولايات المتحدة من هذه الحرب، لم يسمح لها بإغضاب تركيا لحساب بلفور وتأييد حق اليهود في فلسطين، وفي العام ١٩٢٢ أصدر مجلس النواب الأمريكي قراراً، بتحريض من السيناتور الجمهوري هنري كابوت لودج، رئيس لجنة العلاقات الخارجية، وبتأثير من الرئيس، يؤيد فيه (منح بني إسرائيل الفُرصة، التي أُنكرت عليهم طويلاً لإعادة تأسيس حياة يهودية وثقافة مستمرة في الأرض اليهودية القديمة ـ صهيون في أمريكا. هنري فينجولد. نيويورك ١٩٧٣) وفي أيلول من العام ١٩٢٢، كانت الإدارة الأمريكية تصادق بصورة نهائية على وعد بلفور، وتدخل شريكاً مضارباً لضمان المصالح الحيوية الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

وفي ملاحظة جديرة، يقدمها د. يوسف الحسن في كتابه البعد الديني في السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربي ـ الإسرائيلي (مركز دراسات الوحدة العربية ـ ص٤٧) يقول فيها: (إن الدوافع الصهيونية وراء نشاطات هنري كابوت

لودج، كانت قوية، وتعود جذورها إلى المعتقدات الدينية وقناعاته ومشاعره المعادية للعرب والمسلمين، ففي خطاب له في مدينة بوسطن في ٢٦ أيار من عام ١٩٢٢ يؤكد لودج بالنيابة عن كل يهود العالم، بأن الشعب اليهودي يرغب في أن يكون له وطن قومي في البلاد التي كانت مهداً له، والتي عاش فيها أجداده آلاف السنوات.. إنني لا أحتمل فكرة وقوع القدس وفلسطين في أيدي المُحمدّيين). وفي جلسة التصويت في الكونغرس (على إصدار قرار بتأييد وعد بلفور) لم يكن هناك ثمة فوارق بين الأعضاء الجمهوريين والديمقراطيين، كما لم يكن ثمة أصوات يهودية غير مسيحية، فقد استشهد الجميع من أعضاء الكونغرس بالعهد القديم واقتبسوا نبوءات توراتية ـ سجلات الكونغرس ـ ٣٠ حزيران ١٩٢٢).

وفي ٢١ من شهر أيلول ١٩٢٢، وافق المجلسان (النواب والشيوخ) معاً على وعد بلفور، وتم الختم على فلسطين يهودية بوعد إنكليزي وقرار أمريكي.

كان تأثير وعد بلفور وقرار التقسيم، خارج البيت الأبيض في أمريكا، أقوى منه في داخله، فالمشاعر الصهيونية في الأوساط الشعبية كانت شاملة على جميع المستويات الدينية والعلمية والنقابية والاجتماعية بشكل عام، أما الإعلام فكان منحازاً بصورة بادية للعيان، والاستثناء الوحيد في هذا المجال، كان في الصحافة اليهودية نفسها لا غيرها، فقد هاجمت بعض الصحف التابعة لمؤسسات يهودية، ظاهرة الصهيونية، حين وضعتها في مصاف الحركات القومية الشوفينيّة، خاصة وأن هذه الصحافة تتبعُ خطاً يقول (نحن أمريكيون ديننا اليهودية، وإن الأمريكية تعني لدينا انتماء إلى أمة، وأما اليهودية فتعني لدينا ديناً وملّة، نحن لسنا أمة يهودية بحسب الصهيونية، ولا ننتظر العودة إلى فلسطين، ولا نعمل على إحياء أي تشريع يخص إقامة الدولة اليهودية في هذا العالم ـ اغتيال التاريخ ص١٠٨).

ويبدو أن هذا الخط الديني لجماعات من اليهود مثل حراس العهد (ناتوري كارتا)، ظل يؤمن بإرادة السماء في التهيئة لقيام إسرائيل، لا بإرادة القوة البشرية على الأرض، وحيث أن إرادة السماء تأخرت في وعدها قليلاً، فإن هذا الخط

اليهودي المعادي للصهيونية، بات من أضعف الخطوط، فالحقيقة التاريخية الماثلة، أن الأكثرية الكاثرة من الأمريكيين ذوي الأصول الأنجلو ـ ساكسونية، كانت مع وعد بلفور وتقسيم فلسطين، أما الحقيقة الثانية، فهي أن الكونغرس الأمريكي بمجلسيه، كان يستشهد أثناء تصويته على قرار التقسيم، بآيات من العهد القديم، مع ترك الإنجيل جانباً، وقد ألهبت نبوءات التوراة مشاعر أعضاء الكونغرس حيث ينقل روبرت فانك في كتابه (صراع الكونغرس الأمريكي والصهيونية نيويورك ١٩١٩) الفقرة المعبرة التالية: ـ

(كما خلص النبي موسى العبرانيّين من العبودية، فإن الحلفاء اليوم، يخلصون يهوذا من أيدي الأتراك الكريهين، وهي النهاية اللائقة للحرب هذه، إن يهوذا يقوم كشعب مستقل الآن، وهو يحظى بالقوة الواجبة ليحكم نفسه ويتقدم ويكمل مثالياته في الحياة.. إن حكومة الولايات المتحدة يجب أن تمارس سلطاتها الملائمة لرؤية هذه الدولة اليهودية تقام، ويبزغ عنها تعاليم ومبادئ يهوذا القديمة ـ من بيان ممثل أنديانا في الكونغرس وليم كوكس).

لم يكن حق تقرير المصير الذي أطلقه الرئيس ولسون متناقضاً مع المنظور التوراتي الذي يحمله، ففيما هو يحارب في أراضي المكسيك وتاهيتي والدومينكان، فإنه يعطي حق تقرير المصير للشعوب غير التركية، في الإمبراطورية الإسلامية الغاربة، وبما أن شعوب أوروبا الشرقية والبلقان سبق لها أن تحررت من نير الاستعمار العثماني، فإنه لم يبق في أيام ولسون سوى اليهود (وكذلك الأرمن) حيث ينطبق عليهما حرية تقرير المصير، أما الشعب الذي سيحل محله شعب يهودي من أطراف المعمورة، فلا مصير له إلا في الخروج والتشرد!..

إن قرار ولسون، التوفيق بين مبادئه الأربعة عشر الشهيرة، والبرنامج الصهيوني في فلسطين، لم يكن نتيجة لضغوط يهودية أو صهيونية عليه، فقد كانت صهيونيته ناجمة عن قناعة ذاتية، وهي ما يجمع عليها رواد الصهيونية في مستهل القرن العشرين، فقراراته وخطبه وبياناته ظلت تعطي مثالاً لمن اقتفوا أثره في البيت الأبيض، حيث دخلت المشاعر والأخلاقيات المسيحية ـ التوراتية، مضمار

صنع السياسات، فيما تنّحت جميع الاعتبارات الإنسانية والموضوعية والتاريخية الحقيقية.. عن مركزها عند قوة أصبحت من أعظم قوى العالم.

لقد أظهر الرؤساء الجمهوريون الثلاثة، وارن هاردنج (حيث امتدت رئاسته من ١٩٢١-١٩٢٣) وكالفن كولدج (١٩٢٣-١٩٢٩) وهربرت هوفر (١٩٢٩-١٦٣٣)، الذين أعقبوا الرئيس ولسون على التوالي، التزاماً بطقوس البيت الأبيض المتوارثة، ومنذ ذلك الحين، أخذ كل رئيس لا يخرج عن خط التعاطف مع الحركة الصهيونية، وحسب جذوره البيئية، ومعتقداته اللاهوتية، كان يتقدم خطوة أو خطوتين للتقرب من (شعب الله) وحقه في العودة إلى أرض الآباء والأجداد. وهذا هو الرئيس هاردنج خلف ولسون، يدلي بدلوه هو الآخر: ـ

(إن اليهود سيعادون يوماً إلى وطنهم القومي التاريخي، حيث سيبدأون مرحلة جديدة، بل مرحلة أعظم من كل مساهماتهم في تقدم الإنسانية ـ يومياتي في الجمعية ـ الوطنية الفرنسية ـ دافيد ميلر ص٢٦٣).

وفي أيار من العام ١٩٢٢، عبر هاردنج عن سعادته وتهليله للجهود التي يبذلها صندوق إنشاء فلسطين، لصالح إعادة فلسطين وطناً قومياً لليهود (المصدر السابق) وفي الفترة الرئاسية لهاردنج، كان تصديق مجلسي النواب والشيوخ على تأييد وعد بلفور، أما الرئيس كالفن كولدج، فقد خطب في حشد جماهيري صهيوني يوم ١٣ حزيران من العام ١٩٢٤، وكان مما قاله: (لقد كررت أكثر من مرة، اهتمامي بهذه الحركة العظيمة.. ولكنني مع ذلك سعيد بأن تتاح لي هذه الفرصة لأعبر ثانية عن تعاطفي مع الحنين العميق الذي يجد تعبيراً له في الوطن القومي اليهودي في فلسطين ـ المصدر السابق).

وفي ٢١ من أيلول عام ١٩٢٨ وقف الرئيس الأمريكي هربرت هوفر، ليحيي (بإعجاب حقيقي ذلك التقدم الثابت لإعادة تأهيل فلسطين التي كانت قاحلة لعدة قرون، إنها تتجدد بشباب وحيوية وتضحية الرواد اليهود الذين يكدحون بروح السلام والعدل.. إن كثيراً من اليهود الأمريكيين، قدموا خدمات رائعة لهذه القضية التي تستحق من الجميع العطف والتشجيع ـ المصدر السابق). وتنتهي

ريجينا شريف التي ساقت هذه الشواهد في كتابها (الصهيونية غير اليهودية) إلى الاستنتاج بأن انحياز البيت الأبيض للصهيونية في مساره الطويل، لم يكن يخضع لسياسات الأحزاب الأمريكية، بل هو (فوق سياسة الأحزاب ص١٩٤)، فالرئيس ولسون على سبيل المثال كان من الحزب الديمقراطي والرئيس وليم تافت قبله كان من الحزب الجمهوري، أما الرؤساء الثلاثة الذين أعقبوا الرئيس ولسون على التوالي، فإنهم كانوا جميعاً من الحزب الجمهوري، ثم سيأتي فرانكلين روزفلت وهاري ترومان وهما من الحزب الديمقراطي.. وهكذا فقد كان الجامع على الاختلاف، هو الاتفاق على الموقف من الحركة الصهيونية. ثم إسرائيل فيما بعد.

(٢)

جمعيات وقساوسة ومؤسسات ورجالات:

لقد برزت في النصف الأول من القرن العشرين، من أجل العمل على تجسيد الإيمان بالصهيونية وتحويله إلى نشاط فعلي، عدة منظمات وجمعيات ومؤسسات وفيدراليات ولجان.. وكلها تقحم فلسطين في أسمائها المسيحية ــ اليهودية، وقد شارك في عضوية هذه المنظمات والهيئات المنبثقة عنها، قيادات دينية بروتستانتية ومسؤولين حكوميين وصحفيين ورجال أعمال، فهناك مثلاً الفيدرالية الأمريكية المؤيدة لفلسطين، التي أسسها القس تشارلز راسل في العام ١٩٣٠، وقد دعتْ هذه الفيدرالية إلى تشجيع التعاون الأوثق، بين اليهود وغير اليهود، للدفاع عن قضية الوطن القومي اليهودي، ثم أصدرت بياناً ما عتم أن تحول إلى نشرة دائمة باسمها، وفي العام ١٩٣٦ عقدت الفيدرالية مؤتمراً في نيويورك ضمّ زهاء ٢٠٠ شخصية حكومية ودينية واقتصادية لمناداة (المجتمعات المُتحضّرة بوجوب مساعدة اللاجئين اليهود الفارّين من ألمانيا وأوروبا الشرقية، وتأمين دخولهم إلى ملاذهم الطبيعي فلسطين). وقد أطلقت على المؤتمر اسم (المؤتمر المسيحي الأمريكي). ومع هذه الفيدرالية وإلى جانبها، نشأت منظمة (اللجنة الفلسطينية ـ الأمريكية) التي أسسها السيناتور روبرت واجنر، وقد ضمت ٢٦٠ عضواً من مجلسي النواب والشيوخ معاً، كما ضمّت عدداً من الإنجيليّين

وأساتذة الجامعات والأدباء، ورجال الأعمال والصحفيين المشهورين، وكان هدفها كما يقول الكاتب ل.ل. كينين في كتابه (خط إسرائيل الدفاعي ص١٠) يقوم على (تنظيم مساعي غير اليهود بفعالية كبيرة للتعاون مع هذه القضية المثالية العظيمة، وتطوير وعي لدى الرأي العام الأمريكي من غير اليهود، بحيث يدعم النشاطات الصهيونية، وأهدافها وإنجازاتها في فلسطين) وفي السادس من شهر آذار من العام ١٩٤٤، عقدت اللجنة مؤتمراً في واشنطن، تحدث فيه مندوب رسمي عن الحكومة الأمريكية وقال (إن الحكومة الأمريكية إذ تعلن رفضها للكتاب الأبيض البريطاني، الذي يضع العراقيل في وجه الهجرة اليهودية إلى فلسطين، لتُعبّر عن بالغ سرورها بفتح فلسطين للهجرة ثانية، إن حكومتنا تمد يد التعاون إلى الوطن القومي اليهودي في فلسطين ـ المصدر السابق). وعلى الرغم من أن الرئيس فرانكلين روزفلت (شغل الرئاسة من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥) لم يكن من الرؤساء الذين تهفو قلوبهم لنداءات صهيون*، إلا أنه مع ذلك، أذعن لخطّ المسايرة الذي يطالبه به حزبه الديمقراطي، حين رد على منافسه الرئاسي الجمهوري توماس ديوي، بخصوص فتح الهجرة اليهودية: (إننا مع ذلك نحبذ فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية غير المقيدة، كما نؤيد أية سياسة تسعى إلى تحقيق كومونولث يهودي ديمقراطي وحر هناك، فإذا ما أعيد انتخابي فسأساعد على تحقيق هذا الهدف ـ من أوراق السيناتور روبرت واغنر وهي موجودة في مكتبة جامعة جورج تاون. واشنطن ـ ريجينا شريف ص ٢٣٦).

لقد كان الرئيس فرانكلين روزفلت موضع ارتياب بالنسبة للصهيونية اليهودية وغير اليهودية على حد سواء، فقد أُعتبر وعده الانتخابي بمساعدة الهجرة اليهودية، من الوعود الانتخابية الجوفاء ليس أكثر، وساعد مؤتمر إيفيان عام ١٩٣٨، الذي انعقد تحت شعار بحث أوضاع اللاجئين اليهود الفارين من ألمانيا النازية، ساعد على الغضب، من سياسة روزفلت، حين وافق مع الوفد البريطاني

---

* ينقل ناحوم غولدمان زعيم الوكالة اليهودية عن الرئيس روزفلت أنه كان ينظر إلى القضية اليهودية في فلسطين كمشروع نبيل ومثالي، إلا أنه أخذ ينظر للقضية في أيام لاحقة من رئاسته، على أنها أمر مزعج وأناني ـ أرشيف الصهيونية ـ القدس.

على مناقشة موضوع اللاجئين في العالم بشكل عام. وعدم تخصيص المؤتمر لمناقشة اللاجئين من اليهود حصراً، وقد نظرت (الصهيونية - اليهودية) وحلفاؤها من (الصهيونية ـــ المسيحية)، بأن موقف الرئيس روزفلت لا يتماشى وروح الفكرة التوراتية على مستقبل فلسطين، فالفكرة التي ظلت قائمة، تستند إلى افتراض فلسطين، على أنها البلد الوحيد الذي يستقبل اليهود، لا أن يكون مآلهم في التوطين بين أوروبا والولايات المتحدة، كما سعت بريطانيا لتحقيقه مع صدور كتابها الأبيض.. أما رأي روزفلت فقد ألقاه بعد المؤتمر حين قال: (ليس من النُبْل أن يطلب من العرب وحدهم، تقديم تسهيلات للهجرة اليهودية، في الوقت، الذي تبقي فيه الولايات المتحدة على قوانينها المتشددة وقوانين الكوتا الانتقائية - الصهيونية والولايات المتحدة - ريتشارد ستيفن ـــ ١٩٧٠ ص٤٥) ثم تراجع روزفلت أخيراً أمام ضغط الكونغرس والمنظمات الصهيونية غير اليهودية، كذلك أمام اللوبي اليهودي نفسه، وبتراجعه عن مناقشة الباب العالمي المفتوح للهجرة اليهودية، كان النصر ينعقد لصالح الصهيونية الداعية إلى شعار: فلسطين هي الملجأ الوحيد لليهود. عام ١٩٤٢ تأسس ما يسمى (المجلس المسيحي لفلسطين)، وكان هذا المجلس يرى في وعد بلفور ومصادقة الحكومة الأمريكية عليه، قواعد لنشاطه، وقد ضم هذا المجلس رجال الدين من البروتستانت، إضافة إلى رجال الأعمال، وشخصيات سياسية واجتماعية بارزة أخرى، وشكّل القساوسة من الكنيسة البروتستانتية عموده الفقري، وكاعتراضٍ على شعار تقييد الهجرة إلى فلسطين وتحويل هجرة اليهود إلى أنحاء مختلفة من العالم، نادى المجلس بتركيز الاهتمام نحو فلسطين كملاذٍ وحيد لليهود، وكأرضٍ موعودة من السماء، ومعتمدة من وعد بلفور على الأرض. لقد ضمّت منظمتا (اللجنة الفلسطينية - الأمريكية) و (المجلس المسيحي لفلسطين) إضافة إلى (الفيدرالية الأمريكية المؤيدة لفلسطين) مئات من الشخصيات الأمريكية العاملة في الحقول السياسية والاقتصادية والدينية والإعلامية وكان من أبرزهم على سبيل المثال لا الحصر، زعيم الأقلية في الكونغرس تشارلز ماك ماري، ومحرر صحيفة كريستشن هيرالد هـ . تيليش، والزعيم النقابي ج.ميري، وكذلك رئيس غرفة التجارة الأمريكية و. جونستون.. وعام ١٩٤٦ اتحدت منظمتا (اللجنة والمجلس) تحت اسم جديد هو: (لجنة فلسطين المسيحية ـــ الأمريكية)، حيث

يمكن القول، بأن الاتجاهات الدينية ذات الطابع الغلاّب في المجلس المسيحي، اندمجت بالطابع السياسي العام في اللجنة الفلسطينية الأمريكية، وهكذا ولدت نواة مؤثرة لاتحاد سياسي ديني سيكون له الدور الأوفى في التقاط قرار تقسيم فلسطين، وإسناد إدارة هاري ترومان للموافقة عليه، مع حث الدول الدائرة في الفلك الأمريكي للانضمام إلى الموقف الأمريكي المستعجل من قرار التقسيم. وإضافة إلى النشاطات الاجتماعية والمواقف السياسية، التي قامت بها لجنة فلسطين المسيحية ـ الأمريكية، فقد غذّت موازنتها المالية حيث ارتفعت من رقم خمسين ألف دولار في العام ١٩٤٧ إلى رقم مئة وخمسين ألف دولار في العام ١٩٤٨، وتذكر تقارير رسمية، كما يقول مصطفى عبد العزيز في كتابه، الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة (منظمة التحرير. مركز الأبحاث ١٩٦٨ ص١٤٠)، أن الوكالة اليهودية في القدس قدَّمت خمسة ملايين دولار لمجلس الطوارئ الصهيوني ـ الأمريكي، وأن هذا المجلس أنفقها على الصحف الأمريكية، كذلك على خلق قيادات دينية في المراكز الحساسة مع إقامة ندوات لرجال الدين المسيحي عن إسرائيل، ونشر مقالات في الصحف البروتستانتية والكاثوليكية، والعمل المُضاد لكل اتجاه عدائي للصهيونية وإسرائيل في هذه الصحف. وترد قصة من التاريخ الأمريكي القريب، عندما سأل السيناتور وليم فولبرايث رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، السيد ايزادور هاملين مدير الفرع الأمريكي للوكالة اليهودية قائلاً: ـ

أيها المدير أريد أن أطلعك على نسخة من مذكرة لا تاريخ لها بعنوان (مجلس صهيوني ـ أمريكي ـ معلومات وعلاقات سياسية) وفيها الخطوط العريضة لسياستكم المالية والدعائية.. فهل لديكم نسخة منها في ملفاتكم؟!

ويجيب المدير: نعم لدينا منها نسخة في ملفاتنا.

ويرد فولبرايت: حسناً، أرجو من الزملاء الاستماع إلى مقتطفات منها..

وكانت مذكرة فولبرايت تقع في ثلاثمئة صفحة وكلها تورد أهم النشاطات الدعائية والمالية والثقافية للوبي اليهودي في أمريكا، ثم يختصر فولبرايت بقوله (يشرف الإسرائيليون على سياسات الكونغرس ومجلس الشيوخ والبيت الأبيض،

إنهم يملكون دائماً ٧٠ بالمئة من أصوات مجلس الشيوخ، كما تشهد عمليات التصويت المتكررة على المساعدات العسكرية والاقتصادية الأمريكية لإسرائيل).

وعندما علّق ايزادور هاملين على مذكرة فولبرايت بأنها اتهام خطير. أجاب فولبرايت (نعم إنه خطير وخطير جداً، فحين تشير سجلات هذا المجلس، بأن ٧٠ بالمئة من حلفائكم هنا، يتخذون قراراتهم بوحي من اللوبي اليهودي، لا بوحي آرائهم الأمريكية التي تمليها مبادئ الحرية والعدالة، فإن في ذلك الخطر كله على مستقبل أعظم دولة في العالم ـ اغتيال التاريخ. مصدر سبق ذكره ص٢٠٦). ثم فقد فولبرايت مقعده في الانتخابات اللاحقة.

كان شهر نيسان من العام ١٩٤٥ موعد الرئيس هاري ترومان للرئاسة الأمريكية إثر وفاة روزفلت، وتجمُع التواريخ الصهيونية على أن ترومان كان يُجسّد الصهيونية غير اليهودية على المستوى السياسي، فقد ترك لأصوات الناخبين اليهود في نيويورك وكاليفورنيا وبنسلفانيا، أن تُملي عليه سياسته تجاه فلسطين، ويبدو أن ترومان من خلال سيرته الذاتية، كابن فلاح من ولاية ميسوري، كان قد أخفق في حياته العملية، إلى أن قادته الأقدار، إلى أحضان سياسي بروتستانتي ذي نفوذ، حيث ساعد ترومان في الوصول إلى منصب قاضٍ في أرياف ميسوري، وسرعان ما تحقق أمله، بمساعدة النافذين في الولاية، في الوصول إلى عضوية مجلس الشيوخ الأمريكي، ومن هنا وقع عليه الاختيار ليكون نائباً للرئيس روزفلت، وقد حفظ ترومان المودة لمجلس يدين ثلثاه بالولاء للصهيونية المسيحية غير اليهودية، ويضيف معاصرو ترومان، بأن دوافع المصلحة الفردية والمنفعة السياسية، زودّته بطابع (الانتهازي) الذي يتصيّد الفرص في سبيل إدامة بقائه في البيت الأبيض، ورغم أن مستشار ترومان السابق في البيت الأبيض، السيد كلارك كليفورد، يدعي بأن تأييد ترومان للسياسة الصهيونية في فلسطين، كان نابعاً من اعتبارات إنسانية، نتيجة اضطهاد اليهود في ألمانيا النازية، إلا أن كليفورد نفسه لم يكن محايداً، حيث تقول ريجينا شريف (مصدر سبق ذكره ص٢٣٧) بأن كليفورد كان متحمساً للصهيونية، وأن العديد من قرارات ترومان الصهيونية، كانت تُعزى في خلفياتها إلى تأثيرات كليفورد على الرئيس ترومان.

لم يعمل ترومان على التخلّي عن سياسات سلفه روزفلت فحسب، بل وذهب إلى النقيض منها، حين أعاد دمج مشكلة اللاجئين اليهود بأرض فلسطين، وقد وجّه ترومان طلباً رسمياً إلى الحكومة البريطانية في ٣١ آب من العام ١٩٤٧، للسماح بدخول مئة ألف مهاجر يهودي جديد إلى فلسطين، ولخصّ سياسته بأنه يتبنّى سياسة سلمية*، لتحقيق أغلبية يهودية في فلسطين ثم إقامة دولة يهودية مستقّلة بشكل نهائي، ولا يسعه المرء أن يفهم، كيف يمكن لسياسات الهجرة الرامية لتحقيق أغلبية يهودية في فلسطين، وإقامة دولة يهودية، أن تستقيم في ذهن ترومان مع سياسة سلمية، علماً بأن روزفلت كان قد حذّر، إثر عودته من مؤتمر يالطا (إذا ما استمر تدفق الهجرة إلى فلسطين على هذا النحو المفتوح، فإن هناك سفك دماء سيجري بين العرب واليهود، ولابد لنا أن نعثر على المعادلة التي تحول دون سفك مزيد من الدماء).

إن أهم ما يُسجل لهاري ترومان في سياق تأييده للحركة الصهيونية، موقفه من مشروع قرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة، إذ لم يكتف ترومان بإعطاء توجيهاته للوفد الأمريكي في الأمم المتحدة، بالتصويت إلى جانب التقسيم يوم ٢٩ تشرين الثاني من عام ١٩٤٧، بل طلب من المسؤولين الأمريكيين أن يمارسوا شتى ألوان الضغط والإغراء، من أجل إقناع الحكومات الأخرى بالتصويت إلى جانب التقسيم، ويقول كبير الدبلوماسية سمنر ويلز (بأمر مباشر من البيت الأبيض فرض المسؤولون الأمريكيون، كل نوع من أنواع الضغوط، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، خاصة مع تلك الدول المترددة أو المعارضة للتقسيم، ولم يتوان البيت الأبيض عن استخدام الوسطاء والوكلاء في سبيل ضمان الأكثرية اللازمة للتصويت ـ بوسطن ـ دار ميلفين هاوتون ١٩٤٨). كما كتب وكيل الخارجية الأمريكية روبرت لافل عن دور البيت الأبيض ما يلي (إنني لم أتعرّض في حياتي قط، لمثل ما تعرضت له من ضغوط قبيل مشروع التقسيم

* في السادس من آب عام ١٩٤٥، أمر ترومان بإلقاء أول قنبلة ذرية فوق هيروشيما، وفي التاسع منه كرر أوامره بإلقاء قنبلة أخرى فوق ناغازاكي، ورغم معرفته الاستخباراتية بأن اليابان على وشك إعلان الاستسلام قبل وقوع الكارثة النووية، إلا أنه مع ذلك، مضى في سياسته (السلامية) دون تردد.

خاصة تلك الأيام التي سبقته من صباح الخميس إلى مساء يوم السبت) وأضاف: (لقد حملتني الخارجية عن طريق السادة هربرت سوب، وروبرت ناثان، ما جعلني نادماً طوال حياتي ـ المصدر السابق).

أما وزير الدفاع فورستال فقال عن يوم التقسيم (إن الطرق التي استخدمت في الضغط بغية إرغام باقي الدول في هيئة الأمم على التصويت كانت أقرب ما تكون إلى الفضيحة) ويعبر عضو الكونغرس لورانس سميث عن أيام ما قبل التصويت فيقول: (لقد أُجّلَ التصويت مرتين كي يمارس الضغط على مندوبي ثلاث دول صغيرة هي هايتي وليبريا والفيليبين التي صوتت فتمّ تأمين ثلث الأصوات.. لقد كانت الممارسة من قبل مسؤولينا، تصرفاً ذميماً يستوجب العقاب ـ روجيه غارودي ـ أرض الرسالات. ص٢٦٢).

ونصل إلى ترومان نفسه حيث يعترف (أنا آسف أيها السادة، لكن علي أن أُلبي رغبة مئات الألوف من الأشخاص الذين ينتظرون نجاح الصهيونية.. وكذلك هذه الألوف المؤلفة من الناخبين الأمريكيين الذين ليسوا من العرب ـ المصدر السابق). ويشهد رئيس مجلس الوزراء البريطاني في حينه السيد أتلي، فيقول في مذكراته (إن سياسة الولايات المتحدة في فلسطين، كانت توجهها أصوات الناخبين اليهود ومَنْ في حكمهم، كذلك المعونات المالية التي تقدمها شركات يهودية ـ أمريكية عالمية).

ويدحض عضو الكونغرس سول بلوم، فكرة أن ترومان كان منحازاً إلى الصهيونية بدوافع انتخابية، بل ويعتبر ذلك مجرد وهم حقيقي، ومع استطلاع خاص، فقد قرر بلوم، أن نسبة الناخبين المتأثرين بالقضية الفلسطينية يهودياً، لم تكن تتجاوز ٢٠ بالمئة من مجموع الناخبين الأمريكيين، وأن عدداً هاماً من الناخبين اليهود سيؤيدون الحزب الديمقراطي (أي حزب ترومان) لا على أساس القضية الفلسطينية، بل على أساس الليبرالية الاقتصادية والسياسية بصورة عامة. لقد كان ترومان منسجماً مع تعاليم بيئته الدينية، ومشاعر التيار من حوله، فخلفيّته المعمدانية وتربيّته الأسروية، كانتا من أهم العوامل التي زرعت في نفسه

حب صهيون وعودة اليهود إليها، ولا شك أن التجمّع المعمداني الجنوبي في أمريكا، كان من أشد التجمعات الدينية حماسة لتأييد المطالب الدينية، والصبوات التاريخية لليهود في أرض فلسطين، ومع نشأة المعمدانية الأصولية والمحافظة، فقد كان أتباعها من طائفة العصمة الحرفية تهفو إلى رؤية النبوءات التوراتية وقد تحققت في خلق إسرائيل، وتشير السيرة الذاتية لهاري ترومان، بأنه صاحب هوىً خاص في حُبّه لسماع الآيات التوراتية المعزوفة، وقد أحب أكثر ما أحب سماع الفقرة التوراتية الواردة في (المزمار ١٣٧) التي تبدأ، (لقد جلسنا على أنهار بابل، وأخذنا نبكي حين تذكرنا صهيون)، وكان ترومان من أشد المتأثرين حين يسمع قصة إنزال الوصايا العشر فوق سيناء، وتقول ريجينا شريف، أنه عندما قدم إيدي جاكبسون، ترومان إلى عدد من الحضور في معهد لاهوتي يهودي، واصفاً إياه، بأنه (الرجل الذي ساعد على خلق إسرائيل) ردَّ عليه ترومان، ماذا تعني بقولك (ساعد على خلق إسرائيل؟!) إنني قورش وهل ينسى أحد أن قورش هو الذي أعاد اليهود من منفاهم في بابل إلى القدس؟!.

وحسب السجلات البابلية المكتشفة إلى يومنا هذا. فإنه لا يوجد ما يشير إلى واقعة السبي اليهودي من قريب أو بعيد، ويقول بعض الدارسين أن واقعة السبي لا توجد في آثار بابل لاحتمالين: إما لأنها مفقودة حتى الآن، أو لأن واقعة السبي أقل من أن تذكر في معارك بابل الكبرى، ويهود بابل هم الذين صنعوا كل هذه المعجزات فيما بعد، وهناك احتمال ثالث، أن الواقعة كلها من بنات خيال اليهود في القرن السادس قبل الميلاد، وهو ما سيعذرنا عليه الراحل ترومان نفسه..

لقد اعترف ترومان بإسرائيل واقعياً في يوم ١٩٤٨/٥/١٤ وحتى قبل أن تطلب منه حكومة إسرائيل الموقتة برئاسة دافيد بن غوريون، ذلك رسمياً، ولم يكد الإعلان الرسمي أن يصدر بقيام إسرائيل حتى بادرت الولايات المتحدة إلى تقديم منحه مالية قدرها مئة مليون دولار (وهي ما تعادل موازنة مصر وبلاد الشام والعراق آنذاك)، كذلك وافقت الإدارة الأمريكية على منح قرض ـ يمكن تحويله إلى منحة ـ بقيمة ٣٥ مليون دولار، كذلك مارست الإدارة الأمريكية شتّى

ضغوطها على حكومة بون، لدفع التعويضات الألمانية عن ضحايا وأملاك اليهود إيّان المرحلة النازّية *.

وبعد قيام إسرائيل باعتراف الدول الكبرى والتابعة في فلكها، انشق العالم بين غرب وشرق، يريد كل منهما إثبات صحة نبوءته عن التاريخ، ففيما نظر الغرب ـ الولايات المتحدة وبريطانيا ـ بصورة خاصة، إلى الحدث على أنه إشارة تؤكد معتقداتها اللاهوتية، بقرب الخلاص وعودة المسيح!.. كان الشرق الشيوعي بزعامة ستالين، ينظر إلى الحدث، كمقدمة لتأجيج الصراعات الطبقية بين أغنياء اليهود وفقرائهم، وفي جميع الأحوال، فقد اشتركت النبوءات الدينية والسياسية، الغربية والشرقية، في إنزال الكارثة الكبرى، بعرب فلسطين قبل أي اعتبار آخر، وأصبح الربط بين أرض فلسطين وبين اليهود حدثاً تلقائياً لا يحتاج إلى نقاش، كما عملت إسرائيل ، على تقوية الشعور بفكرة الانبعاث اليهودي القومي، وانتشرت ظاهرة النبوءات في الصحافة الأمريكية العامة، وفي مجالات الأدب والرواية، فقد كتب الناقد الأمريكي فيليب راف في كتابه الأدب والحاسة السادسة (أن الأدب الأمريكي في الأربعينات والخمسينات كان أدباً محافظاً ولاهوتياً من أساسه) ومع إعلان دولة إسرائيل، كتب توماس مان ساخراً (في بلد مثل الولايات المتحدة يجب التمييز بين الطقس والمناخ، فالمناخ هو ما تقدمه الطبيعة للإنسان، أما الطقس فيقدّمه قادة البلاد دون سواهم)، ومع استعار الموجة الصهيونية ـ الأمريكية، كتب مان متنبئاً (إن عَكَر العقول والنفعية الفظة والرجعية السياسية والكراهية العنصرية وكل علاقات الاضطهاد الروحي قادمة على الطريق ـ روائيون أمريكيون ـ موريس مندلسون). ويتابع المصدر قوله (كان على الشعب الأمريكي أن يقول لا للحروب غير الشريفة التي تشنها مصالح صانعي السلاح والاتحادات الاحتكارية) أما الولادة الفكرية للزعيم الزنجي الموهوب مالكولم إيكس، فكانت رجع صدى للملحمة الرائعة التي تجلت في نشاط مارتن لوثر كنغ، الذي دفع حياته ثمناً للقضية الإنسانية. واستطراداً مع عالم الأدب والثقافة،

* ليس هنا مجال البحث التفصيلي للمساعدات المالية والعسكرية الأمريكية لإسرائيل منذ الأيام الأولى لقيامها، ففي المحصلة فإن الدعمين المالي والعسكري المقدّمين من مؤسسات يهودية ـ أمريكية، إضافة إلى قرارات الإدارة والكونغرس، ظلاً بمثابة رافعة في وجود وحياة إسرائيل حتى اليوم.

فإن المؤسسات الثقافية الأمريكية ـ اليهودية، لم تتوقف عن الولادة والنمو، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن المؤسسة الثقافية الأمريكية التي كان من أهم برامجها (تعميق الثقافة اليهودية في المجتمع الأمريكي) كانت قد تأسست مع بداية الحرب العالمية الثانية في العام ١٩٣٩، وقد انتشرت في عدد من المدن الأمريكية على شكل مراكز فنية وثقافية وعلمية. وهناك اللجنة الاقتصادية الأمريكية من أجل فلسطين والتي من أهم أهدافها (تشجيع الاستثمارات الأمريكية الخاصة في فلسطين) وقد أُدخل نشاط هذه اللجنة في مجال اختصاص الوكالة اليهودية منذ العام ١٩٥١. وفي العام ١٩٥٤ فقد أُنشئت الجمعية الإسرائيلية ـ الأمريكية وهدفها (تمتين عرى الصداقة بين الدولتين الأمريكية والإسرائيلية).

ومنذ أربعينيات هذا القرن وحتى أواسط ستيناته، فقد تأسست مؤسسات أمريكية ـ صهيونية ضمّت منظمات ومجالس ولجان مثل منظمة النداء اليهودي الموحد، واتحاد الشباب الصهيوني الأمريكي، ومجلس الشباب المشترك، ولجنة التضامن اليهودي ـ الأمريكي، والكونغرس الأمريكي ـ اليهودي..* وتكفي الإشارة، إلى أن منظمة النداء اليهودي الموحد، تمكنت وحدها من جمع أربعة مليارات دولار في غضون ثلاثة عقود اعتباراً من بدء تأسيسها (١٩٤٠)، وقد حُوّلت هذه الأموال إلى إسرائيل عن طريق الوكالة اليهودية.. هذا وتظهر بصمات المؤسسين من رجال اللاهوت أمثال الكاهن تشارلز راسل، والدكتور هنري أتكسون والبروفسور رانهولد نيبور، وبول تيليش ودانيال بولنغ ووليم أولبرايت.. على الصفحات الأولى من صكوك تأسيس هذه المنظمات، فيما لا تغيب عنها بصمات رجال كبار سواء في الإدارة أو الكونغرس، إلى جانب إسهامات، أساتذة الجامعات ورجال الأعمال وزعماء مدنيين آخرين، ثم رجال الصحافة الموجودين في قلب الحدث دائماً.

ويمكن أن نصل الآن إلى ما يُسمى بالنفوذ الصهيوني في الولايات المتحدة، فمن الأقوال الشائعة التي تتردد كثيراً، في أدبياتنا السياسية ـ نحن العرب ـ

---

* وهناك المنظمة الصهيونية الأمريكية التي تضم زهاء مئة ألف عضو، كما أن جمعية بيناي :ربث اليهودية ـ الأمريكية تضمّ زهاء ثلاثمائة ألف عضو، وكلها تقدم التبرعات الأهلية لحكومة إسرائيل.

الحديث عن أسطورة النفوذ الصهيوني المهيمن على جميع مقدرات الحياة السياسية والاقتصادية الأمريكية، هذا فضلاً عن الإعلام ونشاط الفن السابع.

إن هذه الأسطورة تقوم في الواقع على سلسلة من الافتراضات الخاطئة. فهي تفترض أولاً أن يهود أمريكا البالغ عددهم حوالي ٦ ملايين نسمة، أو ما يعادل ٢,٧٪ من السكان: هم خاضعون كلياً لسيطرة الحركة الصهيونية، وتفترض ثانياً أنهم يشكلون كتلة اقتصادية وانتخابية موحدة ومتميزة، ويتحركون وفقاً لتوجيهات الحركة الصهيونية، لفرض إرادتهم على صانعي القرار السياسي في الولايات المتحدة.

وهذان الإفتراضان، بدون جدل طويل، هما منافيان لطبائع الأشياء. ولا يحتاج المرء إلى الحجج والبراهين ليثبت خطل الفكرة القائلة أن بإمكان أقلية حجمها ٢,٧٪ من السكان، حتى لو صدقنا خرافة ثقلها المادي والانتخابي، أن توجه سياسة أقوى وأغنى دولة في العالم وزعيمة العالم الإمبريالي، والتي تتحكم بمصائر حكومات ودول وشعوب كثيرة!.

ودحض مثل هذه الأسطورة نجده حتى في كتابات عدد من الكتاب الصهاينة فها هو الكاتب الصهيوني اليعازر ليفينه يكشف في كتاب «الدولة والشتات» حقيقة وضع الطائفة اليهودية الأمريكية وموقفها من الحركة الصهيونية فيقول:

«الحقيقة أنه لم توجد في الولايات المتحدة في أي وقت من الأوقات حركة صهيونية بالمعنى المقبول لهذه الكلمة. لقد كان للمنظمات الصهيونية في أمريكا بصورة دائمة موقف مساند لإسرائيل فقط، ولا شيء غير ذلك.. لقد اختارت اليهودية الأمريكية سياسة تتسم بالمراضاة في تخليها عن كل من الصهيونية ومعاداة الصهيونية*.

ويكشف الحاخام اليعازر بيرنشتاين رئيس حركة مزراحي في الولايات المتحدة بصورة أوضح عن حجم النفوذ الصهيوني الحقيقي فيقول:

«إن تأثير الصهيونية قد انخفض، إذ لم يصوت في الانتخابات للمؤتمر التاسع والعشرين في الولايات المتحدة سوى أقل من ٢٠٠ ألف يهودي من أصل حوالي

---

* اليعازر ليفنه: الدولة والشتات ١٩٥٣ ـ نقلاً عن نشرة الأرض عدد ٢٢ تاريخ ١٩٧٨/٨/٧ ص٣.

٦ ملايين.. إن القول إن الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة تضم حوالي مليون عضو هو ادعاء بعيد عن الحقيقة. والتضامن مع إسرائيل بين يهود أمريكا هو تضامن سطحي، ولا أعرف ما الذي سيحدث فعلاً لو كانت هناك خلافات بين إسرائيل والولايات المتحدة.*

وعشية انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع والعشرين في شباط عام ١٩٧٨، كتبت صحيفة «هتشوفيه» تصف وضع يهود أمريكا، فذكرت أن ٤٠٪ من يهود أمريكا «تضرروا» من الزواج المختلط، بينما كانت نسبة الزواج المختلط قبل عشر سنوات هي ١٠٪ فقط.**

وكتب يوسف شبيط في صحيفة يديعوت احرونوت يقول: «هناك ثلاثة ملايين يهودي على الأقل منفصلون تماماً عن المؤسسة اليهودية في الولايات المتحدة وهؤلاء في غالبيتهم من أبناء الشباب ونصف الطلاب اليهود في الجامعات يتزوجون زواجاً مختلطاً.***

فإذا كانت الحركة الصهيونية لا تسيطر إلا على ٢٠٠ ألف يهودي موزعين على مختلف مؤسسات هذه الحركة، وإذا كان يهود أمريكا مندمجين في المجتمع الأمريكي ومعظمهم منفصل عن المؤسسة اليهودية تماماً، فإننا نجد أن الفرصة التي تصور اليهود ككتلة انتخابية موحدة هي فرضية لا تستند إلى أي أساس واقعي. فاليهود في أمريكا، كما دللت على الدوام نتائج الانتخابات الأمريكية يوزعون أصواتهم وفقاً لمصالحهم الخاصة وانتماءاتهم السياسية، ولم يحدث في تاريخ الانتخابات الرئاسية الأمريكية مثلاً، أن انحازت أصوات اليهود ككل مع مرشح واحد ضد مرشح آخر. ومن الثابت أن علاقات أمريكا بإسرائيل لا تتأثر بمواقف اليهود الانتخابية. فالرؤساء الجمهوريون، بصورة عامة لا يحصلون عادة على غالبية أصوات يهود أمريكا، والعكس صحيح بالنسبة

---

* هتشوفيه ١٩٧٨/٢/١٧.

** المرجع السابق.

*** يديعوت احرونوت ١٩٧٨/٤/٤.

للمرشحين الديمقراطيين. ومع ذلك لم نر أن الرؤساء الجمهوريين كانوا أقل تأييداً لإسرائيل من الديمقراطيين. يكفي أن نذكر أن ما حصلت عليه إسرائيل من مساعدات خلال إدارتي نيكسون وفورد، وكلاهما جمهوري، ما بين عامي ١٩٦٩–١٩٧٦ يفوق كل ما حصلت عليه من مساعدات أمريكية منذ قيامها وحتى عام ١٩٦٩. أي ما يربو على عشرين عاماً منذ تأسيسها.

كذلك أظهرت الانتخابات الرئاسية الأمريكية أن أصوات اليهود أو غالبيتهم لم تكن في وقت من الأوقات عاملاً حاسماً، رغم كل ما يقال حول التأثير البالغ لأصوات اليهود الانتخابية. فالكثير من الرؤساء الأمريكيين نجحوا في الانتخابات رغم أنهم لم يحصلوا إلا على نسبة ضئيلة من أصوات الناخبين اليهود.

وتكشف بعض الكتابات الصهيونية عن أن أسطورة النفوذ الصهيوني في أمريكا ما هي إلا وهم وخرافة روجتها الدعاية الصهيونية. ويعترف الكاتب الإسرائيلي ناحوم بارنيع بذلك فيقول: «بمساعدة الصحافة نشأت خرافة القوة اليهودية السرية القوية التي تفرض إرادتها على الولايات المتحدة».*

ويتضح من متابعة تاريخ الحركة الصهيونية في أمريكا ومواقف يهود أمريكا أن هذه المواقف كانت تتكيف إلى حد بعيد مع الموقف الرسمي الأمريكي، وأن الأوساط الأمريكية الحاكمة هي التي كانت تتحكم في صنع التأييد اليهودي للصهيونية، وليس العكس. ففي عام ١٩١٤ لم يكن عدد اليهود الصهاينة يزيد في الولايات المتحدة عن /١٢/ ألفاً من أصل ثلاثة ملايين يهودي. وعندما أعلن الرئيس ويلسون عن تأييده لوعد بلفور، وتولي أحد كبار موظفي إدارته اليهودي لويس برانديس، رئاسة الحركة الصهيونية الأمريكية، ارتفع عدد الصهاينة في أمريكا عام ١٩١٩ إلى ١٥٠ ألفاً، أي إلى عشرة أضعاف ما كانوا عليه قبل الحرب**.

---

* دافار ١٩٧٥/٩/٥.

** يهود أمريكا والفكرة الصهيونية. ناعومي كوهين - نيويورك ١٩٧٦.

ثمة واقعة أخرى ذات دلالة بعيدة، وهي انعقاد مؤتمر بالتيمور الصهيوني المشهور عام ١٩٤٢، والذي طالب فيه صهاينة أمريكا فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية وإلغاء «الكتاب الأبيض» الذي أصدرته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩. فهذا المؤتمر لم ينعقد، ولم يطرح هذه المطالب إلا بعد أن دخلت أمريكا الحرب وأخذ ساستها يعلنون عدم تأييدهم للكتاب الأبيض، ويؤكدون على فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة.

وقد سبق لموشيه شاريت، رئيس وزراء إسرائيل السابق، أن أوضح هذه النقطة بالذات بصورة لا تدع مجالاً للبس، حيث قال: «لا يمكن أن يساعد يهود الولايات المتحدة إسرائيل في حالة قيام نزاع بينها وبين الولايات المتحدة. ومعنى هذا أن مشاركة يهود الولايات المتحدة الفعالة في بقاء دولتنا متوقفة على اندماج السياسة الخارجية لإسرائيل في السياسة العالمية لواشنطن* .

إن انتشار هذا الوهم الشائع حول النفوذ الصهيوني في أمريكا مرده إلى حدٍ بعيد، إلى حجم وطبيعة العلاقة القائمة بين الولايات المتحدة وإسرائيل التي جعلت الكثيرين يتصورون، خطأ، أنها وليدة ونتيجة النفوذ الصهيوني القوي داخل الولايات المتحدة. إن ارتباط أمريكا بإسرائيل، وكما قال رابين، يفوق ويتجاوز وزن الجالية اليهودية الأمريكية ونفوذها.** ولقد ساهم أيضاً في نشر هذا الوهم عن عمد، وكما أشرنا من قبل أجهزة الإعلام الصهيونية والأمريكية لأن ذلك يخدم أغراض كلتا الجهتين، فهو من جهة يظهر إسرائيل بمظهر القوة المسيطرة عبر الطائفة اليهودية الأمريكية، على أعظم قوة في العالم مما يعطيها مظهر القوة التي لا تقهر، وهو من جهة ثانية يظهر الحكومة الأمريكية، أمام الأنظمة العربية الموالية لها، بمظهر الإدارة المغلوبة على أمرها، والتي تود أن تقف مواقف عادلة من الصراع العربي ـ الصهيوني ولكنها لا تملك شيئاً إزاء الإخطبوط الصهيوني المهيمن عليها.

---

* عل همشار ١٩٥١/٥/٨.

** هآرتس ١٩٧٢/٩/١٤.

ولا نريد هنا أن نتعرض إلى موضوع العلاقة الأمريكية ـ الإسرائيلية، فمثل هذا الموضوع موجود في الملفات الرسمية، ولكننا نريد أن نقول إن علاقة إسرائيل بأمريكا هي علاقة التابع بالمتبوع، وهي مدينة للولايات المتحدة بكل شيء. والوضع الخاص الذي تمثله إسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة لا علاقة له من قريب أو من بعيد، بالطائفة اليهودية الأمريكية. إن مركز القوة الخاص لإسرائيل هو بما تمثله للغرب، ولحماية مصالح الغرب في المنطقة العربية، بما تمثله ككلب حراسة للمصالح الإمبريالية، وليست مقولة «كلب حراسة» هذه مقولة ابتدعناها نحن، بل هي مقولة يعترف بها الإسرائيليون أنفسهم. فلقد جاءت على لسان رئيس تحرير هآرتس عام ١٩٥٣ حين قال: «لقد أعطيت إسرائيل دوراً لا يختلف عن دور كلب الحراسة. ولا داعي للخوف من أن تمارس إسرائيل سياسة عدوانية تجاه الدول العربية إذا كانت هذه السياسة تتعارض مع مصلحة الولايات المتحدة وبريطانيا، ولكن إذا شاء الغرب لسبب أو لآخر أن يغمض عينيه فبالإمكان الاعتماد على إسرائيل لتنزل عقاباً قاسياً بتلك الدولة المجاورة التي تتجاوز الحدود المناسبة في قلة أدبها تجاه الغرب».

وتكررت هذه المقولة في الصحيفة ذاتها عام ١٩٧٤ على لسان المعلّق الإسرائيلي المعروف يوئيل ماركوس إذ قال: «بسبب أزمة الطاقة وارتباط الدولة الغربية بشكل لم يسبق له مثيل بدول النفط، يحتاج الغرب إلى إسرائيل مثل الحاجة إلى كلب حراسة ذي أسنان حادة مربوطة بالسلاسل الأمريكية الطويلة جداً، بحيث يؤذن له بغرس أسنانه إذا تحدوه أكثر من اللازم* .

تبقى هناك نقطة أخرى تحتاج إلى إجلاء بالنسبة للطائفة اليهودية الأمريكية، وهي حقيقة نفوذها الاقتصادي. فهذه النقطة بالذات تروى عنها أحاديث وروايات أقرب إلى الأساطير. وإلى هذا النفوذ المزعوم بالذات يُعزى نفوذ الطائفة اليهودية وهيمنتها التي ليس لها حد على مقدرات الحياة الأمريكية. ولقد بولغ في سرد وترويج هذه الأسطورة، وتدبيج المعلومات حولها حتى بات المرء

* هآرتس: ١٩٧٤/٦/١٠.

يشعر بالذهول والدهشة، ويتساءل عن سر هذه الطائفة، هذه الأقلية التي لا تتجاوز ٢,٧٪ من سكان الولايات المتحدة التي استطاعت أن تهيمن على المقدرات الاقتصادية والمالية والمصرفية لأغنى وأقوى دولة في العالم! بيد أن هذه الأسطورة لا تلبث أن تذوب كجبل من الملح حينما تتعرض لوهج الحقيقة وحين نتناولها بالبحث والتدقيق.

بادئ ذي بدء، وكما قلنا بالنسبة لنفوذ الطائفة السياسي أو الانتخابي، من الخطأ أن نعتبر اليهود الأمريكيين كتلة اقتصادية. إنهم، كأي طائفة موزعين على مختلف المهن والحرف والوظائف والاختصاصات. وهم موجودون في الريف وفي المدينة، موجودون في المعامل الصغيرة والمؤسسات التجارية والمعاهد والمؤسسات العلمية والإدارية. الخ. صحيح أن هناك يهوداً أغنياء، ولهم نفوذ وتأثير اقتصادي ، ولكنهم ليسوا أكثر من سن في دولاب الاقتصاد الرأسمالي الأمريكي العملاق.

تقول الكاتبة اليهودية نعومي كوهين: «إن اليهود الأمريكيين لم يتمتعوا بقوة سياسية خاصة، وقد بولغ كثيراً في قوتهم الاقتصادية. صحيح أنهم أصبحوا مجموعة ميسورة، ولكن ذلك عائد إلى تمركزهم في المدن وانتمائهم إلى فئة أصحاب الياقات البيضاء.. ولقد لعبوا أدواراً هامة في عالم الصناعة الخفيفة والمنتجات والخدمات الاستهلاكية، ولكنهم كانوا غائبين تماماً عن تطور الصناعة الثقيلة، وحتى فترة قريبة لم يكونوا يشاهدون في المناصب الإدارية.

ويشير الكاتب الصهيوني هوارد مورلي في كتابه «مجرى التاريخ اليهودي المعاصر»، إلى أن يهود أمريكا «لم يكونوا ذوي علاقات قوية بالصناعات الرأسمالية الأساسية مثل الفحم والفولاذ والنفط والسيارات والسفن ووسائل الاتصالات وهي الصناعات التي انتجت ثروة أمريكا المذهلة. ولم يكن معظم اليهود موجودين بين الأغنياء جداً أو بين الفقراء جداً، بل في وسط الطبقة الوسطى.

بالمقابل علينا ألا نستهين بالنفوذ أو النشاط الصهيوني في الولايات المتحدة. فالحركة الصهيونية قد أخذت تعمل بنشاط داخل الولايات المتحدة منذ أوائل

هذا القرن. وهي حركة قوية ومنظمة، وقد أصبح لديها اليوم عشرات التنظيمات والمؤسسات القوية التي تهيمن من خلالها على قطاع كبير من يهود أمريكا، وتحاول عن طريقها أن تستقطب أكبر عدد ممكن من اليهود.

ونصل الآن إلى السؤال الأساس، إذ ما الذي يعنيه اسحاق رابين بقوله: (إن ارتباط أمريكا بإسرائيل يفوق بل يتجاوز وزن الحالية الأمريكية ونفوذها ـ هآرتس ١٩٧٢/١/١٤). ولا شك أن رابين كان يعني تلك العلاقة التاريخية الممتدة، بين التوراتية غير الصهيونية بل وغير اليهودية، التي جمعت روحياً بين المسيحية المتهودة، والصهيونية اليهودية، فالجذور الأولى في العلاقة تعود إلى الكنائس البروتستانتية لا إلى قوة اليهود الخارقة، ومن المعروف أن الإحصاءات الرسمية الأمريكية، كما يقول: الكتاب السنوي للكنائس الأمريكية والكندية (من منشورات أدنجدون بريس ١٩٨٤) أعطت رقماً للطوائف البروتستانتية في الولايات المتحدة وحدها، يصل إلى سبعة وسبعين مليوناً من رعايا الكنيسة البروتستانتية الأمريكية، ويتوزع هؤلاء بدورهم على تفرعات شتى يصل عددها إلى مئتي طائفة بروتستانتية مثل الإنجيليين والمنهجيين والمشيخيين والأسقفيين والمعمدانيين وأهل العصمة والحرفية.. الخ. ويمكن تقسيم الكنائس البروتستانتية من الناحية اللاهوتية والاجتماعية، إلى خطّين أساسين، الأول ويسمى الخط العام (مين لاين) وهو يضمّ كنائس النخبة والطبقة العليا في المجتمع الأمريكي، والتي تختصر بكلمة (واسب) أي البروتستانت من الأنجلو ـ ساكسون البيض، وهذه الكنائس تعتبر من أهم (الكنائس تأثيراً في صياغة السياسة الأمريكية ـ سياسة الكنيسة الأمريكية والشرق الأوسط. باشير نيجيم ص٦٢) وإضافة إلى ذلك فهي تضم نصف تعداد الأمريكيين من طائفة البروتستانت، كما يتمركز في صُلبها التيار الصهيوني المسيحي حيث من أبرز كنائسه اللوثرية والمعمدانية والمنهجية، أما الخط البروتستانتي الثاني بعد (الواسب)، فيسمى بالخط الليبرالي أو خط القاعدة، ويضم هذا الخط نصف التعداد الآخر من الأمريكيين البروتستانتيين (زهاء ٣٨ مليوناً)، ويتبع له نشرات ومجلات غاية في الأهمية، من حيث ربط البروتستانتية بالتوراتية، ويمكن القول بأن (المجلس الوطني لكنائس المسيح في

الولايات المتحدة الأمريكية) هو الغطـاء الرئيسي للخط الليبرالي البروتستانتي، وتعتبر المجلة الشهرية المسماة بالقرن المسيحي، من أهم المجلات البروتستانتية التي هاجمت (علمانية) الحركة الصهيونية منذ مطلع هذا القرن، أما المجلة الثانية (وهي مجلة شهرية اسمها المسيحية والأزمات) فقد لعب محررها رانهولد نيبور، دوراً بارزاً في التعاطف المسيحي - اليهودي، وظل كذلك حتى وفاته في العام ١٩٧١، ويبدو أن هذه المجلة، فتحت صفحاتها مؤخراً للناقد اليهودي إسرائيل شاحاك صاحب الكتاب الشهير (الديانة اليهودية وتاريخ اليهود..وطأة ٣٠٠٠عام)*.

وتظهر البروتستانتية الليبرالية، تميّزها عن بروتستانتية (الواسب) وذلك من خلال بناء صلات إيجابية مع الشرق العربي، خاصة في سورية ولبنان وفلسطين، فقد أسس البروتستانت الليبراليون الكلية الإنجيلية السورية عام ١٨٦٦، ثم ما لبث أن غيّرت اسمها إلى الجامعة الأمريكية في بيروت عام ١٩٢٠، وفي تاريخ متقارب، أسّس النشطاء من تيار الليبرالية، الجامعة الأمريكية في القاهرة، ويبدو أن التفسير المختلف للتوراة، كان قد وضع تيار البروتستانتية الليبرالية، في موقف معارض لمقولة أن فلسطين هي أرض اليهود التاريخية، وبالعكس، فقد قال أصحاب هذا التيار، (بأن اليهود لم يستحوذوا على أرض فلسطين في تاريخهم أبداً - توماس ويلي - أمريكا المسيحية. واشنطن. ١٩٨٣.ص١١).

ويقول الدكتور يوسف الحسن (البعد الديني في السياسة الأمريكية ص٥٣): بأن البروتستانتية الليبرالية تمثل تياراً دينياً يؤمن بالحرية العقلية، ويركز على الروح والمضمون في التفسيرات اللاهوتية ويرفض التفسيرات الحرفية للتوراة. ومع ذلك فإن (الواسب) W.A.S.P. بقي في مكانه، كصاحب حظوة أولى في السياسات الأمريكية المتبعة حيال إسرائيل، ومع تأرجح الطبقة الوسطى كعادتها في الليبرالية البروتستانتية كما هي في صراع الطبقات الاجتماعي، فقد انحاز جناحٌ ليبرالي،

* البروفسور إسرائيل شاحاك أستاذ مادة الكيمياء العضوية في الجامعة العبرية بالقدس، وهو يمتلك ذهناً بحّاثاً، وفاحصاً شرساً لا يلين. إنه يقول الحقيقة دون التواء أو إغواء. وطريقته في الصدم حتى بالنسبة لتفسير التوراة وفضائح التلمود، جعلته عرضة لغضب المتشدّدين من اليهود.

داخل المجلس الوطني للكنائس، لتأييد حق إسرائيل في فلسطين عام ١٩٧٣، وفي العام ١٩٧٩، أقرت اللجنة التنفيذية للمجلس الوطني للكنائس، الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وأن للفلسطينيين دوراً في مفاوضات التسوية بين العرب وإسرائيل.

ويذكر تاريخ الكنائس الأمريكية، بأن جناحاً يسارياً كان قد خرج من قلب الليبرالية ـ البروتستانتية، وقد بدأ يتبلور مع المؤتمر اللاهوتي ـ الأكاديمي الذي انعقد في مدينة شيكاغو بحضور ستين عضواً من كبار رجال اللاهوت والعلوم الأخرى، عام ١٩٧٣، وقد تبدّت إشارة مؤتمر شيكاغو الإيجابية، في إعلانه المطالبة بحقوق عادلة لكلا الشعبين اليهودي والفلسطيني على حد سواء، كما يذكر الدكتور يوسف الحسن (مصدر سبق ذكره) عدداً من منشورات الجناح اليساري الليبرالي البروتستانتي على النحو التالي:

- مجلة (**المقيمون مؤقتاً**) وهي شهرية تصدر في العاصمة واشنطن، وقد أسسها الدكتور ديوي بيغل أستاذ العهد القديم في معهد ويزلي اللاهوتي في واشنطن.
- مجلة (**الوجه الآخر**) وهي شهرية أيضاً أسسها القس ألفريد ألكسندر عام ١٩٦٥ في فيلادلفيا، وقد نشرت مقالات عديدة، تؤيد الحقوق الوطنية الفلسطينية مع ضمان الأمن لليهود في فلسطين.
- مجلة (**المُصلح**) وتصدر في ميتشغان، ويعتبر معهد فولر للاهوت التكنولوجي في مدينة سيسيدنيا في ولاية كاليفورنيا، من أهم مؤسسات الجناح اليساري، وقد دأبت مجلة المُصلح، على توجيه انتقادات إلى الصهيونية السياسية عبر وجهات نظر لاهوتية وسياسية، وفي أيار من العام ١٩٨١ استضاف معهد فولر، رجل الدين الفلسطيني (من الناصرة) الأب إلياس شكّور، الذي قدّم عرضاً عن عدالة المطالب الفلسطينية أمام ثلاثمئة طالب وطالبة من طلبة المعهد المذكور.

لقد أيدّ المجلس الوطني لكنائس المسيح، خلال السنوات الأخيرة من ثمانينات وتسعينات هذا القرن، الشعب الفلسطيني في حقّه في تقرير المصير، وحقّه في التعويض أو العودة، كذلك حقه في كيان وطني يدير شؤون بلده

وشعبه، وقد أصدر محافظو المجلس المذكور عام ١٩٨٠ بياناً يدعو إلى حل الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي بصورة عادلة ونزيهة.

إن التحليل الطبقي لشرائح البروتستانتية الأمريكية، يضع الأنجلو - ساكسون البيض في مصّاف الطبقة الأكثر رقياً، إذ هي تتمتع بحيازة رؤوس الأموال والمصارف والشركات والمصانع الكبرى، ولا شك أن خط القاعدة الليبرالي البروتستانتي، كان يشتمل على الطبقات الوسطى في المجتمع، إضافة إلى طبقات الدخل المحدود وأصحاب العمل في المنشآت الصغرى، ويتساءل المرء عن موقف الحركة العمالية الأمريكية من المسائل اللاهوتية كالكنائس والطوائف وبالتالي موقف هذه الحركة من عروض بلفور وحق الهجرة اليهودية وإقامة دولة اليهود في فلسطين على أساس ديني - قومي، وما تعنيه تحرّكات الإدارات الأمريكية خلال مسيرة الصهيونية السياسية. ويبدو أن الحركة العمالية الأمريكية ألقت بثقلها بشكل فعّال لصالح الصهيونية السياسية، وبدا هذا الميل واضحاً منذ وعد بلفور وثورة أكتوبر الشيوعية عام ١٩١٧، وقد كان اتحاد العمل الفيدرالي الأمريكي، قد وافق في مؤتمره السنوي في بافالو (تشرين الثاني ١٩١٧) على الاعتراف بحقوق الشعب اليهودي في فلسطين، ويبدو أن هذا الميل العمالي كان يتكون منذ فترات بعيدة، حين كانت الاضطهادات ضد اليهود، تصل ذروتها في روسيا وأوروبا الشرقية، أثناء حكم القياصرة والملوك، وقد خدمت سياسة الاضطهاد هذه، مسيرة الحركة الصهيونية على الدوام، وهناك شهادات تاريخية مستفيضة، عن تشجيع الحركة الصهيونية، لاضطهاد اليهود، أثناء حكم القيصرية الروسية والنازية الألمانية واللاسامية الفرنسية التي ازدهرت مع قضية درايفوس ولا يُعزى موقف الحركة العمالية الأمريكية من موضوعات اليهود وفلسطين إلى سيطرة اليهود عليها، بل بالعكس، فإن الزعماء المسيطرين على الحركة العمالية الأمريكية بمختلف نقاباتها، كانوا من المسيحيين ذوي الطوائف المختلفة، ويمكن النظر إلى أسماء كبيرة مثل وليم غرين وجورج ميني وفيليب ميري، ممن استأثروا بزعامة النقابات العمالية كي نجد بأنهم كانوا على ولاء للطبقة الرأسمالية العليا، وأن اتحاداتهم بعد مذبحة شيكاغو العمالية (الأول من أيار)

أصبحت تعيش حياة الوساطة لصالح أصحاب العمل لا على حساب عمال أمريكا، بل على حساب قضايا الشعوب في العالم الآخر. إذ مع تطور الرأسمالية وانتقالها إلى قرن استعمار الشعوب، ثم مع تطوّرها ثانية نحو عالم (العولمة)، يكون الوضع الطبقي لعمال الولايات المتحدة، والدول الصناعية الكبرى، قد سُوّي على حساب شعوب العالم التي يجري نهبها بقوة الاقتصاد والبنوك وقوانين التجارة، أو بقوة العائمات الجوّالة في بحار العالم وفي سياسة الضرب المفتوح دون هوادة.

****

في العام ١٩٨٢ نشر الكتاب السنوي للكنائس الأميركية ـ الكندية إحصاء لتعداد التابعين للطائفة الكاثوليكية في الولايات المتحدة فقط، وقد بلغ المجموع الكلي لكاثوليك أمريكا، حسب هذا الإحصاء ٥٤,٠٨٨,٧٧٤ مواطناً أمريكياً، ولا شك أن موقف الكنيسة الكاثوليكية كما هي ممثلة في مركزها التاريخي (الفاتيكان)، ظل معادياً لليهود باعتبارهم قتلة المسيح التاريخيين. ثم نشأت اعتراضات داخل العقيدة الكاثوليكية، تقول بفصل اليهود المعاصرين عما اقترفه العبرانيون القدامى بحق المسيح، ويشبه هذا المنطق، ما تُعبّر عنه الآية الكريمة ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾، ورغم التخفيف الكاثوليكي من لهجة العداء الديني لليهود، فإن الفاتيكان بشخص البابا بيوس العاشر، كان قد أعلن رفضه للدعاوى اليهودية ـ الهرتزلية في فلسطين، فإثر لقاء بين البابا بيوس وتيودور هرتزل في السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٠٤، انتهى اللقاء بإعلان فاتيكاني حاسم (إن البابا يعلن معارضته الكلية للحركة الصهيونية وللهجرة اليهودية إلى فلسطين ـ اليوميات الكاملة ـ هرتزل) ومن الطبيعي أن موقف الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة، كان يحذو حذو الموقف لدى الكنيسة الأم في روما.

وتنقل روث بلاو الزعيمة الروحية لحركة حراس العهد اليهودية المعادية للحركة الصهيونية في كتابها (يهود لا صهاينة) أن هرتزل في مقابلته للبابا، كان يعرض صفقة تاريخية مؤداها تحويل اليهود إلى المسيحية (صفحة ٢٨٤ من

كتاب بلاو)، ومع ذلك، فإن البابا رفض مثل هذه الإغواءات، خاصة وأن ألفاً وتسعمئة سنة من عمر الميلاد، كان كافياً لإبقاء اليهود، يهوداً موالين لعقائدهم القديمة.

وبعد الوعد الذي أطلقه بلفور عام ١٩١٧، وقفت الكنيسة الكاثوليكية منه موقف الواجم، الذي لا يؤيد ولا يرفض، أما المواقف (خارج الموقف من وعد بلفور) فظلت على حالها، من رفض الهجرة اليهودية إلى البلاد المقدسة، وإعلان التضامن مع العرب المسيحيين في فلسطين، كذلك أطلقت دولة الفاتيكان مبررها السياسي الآخر، بأن يهود الولايات المتحدة أنفسهم، ليسوا على وفاق مع الحركة الصهيونية التي تدعمها المسيحية المتهودة في نيويورك، وكان ذلك قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية.

في المراحل المتقدمة من الانتهاكات والاضطهادات على يد النازية والفاشية، ومع مبالغات إعلامية عن المحرقة النازية لليهود، مال الرأي العام العالمي إلى الشفقة، ومع طغيان إعلامي كاسح، عن سياسات الإبادة لليهود في روسيا وألمانيا وإيطاليا.. تحوّلت الشفقة إلى نداء يقول بتجميع اليهود في أرضهم التاريخية، بمقولة التوراة غير الخاضعة للنقاش، أو بمقولة الأناجيل القائلة بالمسيح القادم من صُلب يهودي، وهكذا فإن الكنيسة الكاثوليكية لم تعد قادرة على السباحة ضد التيار. ولدى إعلان الدولة الإسرائيلية، وقف الفاتيكان موقف المتفرّج الصامت دون أن يعترف أو يشجب، ثم انصرف اهتمام الفاتيكان إلى مشكلة القدس، حيث دعا إلى تدويل المدينة، مع المحافظة على حرية العبادات لجميع الطوائف المسيحية والإسلامية واليهودية، كما منح اهتماماً خاصا بمشكلة اللاجئين الفلسطينيين من نواحي إنسانية.

ومع هدوء المدافع في الحرب العالمية الثانية واستسلام المحور، نشبت الحرب الكونية الباردة بين الشرق والغرب، وبالطبع، فإن الكنيسة الكاثوليكية، كانت تجد إمبراطورية الشر، في الاتحاد السوفييتي والكتلة الشيوعية الملحدة، وانصبتْ حرب الفاتيكان ضد الشيوعية العالمية في غير زمان ومكان، وكان للحملة الشعواء التي قادها السيناتور الأمريكي الشهير جوزيف مكارثي ضد

الشيوعية أو اليسار في الولايات المتحدة، دوياً هائلاً، كاد يضع الحياة السياسية لبلدٍ ليبرالي على الرف، وكانت نيويورك مدينة الأخطبوط اليهودي، تقف إلى جانب الحملة المكارثية بزعامة الكاردينال الكاثوليكي من أصل ألماني اسمه شبيلمان، وقد دعا شبيلمان إلى تعزيز دولة إسرائيل بالمال والسلاح، بصفتها الدولة الأولى التي تحارب الشيوعية في الشرق الأوسط، كما دعا إلى الوقوف ضد أطماع الاتحاد السوفييتي الذي يزوّد العرب بالسلاح، ومع هذه المواقف كانت الكاثوليكية الدينية في الولايات المتحدة، تقترب أكثر فأكثر من مواقف إداراتها المؤيدة لإسرائيل، وفي العام ١٩٥٠ دعت مجلة (أمريكا) الصادرة عن مؤسسات أمريكية كاثوليكية، لأول مرة، إلى إنشاء جبهة إسلامية ـ مسيحية عريضة لمقاومة الغزو الثقافي الشيوعي، ومع وقوع العدوان الثلاثي على مصر في العام ١٩٥٦، ثم الوحدة السورية ـ المصرية عام ١٩٥٨، وازدهار حركة القومية العربية، والدعوة إلى خلق مجموعة دول عدم الانحياز بزعامة الثلاثة الكبار نهرو وناصر وتيتو، أعلنت مجلة (أمريكا) موقفها المنحاز لإسرائيل، ودعت الرئيس الأمريكي دوايت أيزنهاور، إلى الكفّ عن ممارسة الضغط على إسرائيل، خاصة وأن الرئيس إيزنهاور كان قد شدّد على وجوب الانسحاب من كل الأراضي المصرية، عقب العدوان الثلاثي على مصر.

وفي عهد أول رئيس كاثوليكي للولايات المتحدة، جون كينيدي، استفاقت الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية بزعامة الأسقف كوشينغ، على لعب دور أساس في السياسة الأمريكية، وقد أثرّ هذا الدور على سياسات الفاتيكان حيث لأول مرة، في هذه المرحلة التاريخية من الزمن، يمنح الفاتيكان شرعيّته اللاهوتية لدولة إسرائيل في فلسطين. ومع أن الفاتيكان لم يعترف رسمياً بإسرائيل ولا بالقدس عاصمة لها، إلا أن الوشائج الدبلوماسية قائمة بين تل أبيب والحاضرة منذ ستينات هذا القرن، وبعد حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧، صار الحوار الإسرائيلي ـ الكاثوليكي مشهداً مألوفاً في السياسات المتبعة بين الطرفين، وبتأثير من الضغط الصهيوني في المدن الأمريكية الكبرى، أصبحت مظاهر التأييد الكاثوليكية لإسرائيل تتجسّد عبر وسائل الإعلام المختلفة والمواعظ والبيانات الدورية، حيث

دعا الأسقفان الكاثوليكيان فلانيري وأوستريش إلى الاعتراف اللاهوتي الصريح، بالصهيونية وحق إسرائيل في الوجود (إذ هي تعبير عن إرادة الله ـ المجلة الكاثوليكية ـ ١٢ كانون الأول ١٩٦٩).

وثمة أكثر من مؤسسة صهيونية ـ مسيحية داخل الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية، ويمثل مكتب الفاتيكان للعلاقات اليهودية ـ الكاثوليكية واحداً منها، كما أن هناك كلية الدراسات المسيحية ـ اليهودية التي تضمّها جامعة سيتون هول الأمريكية، وتدل الإحصاءات التي يجريها معهد غالوب لغايات الاستقصاء الديني، أنه من بين ٥٣ مليوناً من الأمريكيين الكاثوليك، يوجد ثمانية ملايين، يتبنّون المواقف المؤيدة لإسرائيل، ورغم أن النسبة هنا، لا تتجاوز أكثر من ١٥ بالمئة من مجموع الكاثوليك العام في الولايات المتحدة، إلا أن الاتجاهات العامة في الكنيسة الكاثوليكية الأمريكية، تظل تدين بالولاء للكنيسة الأم في روما، إذ هي أكثر انفتاحاً على عدالة الحق الفلسطيني، والقضية العربية بصورة عامة، وقد سبق لهذه الكنيسة، أن وقفت إلى جانب إشراك الفلسطينيين في مفاوضات التسوية العربية ـ الإسرائيلية، كذلك عبرّت من خلال مؤتمراتها وصحفها (المؤتمر الوطني لرفاهية الكاثوليك) وكذلك (مؤتمر الرهبان الأمريكيين) عن كبير اهتمامها بمسألة اللاجئين الفلسطينيين في العالم، وحقهم في العودة وفي أن تكون لهم دولة.

(٣)

العلاقة الديالكتيكية بين الدين والسلطة

إن الأساس في الديانة المسيحية الأولى، تعتمد الفصل بين حياة الإيمان وحياة الدنيا، فقد قال السيد المسيح حسب العديد من الأناجيل وبصورة خاصة إنجيل متى (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله)، وينصرف هذا المعنى إلى عدم جواز الجمع بين الدين والدنيا، ومن أجل هذا المعنى، فقد انصرف رجال اللاهوت الأوائل في الكنيسة، إلى التفرغ لأداء الوظيفة الدينية داخل كنس وأديرة نائية ومغلقة، وبطبيعة الحال، فإن الرهبنة كانت تدعو إلى التأمل وتحصيل المعارف

الدينية والتاريخية سواءً من مناهل الكتب المقدسة، أو من مصادر غيرها من تراث الأمم الوثنية الأخرى، وكما يقول ألفين توفلر في كتابه (تحول السلطة) فإن المعرفة بحد ذاتها تتحول إلى سلطة، خاصةً إذا كانت هذه المعرفة، قائمة بين مَنْ يقرأ ومنْ لا يقرأ، وقد وضع الإيمان الغريزي للشعوب، بعيد القرون الأولى لانتشار رسالة المسيح، طبقة رجال الدين بصفتهم الرُسل المؤتمنين، في مصاف سلطة تفوق بنفوذها وتأثيرها، سلطة الأباطرة والملوك والقياصرة، وأكثر من ذلك، فإن السلطة الدنيوية نفسها، كانت تستمد شرعيتها من السلطة الروحية في كنيسة روما، وكان بمقدور هذه الكنيسة، أن تخلع عروش، وتشن حروب، وتمتلك ممالك، وتنشئ جيوش، وتمنحُ صكوك، وكلها بموجب إنابةٍ سماوية، وتفويض إلهي لا يُناقش.

إن اندماج الديني بالدنيوي في مسيرة المسيحية التاريخية، جاء من القرن الروماني الذي حكم العالم، بعد اعتناقه المسيحية في قرونها الأولى، إذ لا يُعقل أن تتخلى واشنطن العالم القديم، التي هي روما، عن الدنيا في سبيل الدين، فالعقيدة المسيحية لم تخلق دولة خاصة بها، لكن روما، كانت بحاجة إلى تكييف مصالح الإمبراطورية مع ديانةٍ أخذت في اجتياح العالم، ولم يكن ذلك نابعاً من موقف براغماتي بالضرورة، إلا أن الانقلاب على الوثنية، والانسلاخ عن اليهودية بصفتها قاتلة المسيح، كانتا سمة العصر مع نهوض السيطرة الرومانية، ثم إن هذه الإمبراطورية التي نقلت عاصمتها إلى بيزنطة (القسطنطينية) إثر غزوات البرابرة ضد روما، كانت قد اعتنقت المسيحية من المنطقة لا من خارجها، فمسيحية روما جاءت في الأساس على يد الإمبراطور الروماني قسطنطين عام ٣٣٧ ميلادية، وفي العام ٣٩٥ أي بعد نيف ونصف قرن، شطرت النزاعات الداخلية، الإمبراطورية إلى قسمين، حيث روما عاصمة قسمها الغربي، والقسطنطينية عاصمة الإمبراطورية في الشرق، ومن هنا كانت مسيحية شرقية، وأخرى غربية.

غير أن الدولة الغربية عبر أدوارها، كانت تتنازع السيطرة مع الكنيسة حتى أفول العصور الوسطى، ولعل الإصلاح الديني الذي قادة مارتن لوثر عام ١٥٢٠، كان قد أضعف سلطة البابوية الدينية لمصلحة الدولة، وقد رأينا كيف انتقلت البروتستانتية بطوائفها المختلفة من إنكلترا والأراضي المنخفضة إلى القارة الجديدة، ثم تولّت بناء مستعمراتها الأمريكية، حيث بعد حرب الاستقلال ١٧٧٦، ارتقى سدة البيت الأبيض، رؤساء كلُّهم من الطوائف البروتستانتية المختلفة، حيث الاستثناء الوحيد كان في الرئيس جون كينيدي الكاثوليكي.

ورغم أن الدستور الأمريكي، كان قد أعلن صراحة فصل الدين عن الدولة، إلا أن ذلك لم يتعدّ حدود الفصل النظري لدين الدولة عن رؤسائها، فخمسة وأربعين رئيساً أمريكياً بروتستانتياً ـ باستثناء رئيس واحد ـ كان يعني شيئاً بالنسبة لسلسلة الإدارات المتعاقبة، ولم تتراجع البروتستانتية السياسية عن مبدأ فصل الدين عن الدولة، وتحويله إلى مبدأ واقعي معتمد، إلا بعد ازدياد الهجرات الكاثوليكية إلى الولايات المتحدة، وقد كانت رسائل الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون إلى كنائس ولاية كونتيكت مليئة بهذا المعنى حين قال: (إن الهدف الأول من تعديل الدستور هو إنشاء حائط فاصل بين الكنيسة والدولة ــ وثائق مكتبة الكونغرس ـ واشنطن ١٩٧٣ ص٩١١).

وهناك شواهد بقرارات رئاسية وأحكام قضائية محلية واتحادية وتفسيرات قانونية لفقرة فصل الدين عن الدولة كما جاءت في نص الدستور الأمريكي بعد إجراء تعديلات عليه ونورد على ذلك بعض الأمثلة من الحياة السياسية الأمريكية البعيدة والقريبة: ـ

ـ عام ١٨١١ استخدم الرئيس الرابع جيمس ماديسون حق النقض ضدّ منح أرض حكومية لكنيسة في مدينة سالم التابعة لولاية مسيسبي.

ـ عام ١٨٩٩ في عهد الرئيس الخامس والعشرين وليم ماكنلي أجاز القضاء الأمريكي منح مساعدة مالية حكومية لبناء مستشفى تملكه كنيسة كاثوليكية،

وكان في حيثيات الحكم أن المستشفى (مؤسسة علمانية في الأصل وليس هيئة دينية تخص طائفة معينة ـ المصدر السابق).

ـ في عصر لاحق، رفضت المحكمة العليا طلباً يتعلق بتوفير وسائل مواصلات حكومية لنقل طلاب مدرسة دينية، وكان قرارها (لا تستطيع إدارة ولاية، أو حكومة اتحادية، تأسيس كنيسة، أو سن قوانين تساعد ديناً ما، أو تفضل ديناً على آخر، أو تُكرِه إنساناً ليذهب أو يبتعد عن الكنيسة ـ المصدر السابق).

ـ عام ١٩٦٢ في عهد الرئيس الخامس والثلاثين جون كينيدي سمحت محافظتا ولاية نيويورك لتلاميذ المدارس بترديد شعيرة شبه دينية صباح كل يوم دراسي تقول: أيها الربّ القدير، بارك والدينا وأساتذتنا وبلدنا.. واعتبرت المحكمة أن هذا الدعاء يتناقض مع الدستور بالنسبة للمدارس الحكومية، إذ ليس من مهام الدولة، فرض صلوات بشعائر معينة على أية جماعة أمريكية.. ومع كل حالة بحالها، كان الدافع نحو الفصل محصلة تاريخ وثقافة وتطور اجتماعي ونفسي، بحيث تبقى الحدود بين تأثير الكنيسة وسلطة الدولة قائمة، وكما سعت الديمقراطية الأمريكية، أن تُبعد الدين عن الدولة، من حيث أنّ انحياز الدولة لدين ما، يُعد في جوهره مسألة لا ديمقراطية إضافة إلى تعارضها الصريح مع نص الدستور، إلا أن ذلك لم يمنع فصل الدين عن السياسة، خاصة إذا كانت ممارسة الدين على الطريقة الأمريكية، فمع تطور الحياة والظروف والأمزجة، كانت الكنيسة الأمريكية تجري تكيّفها مع نفسها، بحيث تواكب العصر ولا تصطدم معه، وقد وصل التكيّف حدّ عزف (الروك أند رول) على أيدي رجال الدين أنفسهم، دون أوهام تحريميّة.

ومن هنا كانت الكنيسة الأمريكية موجودة في كل مكان وداخل المزاج العام للجمهور، ومن جهة أخرى، فإن الكنيسة لم تتخلف عن ركب الدخول في مضمار العلم والطب والرياضة والموسيقا والفنون الأخرى بما فيها فن السياسة نفسه، وهذه الشبكة بدورها، بصفتها مظاهر لنشاطات اجتماعية لا تتعارض مع البنية الفوقية للسلطة بما فيها الدستور، تمكنت من (إلقاء القبض) على الواقع

الحياتي للناس. بصورة بعيدة وغير مباشرة، فالكنيسة التي تعزف الموسيقا، هي ساحة مغناطيسية لميل الشباب وتلبية انفعالاته، والكنيسة التي تعمل في مختبرات العلم أو الطب أو أية نشاطات علمية أخرى، قطب جاذب لاهتمامات أهل العلم والساعين إلى تحصيله، فهناك جامعات وكليات ومعاهد.. فيها الألوف من الطلبة، يتبعون هذا الخط الكنسي أو ذاك، وقد أدى هذا المزج بين التديّن ونشاطات الحياة المتنوعة، إلى إخفاء الدوافع الحقيقية وراء موقف ما، كالموقف من علم الجيّنات، أو من ظاهرة الاستنساخ، أو الموقف من مدرسة داروين التطورية.. وغيرها مما يمكن أن يخلق مع تطور العلم، أمّا ما يعنينا هنا، فهو الامتزاج الذي خلقته الكنيسة الأمريكية بين الدين والسياسة، فبالرغم من فصل الدين عن الدولة، إلا أن معظم القادة والرؤساء والزعماء المدنيين، غالباً ما يستخدمون تعابير خطابية مستقاة من العهد القديم، أي بصورة خاصة من التوراة، وينطبق ذلك على المناسبات العامة الداخلية أو الخارجية، لكن خطابات التوراة، تأخذ مداها إذا ما تعلق الأمر بالشرق الأوسط، فكلمة (إسرائيل) تصبح محور الخطاب السياسي المُغلّف بالرموز الدينية، وهو ما يرضى عنه جمهور الشعب المتأصل في بيئة دينيّة تاريخية (فالكنيسة المُنّظمة) تُردّد إسرائيل مع كل صلاة، ولا يُعقل أن يأتي الخطاب السياسي خلاف ذلك، وبالعكس تماماً، فإن الخطاب السياسي نفسه، يمتح من جذور الخطاب الديني ولو بصورة مشذبة، وقد أصبح هذا الخطاب المزدوج، العامل المؤثر في الحملات الانتخابية والمواقف السياسية بعدها.

لقد أصبح الدين قائماً في الخطاب السياسي الأمريكي دون أن يُلحظ، ومن خلال هذا الامتزاج بين السياسي والديني، نشأ ما يمكن أن يُسمى بأسلوب الخطاب المدني، الذي يقوم مع ذلك، على تراث طويل من المسيحية واليهودية، من حيث هو تاريخ أمريكا منذ نشأتها، ويقول روبرت بيلا في كتابه الدين المدني في أمريكا المطبوع عام ١٩٦٧ صفحة ٧ (لقد برز نوع من الدين الشَبحيَ لنشاط الشعب الجماعي، وهذا هو الدين المدني في الولايات المتحدة، حيث مكوّناته التي يرتكز عليها تقوم على الإيمان بنظام المذاهب الثلاثة: البروتستانتية والكاثوليكية واليهودية). وبالفعل فإن الخطاب السياسي الأمريكي.

الجمهوري أو "الديمقراطي، يذهب إلى (احتواء مُثلّث) لهذه المذاهب، فشعار الالتزام الأدبي والأخلاقي بأمن إسرائيل، إنما هو مُستّمد من تأثيرات التوراة على المسيحية لأيٍّ من حلفائها المسيحيين في أوروبا أو كندا أو أي بلد آخر، هذا وتؤكد مفردات الخطاب السياسي الأمريكي مثل: التزام (أي عهد) وأدبي (أي متوارث) وأخلاقي (أي راسخ) كذلك هي المفردات السياسية الأخرى تفصح عن نفسها في عبارات: التراث المسيحي اليهودي ـ المشترك، وأرض الميعاد، والبطاركة القدامى، أي العبرانيين القدامى.. وغير ذلك مما لا يجد الدستور الأمريكي سبباً لاقتحامه، تحت فقرة فصل الدين عن الدولة. إن الأساليب والوسائل التي تستخدمها الكنيسة الأمريكية، هي ذات الوسائل والأساليب التي تستخدمها المؤسسات غير الدينية في المجتمع، فالكنيسة في الإعلام، مثلما جنرال موتورز فيه سواءً بسواء، وقد أصبحت الفضائيات العالمية، منابر لمواعظ دينية بدلاً من الكنيسة، وهذا الخط العام، يؤدي فيما يؤدي، إلى ممارسة الضغط على الإدارات الأمريكية (هذا إن كانت هي بحاجة إلى مثل هذا الضغط)، ويعلم اليهود في العالم عموماً، أن اللوبي اليهودي في أمريكا، يقع في المحل الثاني، بعد مؤثرات الكنائس الأمريكية، حيث يجد هذا اللوبي بلاداً جاهزة لتمثّل التوراة قبل أن ينبس ببنت شفه، فالطريق التاريخي للميثولوجيا الأمريكية، موجود في تراث شعب، قبل أن يولد اللوبي نفسه، أما الوسائل المستخدمة في إدارة الكنائس وآليات عملها وتنمية مواردها، فقد تجلّت في نواتج أكثر ما في التكنولوجيا من حداثة، فمن المحطات المرئية والمسموعة، إلى الكمبيوتر، إلى عالم الأنترنت، ثم إلى عوالم الأدب والفكر والعلم والجامعات والمدارس والمعاهد الموسيقية والأكاديمية، وتُقدر ثروات الكنائس بمليارات الدولارات، وتؤكد دراسة بشير نجم تحت عنوان سياسات الكنيسة الأمريكية والشرق الأوسط (عام ١٩٨٢ ص٦٥)، أن الكنيسة المشيخية المتحدة مثلاً، تدير أملاكاً كنسية تقدر بربع مليار دولار، وأن الكنيسة الموازية (المنهجية المتحدة) تدير أملاكاً تُقدر بأضعاف ما تمتلكه الكنيسة المشيخية، وما بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٨٢ ارتفع عدد أعضاء الكيان الكنسي الأمريكي من ١٣١ مليوناً من التابعين، إلى ١٤٠ مليون إنسان،

أي حوالي عشرة ملايين في غضون عشر سنوات تقريباً، وهو مؤشر لتنامي نفوذ الكنيسة لا إلى اضمحلاله مع التطور، وتذهب هذه الدراسات التي يوردها د. يوسف الحسن عن البعد الديني في السياسة الأمريكية، إلى أن التبرعات الأهلية للكنائس بمختلف طوائفها، بلغت في العام ١٩٨٢ ٦٠,٣٩ مليار دولار، وأن هذا المبلغ يزيد عن سابقه في العام ١٩٨١ بنسبة ١٢ بالمئة، وتنفق هذه الكنائس زهاء نصف مواردها على الغايات الدينية، فيما يذهب النصف الآخر، لغايات ثقافية وإعلامية وسياسية وإنسانية*، ولا تتوقف أنشطة الكنائس الأمريكية على رجال الدين وحدهم، بل بالعكس، فإن هناك علماء وأساتذة جامعات ومدراء مصارف ورجال فن وأشخاص موهوبين أو لامعين، ينخرطون في أنشطة الكنائس العامة، حيث غدت المؤسسة الكنسية في الولايات المتحدة، مجتمعاً سياسياً واقتصادياً يمتلك القوة الاجتماعية الكافية للتأثير في صُنع القرار السياسي.

ويمتلك الجسم الكنسي العام في الولايات المتحدة، كما هو إحصاء العام ١٩٨٢ ما يساوي ١٩٧٨ معهداً أكاديمياً، ومن بين هذه المعاهد هناك ما يزيد على ٤٥٠ معهداً خاصاً بالكنيسة البروتستانتية، وفي مستوى أدنى من المعاهد الدينية ـ هناك ما يربو على ١٨ ألف مدرسة دينية تضم زهاء مليوني تلميذ في العام ١٩٨٢، علماً بأن هذا العدد لم يكن ليصل إلى ١٣١ مدرسة في العام ١٩٦٠ وتعداد طلابي لا يتجاوز ١٢ ألف تلميذ، ولعلّ الجامعات الشهيرة في الولايات المتحدة، مثل جامعة هارفارد ١٦٣٦ أو جامعة ييل عام ١٧١٠ قد أُسّستا لغايات دينية في البداية، حيث رأينا أطروحة الدكتوراة الأولى في الولايات المتحدة والتي جاءت تحت عنوان (العبرية هي اللغة الأم) وأن أول كتاب قرأه الرواد الأوائل كان (سفر المزامير) وأن أول مجلة صدرت عن مؤسسة دينية كانت بعنوان (اليهودي)، أما جامعة جورج تاون الكاثوليكية فكانت ذات صلة بالكنائس الأمريكية تاريخياً، وإضافة إلى هارفازد وييل وجورج تاون الموجودة

* أنفقت مؤسسة (الدين في الحياة الأمريكية) وهي مؤسسة دينية لا تتجاوز مدينة نيويورك، مبلغاً على الإعلانات السنوية لإحدى الفضائيات يجاوز اثنين وثلاثين مليون دولار، والمبلغ لعام واحد ـ الكتاب السنوي للكنائس الأمريكية.

في واشنطن، فإن هناك جامعات أخرى مرتبطة بالكنيسة الأمريكية مثل جامعة بيلور وجامعة دايتون في ولاية تكساس، وجامعة ديوك في كارولاينا الشمالية، وكلية بوسطن وجامعة دِنفر في كولورادو.. هذا وقد رصدت أجهزة الإحصاء الكنسية عدد المُصّلين المواظبين على الكنيسة، فوجدت أن النسبة ترتفع مع ازدهار نشاط الكنيسة أو وقت الأزمات.

لقد حبا الله الولايات المتحدة برؤساء مؤمنين بالمسيحية المشوبة بتعاليم التوراة، مثل جون آدامز وتوماس جيفرسون وكوينسي آدامز وجون تايلر وجيمس بولوك ووليم تافت وودرو ولسون، وكالفن كولدج وهاري ترومان وجيمي كارتر ورونالد ريغان، وكلها أسماء لامعة في الخطابين السياسي والديني دون تمييز، ولعل الرؤساء الأقرب إلى تاريخنا هما جيمي كارتر المؤمن بعقيدة الولادة الثانية كمسيحي، ورونالد ريغان المؤمن بنفس العقيدة التي تقول بالرجعة الثانية، وقد تحدث كارتر في آذار من العام ١٩٧٩ أمام الكنيست الإسرائيلي فقال: (لقد جسّد منْ سبقني من الرؤساء الأمريكيين الإيمان حين جعلوا من العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل، أكثر العلاقات خصوصية، إنها علاقات فريدة لأنها مُتأصلة في ضمير الشعب الأمريكي وفي أخلاقه وفي دينه وفي معتقداته، وكما أن الولايات المتحدة وإسرائيل، أقامهما روّاد مهاجرون، فإننا نتقاسم معكم تراث التوراة أيضاً ـ فايز صايغ ـ الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة ١٩٨٣ ص١٧).

وتبدو من خلال اللقاءات والمناسبات المختلفة، تلك الإشارات الدينية التي يؤمن بها كارتر، حيث يحمل الرجل هيئة قس، بأكثر مما يحمل هيئة رئيس، فهو كغيره من المسيحيين المؤمنين بالعودة الثانية (الولادة الثانية) يؤمن بتسلسل النبوءة كما وردت في الشروح البروتستانتية القديمة: قيام إسرائيل وعودة القدس إليها، ثم بناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى، وذلك بعد معركة هرمجدون الرهيبة، حيث سيظهر المسيح للمرة الثانية ليحكم العالم ألف سنة من مدينة القدس، من بعدها تكون نهاية الزمان (يوم القيامة)، ويبدو التلّهف إلى هرمجدون التي سيرتفع الدم فيها إلى أعنّة الخيل (أو إلى عنق الصواريخ النووية

سيان!..) يبدو هذا التلّهف في انتظار إشارات هذه المذبحة البشرية من الفطيم إلى الطاعن، على وجه الرئيس الأمريكي رونالد ريغان أكثر من أي رئيس آخر في تاريخ أمريكا كله.

فالرجل يؤمن بكل جوارحه، بأن إشارات الزمن الحديث تؤمئ إلى دلالات واضحة تمتد من إمبراطورية الشر الشيوعية سواء في الاتحاد السوفييتي (السابق) أو الصين الشيوعية، إلى بقاء القدس في أيدي العرب المسلمين إلى أحداث أفغانستان وغزو إسرائيل للبنان.. وكلّها إشارات يمكن أن تفضي إلى هرمجدون عصرية، ولخطورة هذا المعتقد الذي يحمله رأس رئيس مسؤول، (بل هو رئيس أعظم دولة في العالم) حيث يضع في جيبه علبة الأزرار النووية!...، لابد من التعرض إلى (هرمجدونية) ريغان بشيء من طرائف التفاصيل. يروي جيمس ميلز الرئيس الأسبق لمجلس شيوخ ولاية كاليفورنيا في مجلة سان دياغو (عدد آب ١٩٨٥) الواقعة الثانية:ـ

كانت تلك السنة الأولى في الولاية الثانية من حاكمية ريغان (حيث كان ميلز رئيساً لمجلس شيوخ ولاية كاليفورنيا)، وفي مأدبة أقيمت على شرف ميلز في مدينة سكرافتو، سأل ريغان ميلز دون مقدمات:

ـ هل قرأت الفصلين الثامن والثلاثين والتاسع والثلاثين من سفر حزقيال.

ويجيب ميلز:

ـ أنا رجل ترعرعت في بيت يؤمن بالكتاب المقدس، وقد قرأت وناقشتُ مقاطع عديدة من حزقيال، خاصة تلك التي تتحدث عن ياجوج وماجوج التي هي أقوام روسيا، ويتابع ميلز مُضيفاً:

ـ لقد قرأتُ أيضاً مراجع أخرى تتعلق بنهاية الزمان في الفصلين ١٦و ١٩ من سفر الرؤيا.

وتلمظّ ريغان بعذوبة كأس البراندي وهو يترعه وقال:

ـ إن حزقيال رأى في العهد القديم المذبحة الرهيبة التي ستدمر عصرنا، وها هي ليبيا المتحولة إلى الشيوعية تعطي الإشارة لهرمجدون.

ويُذّكر ميلز ريغان: ـ

ـ إن حزقيال يقول بأن أثيوبيا ستكون من بين قوى الشر الشيطانية، لكنني لا أتصور هيلاسيلاسي وهو أسد يهوذا، يحارب مع زمرة من الدمى، ضد شعب الله المختار، إنني لا أعتقد بأن ذلك قابل للوقوع. ويُصرُّ ريغان على اعتقاده مجيباً:

ـ لا مفر من ذلك يا سيدي، إنه ضروري لتحقيق النبوءة ولابد عاجلاً أم آجلاً، أن يحدث شيء ما في أثيوبيا كي تقف في صفّ أعداء الله المحاربين لإسرائيل.

ونعود الآن إلى رواية جيمس ميلز في مجلة سان دياغو ١٩٨٥، حيث يتابع: ـ

بعد ثلاث سنوات من تاريخ المأدبة المشتركة في سكرامنتو، وقع انقلاب شيوعي في أديس أبابا أطاح بالإمبراطور هيلاسيلاسي، وكم كانت فرحة ريغان غامرة، حين سمع النبأ الذي يحقق النبوءة.

وفي عام ١٩٨٠ عندما كان ريغان مرشحاً للرئاسة، اختتم مقابلة تلفزيونية مع الإنجيلي جيم بيكر قائلاً (قد نكون نحن الجيل الذي سيشهد هرمجدون في يوم من أيام حياتنا) وفي مقابلة لاحقة مع العديد من ضيوف بيته، أشار ريغان إلى (أن جيلنا هو الذي يمكن أن يحقق هرمجدون). وفي مقابلة صحفية أجراها الصحفي روبرت شير في آذار ١٩٨١ مع جيري فولويل صاحب محطة الحرية للبث التلفزيوني، كشف فولويل النقاب عن حديث مشترك دار بينه وبين ريغان، ومؤدى هذا الحديث، أن ريغان يؤمن بأن العالم يسير نحو نهايته المحتومة ،سريعاً، وأن التاريخ يصل إلى منتهاه، وأن العالم لن يعيش أكثر من خمسين سنة أخرى، وقد غمرت الغبطة وجه فولويل حين اختتم حديثه الصحفي مع روبرت شير قائلاً: إنني أؤمن بما يؤمن به الرئيس ريغان. ويُفضِّل القس فولويل موضوع هرمجدون على أي نبوءة أخرى، ففي ١٩٨٤/١٢/٢ ألقى موعظة كنسية صاخبة تقول: (فجمعهم إلى الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدون ويضيف فولويل، سيكون هناك اشتباك آخر وأخير، وعندئذ سيتخلّص الرب من هذا الكون، وفي

الإصحاحين (٢١و٢٢) من سفر الرؤيا، يتابع فولويل، جاء أن الرب سيدمر هذا الكون، وسيرافق الدمار انفجار هائل وحرارة عالية كما يقول القديس بطرس نفسه.

ثم يضيف (في معركة هرمجدون سينتقل المسيح الدجال إلى الشرق الأوسط ويرفع تمثاله في قدس الأقداس من المعبد اليهودي، ويأمر العالم أن يعبدوه كإله، وفي هذا الوقت سيُذبح الملايين من اليهود الأتقياء، فيما ستنجو قلة منهم استناداً إلى زكريا، ويتابع فولويل (سيخبئهم الرب لنفسه بصورة خارقة للطبيعة، خلال ثلاث سنوات ونصف من المحنة في مدينة بترا الوردية، (ويقصد البترا الأردنية)..

ثم يتوقف فولويل بطريقة مسرحية ليستأنف:

ـ لو سألتموني كيف؟ أقول لا أعرف، لكن الرب سيحفظهم، لأن اليهود هم شعب الله المختار.

ويستطرد فولويل في سيناريو المذبحة البشرية فيقول: ـ إن الأرض التي ستدور فوقها رحى هرمجدون، تمتد من مجيدو في الشمال إلى أدوم في الجنوب. حيث تغطي مسافة مئتي ميل، ومن البحر المتوسط إلى هضاب مؤاب مسافة مئة ميل (زهاء عشرة آلاف ميل مربع) وستكون القدس في المركز منه.

ويتابع فولويل موعظته:

سيحتشد الملايين في هرمجدون، وسيصل العدد في المحرقة النهائية إلى ٤٠٠ مليون*، وسيأتي الملوك بجيوشهم من الشمال والجنوب ومن الشرق والغرب، وسيكون هذا الوادي هو وادي القضاء بالنسبة للبشرية، وسينّصب فيه غضب الله الشديد كمعصرة الخمر، وسيجف نهر الفرات (رؤيا يوحنا) وسيتم تدمير القدس، وسوف تنهش صقور السماء لحم الملوك والقواد والرجال الأشداء، ولحم الخيول وراكبيها.. الخ. ولا نعلم تماماً ما هو دور الخيول في

* كيف سيتم تجميع ٤٠٠ مليون إنسان في مثل رقعة هرمجدون، لا أحد يعلم، وكيف ستنتهي الزمان اعتباراً من مقولة هرمجدون، لا أحد يعلم أيضاً، فالكرة الأرضية ليست فلسطين وأجزاء من الأردن، وعلى فولويل أن يخترع مذابح هرمجدونية أخرى لتغطية بقية العالم..

معارك حرب النجوم، لكن الذي ندركه حقاً، بأن جيري فولويل، ينهي العالم في موعظة واحدة.

ظل جيري فولويل مع هرمجدون وتفاصيلها التي تخطف الأبصار وتأخذ بالألباب، حتى العام ١٩٦٧، حين حلت كارثة الخامس من حزيران بالعرب، وبالمسلمين، وعندها تحول الكاهن من كهانته إلى عالم السياسة، فقد جاءه البرهان الذي ظل يفترضه لسنوات، وابتداء من كارثة حزيران، أخذ يبث برنامجاً أسماه: ساعة من الإنجيل القديم.

ويعتبر فولويل من أوائل رجال الدين الذين جاهروا بالقول المتطرف (إن الولايات المتحدة تدعم إسرائيل لا من أجل إسرائيل، بل من أجل مصلحة الولايات المتحدة نفسها - بيري يونغ. إنذارات الله. نيويورك. واشنطن ١٩٨٢. ص٢١٣).

هذا ويختصر فولويل قاموسه الديني الحافل، بعبارات أشبه ما تكون بالنسيب في الشعر العربي الجاهلي حيث الوقوف على الأطلال: (منذ أربعة آلاف عام، وعد الله إبراهيم بمباركة من يبارك إسرائيل ولعنة من يلعنها.. إن الوقوف ضد إسرائيل هو معارضة الله).

وفي العام ١٩٧٦ سخّر فولويل إمكاناته الكنسية والإعلامية لدعم ترشيح جيمي كارتر للرئاسة، ومنذ ذلك الحين صعد نجم فولويل كداعية سياسي لا يقل تأثيره عن دوره الديني في عموم المجتمع، وكدعم إضافي لأدواره الدينية والسياسية، فقد أسس فولويل في العام ١٩٧١ كلية دينية معمدانية، ثم قلب اسمها إلى جامعة الحرية، حيث يتعلم الطلبة فيها علوماً لاهوتية من وجهة نظر يهودية، ويقول جدول (كاتولوج) الجامعة نفسه، بأن جامعة الحرية إضافة إلى الدراسات اللاهوتية، تقوم بتدريس سائر العلوم الأخرى (كالمحاسبة التجارية وإدارة الأعمال، والاقتصاد والإعلام والصحافة وعلم الأحياء والعلوم الاجتماعية والعلوم السياسية وعلم النفس والرياضيات والقانون والمواد التمهيدية لدراسة الطب والتمريض والموسيقا.. كما تمنح هذه الجامعة دبلوم الدراسات التوراتية — كاتالوج جامعة الحرية ص٤١). أما المقررات التخصصية اللاهوتية، فتبلغ سبعة مقررات، وهي تشمل بدايةً العهد القديم (مقررين) والعهد الجديد (مقررين)

واللاهوت (مقررين) ثم تنتهي بمقرر مطول عن مذهب العصمة الحرفية للكتاب المقدس. هذا وتُقدّر المدارس الثانوية والابتدائية التي تتبع كنيسة فولويل باثني عشر ألف مدرسة. ويقول فولويل، إن صوته الداعي لدعم إسرائيل، يسمعه ٢٥ مليون أمريكي يومياً، أما التبرعات الأهلية لكنيسة فولويل المعمدانية، فقد جاوزت في العام ١٩٨٣ زهاء مئة مليون دولار، مما أتاح لفولويل شراء طائرة خاصة من صنع إسرائيلي، إضافة إلى تمكّنه من إيفاد بعثات دينية تبشيرية إلى ٦٥ دولة عالمية، وتعمل هذه البعثات في مناسبات أخرى، بمسائل اللاجئين والإغاثة الدولية.. وأثناء غزو إسرائيل للبنان، قال فولويل من خلال برنامجه (ساعة من الإنجيل القديم) ما يلي:

(في التوراة، يذكر سفر التكوين، أن حدود إسرائيل تمتد من الفرات إلى النيل، وستكون الأرض الموعودة هي العراق وسورية وتركيا والسعودية ومصر والسودان وجميع لبنان والأردن والكويت ـ ساندي تايم ٦ شباط ١٩٨٣). وقد بلغت الجرأة في طموحات القس فولويل، أنه أعلن في العام ١٩٧٩ عن تأسيس منظمة سياسية لا دينية، تحت اسم (الأغلبية الأخلاقية) بقيادة قومية أمريكية، وتمسك المنظمة بأحدث ما وصل إليه العلم من إمكانيات للإدارة والاتصال والنشر، فهي تخاطب كما تقول خمسة وعشرين مليوناً من الأمريكيين، كذلك فإنها ترسل بريدياً، زهاء مئة مليون رسالة سنوياً.

وتضم منظمة الأغلبية الأخلاقية، إضافةً إلى أعضائها من المسيحيين الأصوليين (زهاء ٦ ملايين عضو)، كبار الساسة من اللوبي اليهودي، كما تعمل على مدّ المرشح الرئاسي الذي يتماثل مع أفكارها السياسية (دعم إسرائيل أولاً) بالعون المادي السخي أثناء الحملة الانتخابية، ولا تتوانى المنظمة عن ممارسة الضغط، في سبيل إنجاح أو إفشال المشاريع التي تعرض على الكونغرس.

وعام ١٩٨٦، أعلن فولويل عن ولادة منظمة شقيقة لمنظمة الأغلبية الأخلاقية، وقد أسماها اتحاد الحرية، حيث لا تختلف في خطوطها الرئيسية عن الأغلبية الأخلاقية، ولو أنه أشار في صك تأسيسها مُعرّفاً (إنها منظمة سياسية تعمل بمثابة جماعة ضغط موحدة، لتوسيع قاعدة التعامل مع قضايا المجتمع الرئيسية الأخرى).

إن أول أمريكي أبلغه ميناحيم بيحن بضرب المفاعل النووي العراقي ـ كان جيري فولويل نفسه، وقد طلب بيحن من فولويل تعبئة الرأي العام الأمريكي، لقبول هذا الإجراء وتأييده، وقد انطلق فولويل بالفعل، يردد تبريرات إسرائيل حول العملية العسكرية إذ هي (دفاع عن النفس وحماية لأطفال إسرائيل من الهلاك) ثم بعث ببرقية إلى بيحن يقول فيها (إنني أبارك مهمتك، التي جعلتنا فخورين جداً لأننا صنعنا هذه الطائرة إف ١٦ - واشنطن ستار ٧ تموز ١٩٨١).

ورغم أن العديد من القيادات الأمريكية واليهودية، هاجمت إسرائيل أثناء غزوها للبنان وتقتيل المدنيين، إلا أن فولويل كان قد أبرق برسالة تشجيع إلى رئيس الوزارة الإسرائيلية، لما يفعله بلبنان تمهيداً لتحقيق ما تقوله التوراة في سفر التكوين، وبعد رحيل إسرائيل عن لبنان، أعلن فولويل (إنني أعارض إعادة أي أرض ترجعها إسرائيل لجيرانها العرب.. فحيثما تكون إسرائيل موجودة وقوّية، فإن المصالح الغربية تكون في أمان) هذا وسيصرح أحد مساعدي بيحن بأن منظمات فولويل هي أهم أعمدة إسرائيل في الولايات المتحدة، بما فيها اللوبي اليهودي نفسه. على الصعيد الاجتماعي فإن عظات فولويل ودروسه الدينية تصل إلى ٥,٦ مليون منزل أمريكي، وبالنسبة لمواقفه السياسية العالمية، فإنه ظلّ يؤيد الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا، كما حكومة إسرائيل، وقد وصف فولويل، القس، ديزموند توتو، الحائز على جائزة نوبل للسلام، وصفه بأنه دمية في يد الآخرين، كما وقف موقفاً مؤيداً لحكومة الدكتاتور ماركوس في الفيليبين، كذلك أقام فولويل مأدبة غداء في ٢٥ كانون الثاني ١٩٨٦، على شرف نائب الرئيس جورج بوش، وفي الحفل الذي حضرهُ خمسون ضيفاً، قال فولويل: إن بوش سيكون أفضل رئيس لأمريكا في العام ١٩٨٨.

وبالفعل نجح بوش في انتخابات الرئاسة بتأثير من كنيسة فولويل ومحطته الفضائية، إضافة إلى فضائيات أخرى يمتلكها لاهوتيون من أمثال بات روبرتسون، وجيمي سواغارت، وجيم بيكر، وأورال روبرتس، وكينيث كوبلاند، وريتشارد داهان، وركس هامبارد.. كما أن هناك القس جورج أوتيس ومنظمته

الدينية وإيفانز مع برنامجه.. وأما هذا الحشد الهائل من الإعلاميين اللاهوتيين في الفضائيات فإنه يمكن إيجاز المؤثرات الدينيّة حسب واقع السيناريو التالي فالنُخب الأصولية قادرة في الأساس، على إحياء القيم التي انعقد الإجماع على تقديسها، وعلى إحياء صورة الخلاص الوشيك، وعلى ترجمة الرموز والقيم الدينية إلى نفوذ سياسي، وإلى التمتع بالدعم السياسي والإداري والاقتصادي من أكبر الأحزاب السياسية، إذ بات لهم سلطة روحية على الزعماء السياسيين والمشُرعين وساكني البيت الأبيض وبالتالي على عمليات صنع القرار بعد صنع الرأي وتوجيه دفة المواقف. وقد أدركت الرؤوس الأصولية من قساوسة ودعاة، إذ لا ينقصها الذكاء أو الفراسة، أن ثقافة الشعب الأمريكي، تخضع في أهم وجوهها لسيطرة وسائل الإعلام والكنيسة، فالقوة الفاعلة للإعلام والكنيسة قادرة على إدارة الرأي العام وتعبئته، وعبر الفضائيات والانترنت والإذاعات والصحف والمجلات والأفلام السينمائية والمسارح والكتب، يمكن إخضاع الجمهور الأمريكي بصورة مُحببة وتلقائية، فالإعلام في حياة الأمريكيين - يعيش في المنزل والوظيفة والمتجر والشارع وملاعب الرياضة وحانات الليل وصالات السينما وفي أي مكان، والناس سواسية في تلقي مؤثرات الإعلام بما فيها المؤثرات الدينية، لكنهم ليسوا سواسية في تملكها، ومن هنا كان للكنيسة الدور الأوفى في دخول أو تملك وسائل الإعلام جنباً إلى جنب مع كبريات الفضائيات العالمية الأمريكية.

والأمثلة على صعيد الإعلام والإعلاميين اللاهوتيين في الولايات المتحدة أكثر من أن تُحصى، وإليكم بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر: -

- بات روبرتسون. ابن السيناتور السابق ويليس روبرتسون عن ولاية فرجينيا، تخرج من جامعة ييل كلية الحقوق، ويعمل في إدارة شبكته التلفزيونية C.B.N ما يربو على ١٣٠٠ موظف وموظفة، وتضم هذه الشبكة إضافة إلى محطة التلفزيون، نادي السبعمئة (أي ٧٠٠ مساهم)، وثلاث محطات تلفزيونية أخرى ومحطة إذاعة، وتعمل محطة .C.B.N بالاشتراك مع محطة تلفزيون الشرق الأوسط التي تبث من جنوب لبنان، وتقدم برنامجاً يومياً لمدة نصف ساعة

تحت عنوان (سي. بي. إن ـ أخبار الليل)، والأخبار كلها مُصاغة من وجهة نظر مسيحية ــ يهودية، وتصل إلى ٢٧,٥ مليون مشاهد، وقد حققت شبكة روبرتسون الإعلامية دخلاً سنوياً يقدر بمئتي مليون دولار عام ١٩٨٥ هذا وتصل برامج الشبكة في الولايات المتحدة وحدها إلى أكثر من ١٦ مليون عائلة أمريكية أي ما يعادل ١٩ بالمئة من الأمريكيين الذين يملكون أجهزة التلفزة، ويقول توم فيكر معلق صحيفة نيويورك تايمز ١٦ تشرين الأول ١٩٨٥ (وقد يكون ترشيح روبوتسون للرئاسة عام ١٩٨٨ هو أكثر الاحتمالات الأمريكية مخادعة) ويؤكد فيكر في المقالة نفسها، أن شبكة روبرتسون الإعلامية، تحظى بمشاهدين يفوق عددهم، عدد قراء التايم ونيوزويك ونيويورك تايمز ولوس أنجلوس تايمز والوشنطن بوست.. مجتمعة.

وقد مرّ معنا الداعية (الهرمجدوني) جيري فولويل الذي يصل برنامجه (ساعة من الإنجيل القديم) إلى ٥,٦ مليون عائلة أي زهاء ٧ بالمئة من المواطنين الأمريكيين، ويقول مارتن آميس في دراسته (الجحيم الأبله ــ ١٩٨٧): (إن الأمريكيين يقدمون على مشاهدة برنامج فولويل في طول الولايات المتحدة وعرضها من خلال ٣٧٤ محطة تلفزيونية، وبإقبال يفوق شغفهم بمتابعة أي مسلسل تلفزيوني)، وبالطبع، فإن هرمجدون، تعتبر من أشد (المسلسلات!..) عنفاً في تاريخ العالم، بل لعل هرمجدون تكون نهاية هوليود نفسها.. ثم يأتي دور الداعية كينيث كوبلاند، الذي يصل برنامجه إلى ٤,٩ مليون عائلة، أي نسبة ٥,٨ بالمئة من المواطنين الأمريكيين، ويرى كوبلاند في برنامجه الديني، أن إسرائيل العصرية وصهيون الإنكليزية هما شيء واحد.. فالله نفسه يتحرك من أجل إسرائيل.. إنه لزمن رائع أن نبدأ بدعم حكوماتنا طالما هي تدعم إسرائيل.. إنه لزمن رائع أن نشعر بمدى ارتباطنا بجذور إبراهيم) وفي موعظة أخرى يقول (إن إسرائيل هي المسرح الذي سيقدم بالضرورة معركة هرمجدون وعودة المسيح.. إننا نُعبر عن حبنا لليهود، ليس لأنهم يهود، ولكن لأننا نرى فيهم الممثلين الذين لابد منهم على مسرح النظام الديني الذي يقوم على أساس التحقيق الكامل للمسيحية ـ الصهيونية المسيحية. محمد السماك ص٧٠).

وهناك أيضاً من الدعاة على هذه الشاكلة، ريتشارد داهان الذي يصل برنامجه إلى ٤,٥ مليون عائلة، وجيم بيكر الذي يصل برنامجه إلى ما يقارب ٦ ملايين عائلة وتحقق محطته التلفزيونية أرباحاً سنوية صافية تصل إلى ثمانين مليون دولار في السنة الواحدة..

ويقع الداعية (التدبيري) ركس هامبارد في ذيل قائمة خمسة النجوم من الدعاة، فصوته يصل إلى ٣,٧ مليون عائلة أمريكية ـ أي نحو ٤,٤ بالمئة من المواطنين المشاهدين وتشير مواعظه إلى بشارة تقول: (إن الله كان يعرف منذ البداية الأولى، أننا نحن الذين نعيش اليوم، سوف ندمر الكرة الأرضيّة ـ المصدر السابق).

وتقول المعلومات التي توردها غريس هالسل في كتابها النبوءة والسياسة ـ ترجمة محمد السماك ص٢٩ و ٣٣ أنه: ـ (من بين أربعة آلاف أصولي إنجيلي يشتركون سنوياً في مؤتمرات الإذاعات الدينية الوطنية، هناك ثلاثة آلاف منهم (أي زهاء ٨٠ بالمئة) يعتقدون بأن كارثة نووية فقط، يمكن أن تعيد المسيح إلى الأرض، وهذه الرسالة الإبادية والدينية، تذهب إلى ١٤٠٠ محطة دينية في أمريكا، ومن بين ٨٠ ألف لاهوتي إنجيلي يذيعون يومياً من ٤٠٠ محطة إذاعية، فإن الأكثرية الساحقة منهم يتبعون خُطى الكارثة النووية التي ستعيد المسيح إلى الأرض) (المصدر السابق).

(٤)

خطايا يمحوها الاعتراف

لم يفتّ من عضُد الكنيسة الأصولية، كون بعضها بأشخاص قادتها الكبار، كانوا قد تعرضوا لفضائح مالية أو جنسية، فبالنسبة إلى الشعب الأمريكي، فإن الاعتراف العلني بالذنب، يكفي لجلب المغفرة وتجديد النفس، فقد طردت الكنيسة القس جيم بيكر صاحب ثالث أشهر محطة تلفزيونية إنجيلية التي يشاهدها ستة ملايين منزل (٦,٨ بالمئة من المشاهدين في أمريكا)، كما طردت زوجته لانغماسهما في فضائح مالية وجنسية، وقد اعترف القس بيكر بإرغامه فتاة اسمها (جيسكا هاجن) تعمل في الكنيسة، على ممارسة الجنس معه ومع

مساعده، كما اعترفت زوجة بيكر بتعاطيها حبوب مخدرات تبعث على الهلوسة، أما القس جيمي سواغرت، الذي تصل دروسه إلى ٤,٥ مليون منزل، والذي قُدر الدخل السنوي لكنيسته المرئية بمئة وخمسين مليون دولار، فقد اعترف بأنه من المهووسين باقتناء صور العاريات تماماً في المحلات الجنسية، وحين سُئل عن طبيعة العلاقة بينه وبين غانية كانت في بيته، أجاب (لقد طلبتُ إليها أن تؤدي أدواراً خليعة ولم يكن ثمة علاقة جنسية بيني وبينها ـ هيرالد تربيون ٢٣ شباط ١٩٨٨). وقد قدم القس سواغرت اعترافه هذا أمام ثمانية آلاف من المصلين من أتباعه، حيث قرر المجلس التنفيذي لكنيسة لويزيانا فرض عقوبات بحقه (أي إعادة تأهيله) لمدة سنتين ومنعه من الوعظ لمدة ثلاثة أشهر!..

وقد كشفت الفضائح المالية بصورة خاصة، حمى التنافس بين كنائس باتت بمثابة إمبراطوريات مالية حديثة، فالدخل السنوي مثلاً، للقس بيكر تجاوز في العام ١٩٨٦ مجموعاً وقدره ١٧٠ مليون دولار، أما القس بات روبرتسون النجم الأول بين خمسة نجوم من رجال الكنيسة الأصولية، فقد وصلت موازنة شبكته التلفزيونية إلى أكثر من ٢٢٢ مليون دولار، وقد كان من اعترافات هذا القس، بأنه عمل على تزوير تاريخ الزواج من زوجته بتقديمه مدة سبعة أشهر، لأن زوجته كانت حاملاً منه قبل ذلك دون عقد زواج شرعي (أما الرشوة التي قدمها بيده إلى الرئيس السوداني جعفر نميري لقاء موافقته على تمرير الفلاشا من يهود أثيوبيا، والتي بلغت٣,٥ مليون دولار، فكانت لا تستحق الاعتراف من روبرتسون ـ جريدة الدستور باريس ١٩٨٨/٣/٢١).

إلا أن ارتفاع نسبة الجريمة، لا بين الكبار فحسب، بل بين الأحداث من طلبة المدارس، ومعاناة المجتمع الأمريكي، من تفشي الإدمان على المخدرات بجميع أنواعها، ومظاهر الانحلال، وانتشار مرض الإيدز الفتاك، وشيوع العنف الدموي.. جعل المجتمع يهرول بكليّته إلى عالم الكنيسة الذي يحقق الاتصال بالقيم والمبادئ الأصولية، فالمجتمع بات يقبل الاعتراف وطلب المغفرة على سلوك مشين كان قد ارتكبه أحد رجال الدين المخطئين، والمجتمع لم يكن ضد عودة أي منهم لممارسة الأدوار القيادية في الحركة المسيحية الأصولية، إذ بعد احتجاب سنتين أو أكثر، عاد القس بيكر وزوجته في الشهر الأول من العام

١٩٨٩ إلى الشبكة التلفزيونية ببرنامج شهير عنوانه (مجدّوا الرب)، وما أن أطل من الشاشة الصغيرة حتى بكى موجهاً اللوم إلى الشيطان الذي أراد تحطيم روحه، كذلك فعل القس بات روبرتسون الذي ظل يعاشر زوجته قبل الزواج منها بأشهر طويلة..

ومع انتشار هذه الفضائح أو غيرها، فإن الاتجاهات الأصولية الواقفة وراء إسرائيل، ظلت تحرص أشد الحرص، على إبعاد كل ما من شأنه إثارة الريبة في النفوس، كالمصالح الشخصية والامتيازات الفردية لقادتها، وقد حددت أهدافها وغاياتها اتقاء لمرضاة الله واحتساباً لتحقيق نبوءاته التوراتية، أما الأغراض الحياتية فقد حددتها الكنيسة بخدمة المجتمع ومساعدته مادياً ومواساته روحياً.. ومن أجل الاسترشاد بمدى فعالية الخطوط الأصولية في الولايات المتحدة، فإن الكنيسة مالت إلى أحدث ما في التنظيم والإدارة من آليات عصرية، فوحدة الجماعة ومعرفتها بأهدافها المحددة تحت تناسق مؤسساتي متناغم، كان أول وحدة لقياس الفاعلية، وبالطبع فإن توسيع قاعدة الرعية الكنسية تحت قيادة كنسية كفوءة وخبيرة، كان معياراً من معايير نجاحها، أما التمويل عن طريق التبرعات وإنشاء المشاريع الاستثمارية في مكاتب الطيران وتنظيم الرحلات السياحية ذات الطابع الديني والسياسي إلى فلسطين، فكان من أبرز ما تعتمد عليه المؤسسة الكنسية، إضافة إلى مواردها الضخمة من خلال شبكاتها الفضائية المرئية أو محطاتها الإذاعية التي تبث إلى كل العالم.

هذا ويعدد الدكتور يوسف الحسن في كتابه البعد الديني في السياسة الأمريكية أهم جماعات الضغط من المنظمات المسيحية ـ اليهودية الأمريكية ص١٢٩-١٤٨ حيث منها السفارة المسيحية الدولية ـ القدس، وهي منظمة تحمل مشاعر العداء للعرب المسلمين وتعزو نشأتها إلى (إرادة الله من أجل تحقيق الراحة لصهيون واستجابة حب جديد لإسرائيل)، ولعل من أبرز نشاطات هذه السفارة إحياء الاحتفال بعيد العريشة اليهودي السنوي في مدينة القدس، حيث حشدت منظمة السفارة في العام ١٩٨٣ زهاء أربعة آلاف من المسيحيين الأمريكيين وغير الأمريكيين قدموا من أربعين دولة مختلفة، وفي العام التالي

١٩٨٤ تمكنت منظّمةُ السفارة من حشد سبعة آلاف من الحجاج المسيحيين الوافدين من خمسين دولة (زاروا الأماكن الدينية والمستوطنات وهتفوا جميعاً: القدس عاصمة موحدة وأبدية لإسرائيل ــ واشنطن بوست ١٣ تشرين الثاني ١٩٨٤) هذا ويوجد فروع ومكاتب ومكتبات للسفارة الدولية في العديد من المدن في إسرائيل.

أما النشاط الثاني الذي قدمته منظمة السفارة المذكورة صيف العام ١٩٨٥، فقد تجلى في الدعوة لعقد مؤتمر صهيوني ـ مسيحي، في المكان نفسه الذي انعقد فيه أول مؤتمر صهيوني عام ١٨٩٧ بقيادة هرتزل في مدينة بال السويسرية.. وقد تمكنت المنظمة من (حشد ستمئة شخصية من كبار القيادات المسيحية حضروا من سبع وعشرين دولة، ملبيّن دعوة المنظمة، كما حضر على هامش المؤتمر المذكور، مراقبون من الصين والهند ونيجيريا وسري لانكا وساحل العاج وزائير والغابون ـ واشنطن بوست ـ ٣١ آب ١٩٨٥).

ويعلق القس الأمريكي ديفيد لويس رئيس منظمة (مسيحيون متحدون لأجل إسرائيل) بأن هذا المؤتمر بدا (كـأعظم حوار لاهوتي في تاريخ المسيحية، حول وحدة المسيحية ـ اليهودية ودعم المطالبة باعتراف الفاتيكان بإسرائيل ــ المصدر نفسه). وفي نهاية المؤتمر وافق المؤتمرون على إنشاء صندوق دولي برأسمال قدره مئة مليون دولار يتم استثمارها في إسرائيل. ثم ما لبث أن أصدر لائحة بنتائج أعماله حيث تضمنت اللائحة أربعة عشر قراراً جاءت كلها لمصلحة إسرائيل*.

وتنشط منظمة السفارة، التي تساندها الحكومة الإسرائيلية والكنائس الحرفيّة في أفريقيا وأوروبا والولايات المتحدة في أعمال شتى مثل إقامة الصلوات الدولية، وتنظيم شبكة استخبارات لتزويد إسرائيل بالمعلومات، وتسيير مظاهرات وتوقيع عرائض، وإقامة مؤتمرات صحفية وحملات بريدية دعائية، وتقليد تنظيم احتفالات سنوية دورية (شهر أيلول) بجمع ألوف الحجاج المسيحيين إلى مدينة القدس، وتشجيع شراء المنتجات الإسرائيلية مع عرض سندات إسرائيلية لبيعها

* لمزيد من التفاصيل راجع يوسف الحسن البعد الديني صفحات ١٣٤-١٣٥.

إلى الكنائس الأمريكية، كذلك القيام بجولات سياحية والطواف على المستعمرات الإسرائيلية، حتى أن (السفارة) قامت بدعاية واسعة للتبرع بالدم لجيش الدفاع الإسرائيلي أثناء غزوه للبنان عام ١٩٨٢.

ورغم أن منظمة السفارة تمتلك اتجاهاً صهيونياً خالصاً، تجلّى في تأييد المتطرفين من زعماء إسرائيل أمثال بيجن وشامير وآرينز وتيدي كوليك.. وغيرهم، إلا أنها مع ذلك تعرضت لهجمات متطرفين مهووسين من أمثال الحاخام كاهانا (الذي قُتل في أمريكا) والحاخام وليفنجر الذي قال (إنني أشعر بالمهانة عندما أسمع بأن منظمات مسيحية نشأت على نار معاداة السامية، ثم تقوم بالتبشير في بلادنا).

إن أخطر ما في نشاط منظمة السفارة، قيامها بزرع الفتن بين العرب الفلسطينيين من مسلمين ومسيحيين، وقد ازدادت التقارير التي تروي حوادث الاعتداء والحرق المتعمد وإلقاء القنابل والقتل التي يرتكبها إرهابيون يهود ضد الطوائف الفلسطينية، ووضع الجريمة على كاهل طرف ما لإثارة روح الانتقام، وفوق ذلك، فإن ثمة توتر بين المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين في الآونة الأخيرة (مشكلة المسجد في الناصرة) وهذا التوتر لم يكن معروفاً طوال تاريخ فلسطين العربي، وتستطيع منظمة السفارة بادعائها المسيحية، أن تكون أداة لتحريك البغضاء الدينية التي تهدد الشعب الفلسطيني في وحدته الوطنية ــ التي عاشها منذ العهدة العُمرية وحتى يومنا هذا..

ثم تأتي حادثة تفجير المسجد الأقصى في العاشر من آذار ١٩٨٣، فقد أوقفت السلطات الإسرائيلية، خمسة وأربعين من منظمة (أنصار جبل الهيكل) بتهمة الاستيلاء على المسجد الأقصى، وبعد ثلاثة أسابيع ظهر إعلان غطّى نصف صفحة من صفحات جيروزاليم بوست، ويدعو الإعلان إلى إطلاق سراح المعتقلين بحادثة الأقصى، كما وصف الإعلان هؤلاء بأنهم (مخلصون مؤمنون بحق إسرائيل في الحياة) وأن توقيفهم (لا يتقبله ضمير مؤمن بالمعايير التوراتية)، وكان ناشر الإعلان منظمة مجهولة سمّت نفسها: لجنة الإنجيليين العاملين من

أجل حرية العبادة على جبل الهيكل، ويقول تقرير مجلس كنائس الشرق الأوسط (الكراسة الصادرة عن دار الوحدة ـ بيروت. ٨٢) بأن الرؤساء الحقيقيين لإرهابيّي جبل الهيكل، كانوا ثلاثة من أشد الصهيونيين ـ المسيحيين تطيراً، وهم: تيري رايزنهوفر، ثري النفط في أوكلاهوما، وتشاك كريغر رجل الأعمال المعروف في كاليفورنيا، والقس جيمس دي لوتش وهو رجل دين معروف في هيوستن، ولم تتوان هذه العصبة عن إعلان هدفها جهاراً، من أنها تنوي تدمير قبة الصخرة، وإعادة بناء الهيكل الثالث مكانها، هذا ويمتلك رايزنهوفر وكريغر أعمالاً في إسرائيل وجنوب أفريقيا، وقد قاما بأعمال حفر في الضفة الغربية تنقيباً عن النفط في فلسطين، وقد اكتشفت إسرائيل بأن كل هذه الحماسة لجبل الهيكل، هدفها إقامة منظمة دينية تكون بمثابة (مُهرّب من الضرائب) بحسب نظرية أنظمة الولايات المتحدة وإسرائيل بخصوص مداخيل المنظمات الدينية. أما المهندس الأول في مجموعة الهيكل لنسف الأقصى، فكان (ستانلي غولدفوت) أحد أكبر إرهابيي شتيرن في الأربعينات، وقد تلقى غولدفوت من مؤسسة رايزنهوفر وكريغر، مبلغ خمسين ألف دولار كسلفة على عمله المرتقب، وقد وصف القس تشاك سميث من كوستاميزا بولاية كاليفورنيا، هذا الإرهابي بصيغة محببة تقول: (أتريدون متطرفاً حقيقياً؟ إليكم بستانلي غولدفوت.. إنه رائع.. خطّته من أجل جبل الهيكل، هي أن يأخذ أصابع ديناميت وبعض البنادق الرشاشة من نوع إم ١٦، وينسف قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ثم يطالب بموقعه التاريخي ـ المصدر السابق ص٨٤).

ويبدو أن فريق رايزنهوفر ـ كريغر، ظل على صلة مباشرة مع البيت الأبيض، ووزارة الخارجية أثناء رئاسة رونالد ريغان، ومن نماذج هذه الصلة، ذلك الاستقبال الشهير الذي أقامته الرئاسة الأمريكية في ١٩ آذار من العام ١٩٨٤، حيث ضم ما يربو على ١٥٠ مدعواً من كبار زعماء مبدأ العصمة الحرْفيّة، وزعماء منظمات صهيونية كبرى، ومن بين الحضور كان مؤسس اللوبي اليهودي ايباك السيد ل. كينان وكذلك المدير التنفيذي لمنظمة الأمريكيين العاملين لأجل إسرائيل، ورئيس المنظمة الصهيونية العالمية، وكان نجوم الفضائيات الدينية من

أمثال هال لندسي وجيمي سواغارت وجيم بيكر وتيم لاهاي من المدعوين أيضا، ولم يكن هذا الجمع، ليضم أي أسود أو عربي أو إسباني أو كاثوليكي أو أرثوذكسي أو بروتستانتي مسيحي من الكنائس التي تدعو إلى احترام حق الفلسطينيين في الحياة..

وفي نهاية الاستقبال، أدلى رايزنهوفر ـ زعيم عصبة الهيكل ـ بدلوه، مفصحاً: (بأن اجتماعنا هذا إنما هو لإبلاغ الناخبين بأن الرئيس ريغان يؤيد المنهاج السياسي لهذه المنظمات) ـ ويذكر تاريخ الكنيسة الأمريكية القريب، منظمات مسيحية، يهودية لا حصر لها، ومن هذه المنظمات الدينية ـ السياسية والاجتماعية، منظمة المائدة المستديرة الدينية، ومؤتمر القيادة المسيحية الوطنية لأجل إسرائيل، ومنظمة: مسيحيون متحدون من أجل إسرائيل، والمصرف المسيحي الأمريكي لأجل إسرائيل.. كما أن هناك منظمات صغيرة يُقدر عددها بمئتين وخمسين منظمة، (كمنظمة تاف) التي تأخذ اسمها من الأحرف الثلاثة الأخيرة من الأبجدية العبرية، ورابطة الصهيونية المسيحية لدعم إسرائيل، واللجنة المسيحية الأمريكية لنصرة إسرائيل، وجماعة ليلة لتكريم إسرائيل، إضافة إلى رابطة الصداقة الإسرائيلية الأمريكية ومقرها في نيويورك، حيث يضم مجلس إدارتها ما يربو على خمسين نائباً أمريكياً.

ومن بين هذه المنظمات، منظمة الكونغرس المسيحي الوطني الذي تم إنشاؤها في العام ١٩٨٠، حيث تهدف إلى توحيد المسيحيين صفاً واحداً وراء الوطن القومي اليهودي، وقد شارك لاهوتيون بروتستانت ورهبان كاثوليك مع المجلس الوطني للكنائس في حفل إنشاء هذه المنظمة التي تقول في ميثاق تأسيسها: ـ إن إنشاء إسرائيل هو إيفاء للنبوءة التوراتية.

مسيحية ويهودية في التاريخ

(١)

كان النفيُ بالتجاوز لا بالاندماج

اتخذ العهد الجديد مظهره كمجموعة مؤلفة من سبعة وعشرين سفراً مختلفة الحجم وباللغة اليونانية، اعتباراً من أواخر القرن الثاني الميلادي، وقد حظيت نصوص العهد الجديد بالمكانة المقدسة لدى المسيحيين، تماماً مثلما كان لنصوص العهد القديم من أهمية سامية لديهم، حيث كانت تسمى حسب المصطلح اليهودي، كتاب الشريعة والأنبياء، وقد درج اللاهوتيون الأوائل من المسيحيين على تسمية نصوصهم بالعهد الجديد سعياً للتمييز الذي أقامه بولص الرسول، وذلك حسب رسالته الثانية إلى أهل قورنتس، حيث تشير إلى أن تلك النصوص تحتوي على أحكام عهد جديد، تحدد عباراته أحكام العلاقات بين الله وشعبه، في المرحلة الأخيرة من تاريخ الخلاص، أما عبارة العهد القديم، فقد أطلقها المسيحيون الأوائل، على المجموعة التي كانت في ماضي أيامهم، تطلق على كتاب الشريعة والأنبياء، وأشاروا صراحة إلى أنهم يرون في تلك المجموعة قبل كل شيء، ما فيها من أحكام العهد الموسوي القديم الذي جددّه يسوع بل وتخطّاه.

وككل أثر قديم، يجب أن يُدرس في تاريخه وجغرافيته وثقافته، فإن ما يفصلنا عن العهد الجديد، قد يكون عقبة في وجه حُسن التأويل وأدب التفسير، ولابد والحال على ما ذكر، من أن يقوم دارس اليوم بإمعان النظر في البيئة التي نشأ فيها العهد الجديد، كذلك البحث المتمعن في الأحوال التي حملت المسيحيين الأولين على إعداد مجموعة جديدة لأسفارٍ مقدّسة خاصة بعهدهم، ومهما كان الاختصار في الاستهلال، فإنه لابد لمدخلٍ عن العهد الجديد، أن يلحظ كيف أن هذه النُصوص قد نسخت ثم نسخت مراراً عبر العصور، حيث اجتازت أكثر من

أربعة عشر قرناً من الأحداث إلى حين تسليمها لحرف الطباعة المعدني على يد غوتمبرغ في العام ١٤٥٦.

كانت السلطة العليا في أمور الدين تتمثل عند مسيحيي الجيل الأول في مرجعين: الأول وهو العهد القديم، وكان الكتبة المسيحيون الأولون يستشهدون بجميع أجزائه على وجه التقريب، استشهادهم بوحي الله، أما المرجع الآخر الذي ازدهر ازدهاراً سريعاً، فقد أجمعوا على تسميته (الرب) وهذا المرجع باسمه الجديد، كان يطلق على التعاليم التي ألقاها يسوع (حسب رسالة بولص الأولى إلى أهل قورنتس) وسلطة الذي قام من بين الأموات وتكلّم بلسان الرسلْ (حسب الرسالة الثانية لبولص إلى أهل قورنتس)، وكان لهذين المرجعين قيمة القياس في أمور دينية كثيرة، إلا أن العهد القديم كان وحده يتألف من نصوص مكتوبة، وأما أقوال (الرب) وما كان يبشر به الرسل، فقد تناقلتها ألسنة الحُفاظ شفاهاً من جيل إلى جيل، ولم يشعر المسيحيون الأوائل بقيمة التدوين، إلا وهم يودّعون آخر الرسل الذين رووا عن المسيح، وما من شك أن العبارة التي كانت تلامس شغاف قلوب المؤمنين بالمرويات الشفوية، كانت أعظم أثراً منها في المدوّنات المكتوبة، حيث من العين إلى العين ومن القلب إلى القلب.

وحتى العام ١٥٠ ميلادية، فقد تدرّج المسيحيون نحو إنشاء مجموعة من الأسفار المقدسة، تدرجاً وئيداً تلقائياً لم يغلب عليه طابع المهمة المبيّتة، ومن المرجح أنهم جمعوا في البدايات رسائل بولص، ثم استعملوها في حياتهم الكنسية، ولم تكن الغاية أو القصد تأليف ملحق بالكتاب المقدس كما جرى لاحقاً، فإذا كانت وثائق بولص مكتوبة، فإن التقليد الإنجيلي كان ما يزال في معظمه متناقلاً على ألسنة الرواة من الحفّاظ، فضلاً عن أن بولص نفسه كان قد أوصى (حسب رسالته الأولى إلى أهل تسالونيقي) بتلاوة رسائله وتداولها بين الكنائس المتجاورة..

ولعل الكثير من المؤلفين المسيحيين الذين قرأوا رسائل بولص منذ القرن الثاني الميلادي، كانوا قد جمعوا هذه الرسائل وبعثوا بها إلى الأمصار مما أدى

إلى انتشارها بصورة سريعة وواسعة لما لبولص من شهرة منتشـرة، وقـد عوملت هذه النصوص معاملة الكتاب المقدس، أما الأناجيل فقد اكتسبت صفتها القدسـية بصورة تدرجيّة، اعتباراً من منتصف القرن الثاني للميـلاد حيـث التـاريخ الحاسـم لتكوين قانون (قواعد) العهد الجديد، وتشير الشواهد التاريخية، من خلال شـهيد المسيحية يوستينوس، إلى أن المسيحيين في هذا الزمـن (١٥٠ ميلاديـة) يقـرؤون الأناجيل في صلوات يوم الأحد، وأنهم يعدونها مؤلفات الرسل (أو مؤلفات أناس ذوي صلة وثيقة بالرسل)، وأنهم يولون هذه الأنـاجيل منزلـة الكتـاب المقـدس.. ولم تكن هذه المنزلة تعود في قداستها لأصلها الرسولي، بـل لأنهـا تـروي آيـات (الرب) وفقاً للتقليد المتناقل، وقد مَسَّتْ الحاجـة فيمـا بعـد، إلـى التشـديد علـى الأصول الرسولية للأناجيل، لكثرة المؤلفات الشـبيهة فـي ظاهرهـا، فـي حيـن أن محتواها يعود في معظمه إلى أساطير سخيفة، بل لعلها أقرب لما تكون إلـى نسـج الخيال في حالة الهذيان، وقد نالت الأناجيل الأربعة، كما رواها القديسون: متّـى ومرقس، ولوقا، ويوحنا، إيمان الناس بها، نظراً لما تحلت به من استقامة الصفـة، وصحيح الشهادة، وصدق القول. وكما أن العهد القديم كان مؤلفـاً مـن قسـمين أساسيين، الشـريعة والأنبيـاء، فـإن العهـد الجديـد انقسـم بـدوره إلـى الأنـاجيل والرسل، وكانت المفارقة التاريخية هي أن رسائل بولص لـم تدخـل قـانون العهـد الجديد، الواحدة بعد الأخرى، بل إن مجموعتها دخلت إليه برمتها دفعة واحـدة، وذلك حين غلب على الكنيسة ميلٌ قوي للحصول على قانون العهد الجديد، وقد تم الاعتراف بصفة الرسائل الإلزامية في كنائس ما بعد القرن الثاني للميلاد.

إن استعراضاً ما لحصيلة هذا التطور، يظهر فوز الأناجيل الأربعة فـي المَواطِـن المسيحية دون نزاع يذكر، وقد اعتبر المسيحيون الأوائل بأن قانون الأنـاجيل قـد اكتمل مع هذه المرحلة، وأما القسم الآخر من أسفار الرُسل، فقد تـم الاستشـهاد برسائل بولص الثلاث عشرة، وبسفر أعمال الرُسل، وبرسالة بطرس الأولى، لكـن البلبلة ما زالت تتردد في بعض الأمور، فإضافةٍ إلـى بعـض المؤلفـات التـي قبلتهـا الكنيسة قبول الشعور النامي بنشدان الوحدة الكنسية، فإن هناك عـدداً كبيراً مـن المؤلفات الحائرة التي يُنظر إليها بعيـن الشـك المريـب، ومـن ذلـك مثـلاً رسـالة

بولص إلى العبرانيين، ورسالة بطرس الثانية، وكل من رسالة يعقوب ويهوذا، ويشهد قانون العهد الجديد، إخراج مؤلفات علقت به لمدة طويلة، مثل مؤلفات هرماس الحاملة لعنوان الراعي، ومؤلفات الديداكي ورسالة برنابا ورؤيا بطرس.. إذ أن كل مؤلف لم يثبت نسبته إلى رسول من الرسل، فإنه كان يفقد مكانته، وحتى القرن الثالث الميلادي، فقد ظلت بعض الأسفار محل نزاع على صحة نسبتها إلى الرسل، وكانت رسالة بولص إلى العبرانيين والرؤيا موضوع أشد المنازعات على الإطلاق، وقد تم إنكار نسبتهما إلى الرسل مدة طويلة من تاريخ الكنيسة، أما الغرب فقد أنكر إنكاراً شديداً، رسالة بولص إلى العبرانيين، فيما أنكر الشرق صحة الرؤيا، وقد زاد الاهتمام بوحدة الكنيسة والإقرار بحق الصدارة لسلطة كنيسة روما، في تخفيف ما ظهر من الخلافات خلال القرن الرابع، ولو أن هذا التسامح، كان قد أدى فيما أدى، إلى اقتحام الإسرائيليات مجال الإنجيل بصورة شبه مؤكدة.

إن الأسفار التي أُعترف بقانونيّتها، أصبحت بناء على اتفاق الكنيسة، نصوصاً مقدسة منحتها الحصانة مكانة الحفظ، إلى أن وصلت إلى عهد الطباعة أواسط القرن الخامس عشر، ولم تحظ المؤلفات الأخرى بالمكانة نفسها، إلا أنها مع ذلك حُفظت في بعض الكنائس في حالة حسنة، كرسالة برنابا، مع أنها لم تدخل قانون العهد الجديد رسمياً، وعُدّت المؤلفات الأخرى، مؤلفات منحولة تعود إلى بيئة متحزّبة، لا تستطيع الكنيسة أن تبني عليها لا في العقيدة ولا في الإيمان، ولذلك لم تأذن بقراءتها أثناء إقامة شعائر العبادة في يوم الأحد، ومنذ ذلك الوقت، فقد اعتبرت كلمة منحول بمثابة الذم، وغدت المؤلفات المنحولة كما اعتبرها الناس، وسائل لنقل الضلال.

أما أعمال الرُسل المنحولة، فتُعتبر على العموم - من وجهة نظر كنسية رسمية - مؤلفات بُنيت على النوايا الحسنة، كي تكون قدوة محتذاة للمسيحيين، وهي تهدف في النهاية، إلى تعظيم سيرة الرُسل، غير أن رسالة الرسل التي كتبت في نحو السنة ١٥٠م جاءت أقرب ما تكون إلى فنّ الرؤى، فهي لا تشبه الرسائل

المعترف بها من حيث أنها أشبه بمقالات مُتطّيرة يغلب عليها السخف، وأما الرؤى المنحولة فيمكن ذكر رؤيا بولص التي تتحدث عن خطف الرسول إلى السماء الثالثة، كذلك رؤيا بطرس التي تتحدث عن زمن المستقبل والنعيم والجحيم، وكذلك ما ورد في ذكر الراعي لهرماس، وكلها رؤىً لصاحٍ ذي خيال مُستلب. إن أقدم مخطوطة للعهد الجديد، والتي تعود إلى القرن الرابع للميلاد، هي ما يُسمى بالمجلد الفاتيكاني المحفوظ في مكتبة الفاتيكان، ولا يحتوي هذا المجلد القديم على رسالة بولص إلى العبرانيين، ولا على رسالتيه الأولى والثانية إلى طيموتاوس، ولا رسالته إلى طيطس، أو رسالته إلى فيلمون والرؤيا.. أما المجلد السينائي الذي عُثر عليه في دير القديسة كاترين في سيناء، فإضافة إلى العهد الجديد فإن هناك الرسالة إلى برنابا، وشيئاً من مخطوطة الراعي لهرماس، وهذا المجلد محفوظ الآن بالمتحف البريطاني التاريخي في لندن، ومهما يكن من أقدمية هذه المخطوطات فإنه من الثابت اليوم، بأن اختلاف نصوصها كان متفاوت الأهمية، ويعود ذلك إلى اختلاف النُسّاخ في العصر الواحد نفسه، المتولّد عن اختلاف البيئة والأماكن والحياة الثقافية والفلسفية أو الدينية السابقة على المسيحية، كذلك اختلاف النُسّاخ من عصر إلى آخر، ولا ريب أن الكنيسة الرسمية، سعت عبر العصور، لتنقية النصوص من أدران الإضافات التي شابتها، سواءً عن طريق النقد الخارجي للنص (زمانه ومكانه وترجمته والشواهد المتقاطعة فيه..) أو عن طريق النقد الباطني له (مثال الناسخ ونوع تدخلّه مزاجه وخلفيّاته..) ومع ذلك فإن هذه المدارس وسواها، مما توصل إليه علم نقد النص، لا تستطيع أن تصل إلى الأصول الحقيقية بيقينٍ راسخ.

(٢)

أجواء المسيحية الأولى

لقد نشأت المسيحية بين ظهراني شعب عاش تاريخاً مضطرباً فاليهود الذين عادوا من السبي البابلي على يد قورش الفارسي، وجدوا أن فلسطين تغيّرت بتغيّر الأزمان والحكام، ففلسطين الصغيرة، أصبحت نهباً لمصالح قوىً عالمية عاتية لا

قِبَلَ لليهود بمواجهتها، وجرياً مع التاريخ المُضّخم فإن اليهود تعرضوا، لعقائدهم المناهضة لوثنية القوى العظمى، إلى اضطهاد شرس من قبل ورثة الإسكندر الكبير في فلسطين، خاصة في عهد أنطيوخس الرابع ايفانيوس ما بين ١٧٥-١٦٤ قبل الميلاد، وكانت ذروة العنف قد تبدّت في تحويل هيكل أورشليم إلى عبادة جوبتير الأولمب، إله المدينة اليونانية، ويروي تاريخ اليهود روايات مُبّجلة عن ثورات المكابيين الذين حققوا انتصارات ضد ورثة الإسكندر في فلسطين*، واستعادوا قدراً من الاستقلالين السياسي والديني لمدة ستين عاماً على يد سلالة الحشمونيين الذين ينتسبون إلى جدهم يهودا المكابي، ثم جاءت روما بسلالة هيرودوس التي أبغضها اليهود لأصلها الآدومي، إذ لم تكن من سلالة داوود، وبعد وفاة هيرودوس المؤسس، تولى الجليل والبيرة من شمال فلسطين ابنه هيرودوس انطيباس، حيث دام من ٤ قبل الميلاد إلى ٣٩ بعد الميلاد، وقد عرف عنه قتله للقديس يوحنا المعمدان واشتراكه في محاكمة يسوع..

أما السلطة العامة في فلسطين حتى هذا التاريخ، فكانت في أيدي الرومانيين الحكام منهم أولا الولاة، وقد ذكر العهد الجديد منهم: بنطيوس وبيلاطوس وفيلكس.. وفي انقطاع تاريخي عن سياق السيطرة الرومانية لفلسطين، تمكنت سلالة هيرودس من العودة الثانية لحكم فلسطين، بشخص الملك أغريبيا الأول، فكان هذا أول مضطهدي الكنيسة الناشئة، ثم تفاقمت الأحوال باضطراب الشؤون الحياتية والسياسية إلى أن جاءت المرحلة التي شهدت خراب أورشليم والهيكل على يد ولاة روما في العام ٧٠ ميلادية، وكان هذا الخراب، يؤذن بنهاية اليهودية التي منيت بأسوأ كارثة في تاريخها الديني والسياسي حيث الشتات الجماعي - بعد بابل - إلى أقطار حوض البحر الأبيض المتوسط، وبلاد الجزيرة العربية، وما بين النهرين، وبلاد فارس، وكانت الجماعات اليهودية

* نجنح هنا إلى كتابة التاريخ من مصادر الأسطورة، لا كما هو تاريخ التاريخ الموجود في الوثيقة والأثر والرسائل، والحقيقة أن هزيمة ورثاء الإسكندر، أو كما سمّتهم المنطقة بالسلوقيين، تعود في جوهرها إلى نزاعاتهم الدموية بين بعضهم مع بعض، ثم إلى حروب روما التي أرادت انتزاع المنطقة من سيطرتهم.. لا إلى البطولات الأسطورية الإسقاطيّة..

الكبرى قد استقرت بشكل أساسي في الإسكندرية وأنطاكيـة وروما. ولـم تحُـل أنظمة هذه البلدان، التي كانت تجيز قانون الأحوال الشخصية، من ممارسة اليهود لإدارة دينية ومدنية قائمة على شريعة موسى، ورغم عداء الجماعات المحلية التي عاش اليهود بين ظهرانيها، لاختلاف الديـن والتقليد والسلوك.. إلا أن اليهودية لم تتعرض لا في روما ولا في الإسكندرية أو أنطاكيا لما سُمّي لاحقاً بالعداء للسامية، ومن المرجح أن اليهود هم الذين كانوا يجلبون العداوة لأنفسهم، نظراً للتميز والعزلة وداخلية التزاوج وكراهية الأغيار*، وكان المجمع (دار العبادة اليهودية) ملتقى اليهود الذي يعمل بمثابة مدرسة سياسية ودينية بآن واحد.

وكانت اليهودية في السنوات الأولى لرسالة المسيح، تنعم بكثير من الحرية من لدُنّ السلطات الحاكمة، فالتوراة يجري شرحها شفاهة وكتابة من قبل الربانيّين والكتبة دون عرقلة تذكر، وأما المشناة كتاب اليهود في الشريعة والتفسير، فقد تم تكوينه مع التلمود (كتاب التعاليم)، جنباً إلى جنب مع نهوض الرسالة المسيحية، ويذهب المؤرخون إلى أن المشناة والتلمود، تم استكمالها أواسط القرن الثالث الميلادي، وظلَّ اليهود في هذه الأزمنة، ينظرون إلى أورشليم على أنها مركز العالم التي سيتجلى الله فيها في آخر الزمان، وقبل تهديم الهيكل على يد القائد آدريان الروماني، كان اليهود يجمعون ضريبة الدرهمين لحاجات الهيكل، فيما يقوم الكهنة من سلالة هارون على خدمة الهيكل، يعاونهم اللاويّون الذين هم من أنصار الهيكل، وستتشكل طائفة الصدوقيين المحابية لولاة روما من كهنة الهيكل واللاويّين، في مواجهة طائفة الفريسيّين المتشددين، الذين يرون الخلاص في مواجهة روما الوثنية، وحلفائها من اليهود الآخرين. وقد رأى اليهود فيهم مواطنين مخلصين للرب والشريعة، سليلي (الحسديم) المشهورين أيام الثورة على أنطيوخس اليوناني، ومثّلت النزعة الفريسيّة بعد خراب الهيكل وأنصاره من

* كل من ليس يهودياً من أم يهودية فهو غير، ومجموعها الأغيار (جوييم)، وقد مارست اليهودية عبر عصورها، ألواناً من الكراهية السوداء لكل (أغيار) العالم.

الصدوقيين، اليهودية الرسمية، وكان في زمن يسوع على هامش الطائفتين اليهوديتين، شيع يهودية أخرى..

كان الجناح المتطرف للفريسّيين ما بات يعرف بشيعة الغيوريّين، وقد أراد الغيوريون فرض أحكام الشريعة حتى ولو بالقوة، ولم يتوان الشعب عن وصفهم بقطاع طرق رعاع وقساة، فقد صادف أن الغيوريّين كانوا ينزلون عقوبة الموت في كل مَنْ كان في نظرهم مذنباً، يرتكب المخالفات بحق الشريعة، وقد كان بولص، قبل أن يصبح مسيحياً، على صلة تحزُّب بشيعة الغيوريّين، وإلى جانب هذه التيارات الدينية، نشأ الأسينيون الذين جاء ذكرهم في مخطوطات قمران على البحر الميت ـ وقد ناصب الأسينيون العداء الشديد للسلطات اليهودية الدينية القائمة، ورغم تشددهم فقد تقبّلوا أفكاراً أجنبية كيفوها ومذهبهم اللاهوتي، خاصّة ذلك المذهب القائم على التناقض في الإنسان نفسه، ما بين نزعة الخير ونزعة الشر، إذ تتحاربان في معركة لا هوادة فيها حتى اليوم الأخير من حياة الإنسانية، حيث يُشاهد النصر وقد تحقق، يحرزه مَلاكُ النور على ملاك الظلام. وليس بعيداً أن المسيحية الأولى، كانت قد أفسحت في المجال لتلك الآراء المنتشرة، وأنه ساد الجماعات المسيحية في أورشليم تفكير وسلوك مطبوعان بما لدى الأسينيين من تفكير وسلوك، ولو لمدة من الزمن. فقد زال الأسينيون من الوجود مع زوال الهيكل والصدوقيين واستغّل الغيوريون بعدهم، استغلالاً شديداً مدى الغيظ الذي عبأ اليهود ضد الرومان، وقد ازدهرت في هذه الأزمنة جميع المعتقدات المستوحاة من خيالات الرؤى، وشاهدت ذروة نموّها منقولةً عن القرن السابع للميلاد، حيث عانى الناس من عسف حكام روما، ومنذ ذلك التاريخ بين عهدين، قبل الميلاد وبعده، بات يقين اليهود يترسخ، بأن الله لن يلبث أن يرد على تحدّي الطغاة من الرومان في الأرض المقدسة، وأنه لا بد أن يسترد عدله بإعادة شعبه المختار إلى دياره، إذ يبسط ملكوته على الأرض بسطاً يبهر العيون، وأن هذا التدخل الإلهي، سيضع حداً لشدائد اليهود، مُدّشناً عهداً خالياً من الشر والإثم، يجيء بعد زلزلة من الكوارث والنكبات يرافقها مسح أعداء الله من الوجود إلى غير رجعة.. إن جملة هذه العقائد اليهودية في تصوير نهاية الزمان، شكلّت فيضاً من أدب الرؤيا المبني على سيكولوجيا الانتقام والإبادة، إلى

درجة القبول بمبدأ إفناء البشرية كلها، في سبيل خلاص بضعة ملايين منها !.. ومع اقتراب العهد المسيحي ازداد تطيّر الرؤى سواداً فوق سواد، حيث بلغت بلايا إسرائيل مبلغاً لن يستقيم معه ظهور مسي بشري (مسيح منتظر)، يستطيع أن يفعل لشعب إسرائيل المعجزات، ومن أجل إسرائيل وفي سبيلها، فقد نظرت رؤى الكهنة من اليهود، إلى التحول المرتقب على أنه تحول شامل، لا يحدث إلا بعد أن يلفّ الكون كله، حيث كما وُلدت منيرفا من رأس جوبيتر، سيولد بغتةً، عالمٌ جديد، سعيد برمّته، يعيش على دماء البشرية. وعلى ما يبدو، فإن مشاهد الرؤيا، ليست كلها من نسيج واحد، فكما كان النُسّاخ ينسخون باختلاف بيني، ثم باختلاف العصور، كذلك هي الرؤى في الكتاب القديم، فبعض مؤلفي الرؤى نظروا إلى المسي المنتظر، على أنه المنقذ الذي مسحه يهوه قبل أن يرسله إلى العالمين ـ وبالتالي فهو من ذرّية داوود أي من طبيعة البشر، حيث يقوم بأعمال سياسية وعسكرية ترمي إلى محق أعداء الله، وهناك طائفة أخرى من مؤلفي الرؤى، نظرت إلى المسي المنتظر، بمظهر كائن من الملأ الأعلى أقرب إلى الله منه إلى البشر، إذ هو في جوهره، يمثل وجهاً سماوياً لا يتصل بحقيقة الإنسان أو بفيزياء حوّاسه (لأنه غير قابل للألم)، ومن هنا بدأ افتراق المسيحية عن تصور اليهود للمسي، فقد تنبّه المسيحيون إلى حكمة الألم في مصير يسوع الناصري، فاضطروا أن يبنوا معنى خاصاً بهم، لعودة المسيح ورؤى الأزمنة الأخيرة.

لقد انبجست الرؤى، من القساوة اليونانية الإسكندرية، أو من اضطهادات روما في عصور لاحقة، ورغم أن روما لم تكن تحضّ على اتباع دين ما، أو تعمد إلى تدمير آخر، فطالما أن هذه الأديان لا تعكر صفو الحياة الإمبراطورية، فإن الولاة لا شأن لهم بالتعرض إليها، إذ رغم وثنية روما التاريخية، فإن الأباطرة مثل تيباريوس وكلوديوس لم يشجعوا عبادة الإمبراطور إلا بعد موته، فيما ترك آخرون مثل كاليغولا ونيرون الناس على هواهم، سواءً أكانت العبادة للإمبراطور، حيًّا كان أم ميتاً، وفي ثنايا الرؤى كلام ساخن حول هذه المسألة الحسّاسة، فعبادة الإمبراطور كانت تعني الطاعة له والإخلاص لنظامه، أما عبادة الله فكانت تعني تلقائية الإيمان به، والخلاص عن طريق مشيئته، وقد أكد المسيح على نبذ

الدنيا في سبيل الدين (أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله) إلا أن المسيحي المؤمن بذلك أشد الإيمان، لم يجد مقابل هذا التسامح، إلا الشره لحصد ما لقيصر وما لله (الويل لكم أيها الكتبة والفرّيسيون المراؤون، يا أيها الذين يصفّون الماء من البعوضة ويبتلعون الجمل.. يا من تطهّرون ظاهر الكأس والصحن وداخلهما ممتلئ من حصيلة النهب والطمع - متّى ٢٣/١٧-٢٦).

إن المسيحية التي وقعت فريسة المجابهات مع العقائد الوثنية، ثم أكدت على مساواة المؤمنين بالمسيحية، سواءً أجاؤوا من أصول وثنية أم يهودية لتؤكد بأنها إنما جاءت كي تتمثّل وتتمم ثم لتتجاوز جميع شرائع ما قبلها، ولو كانت امتداداً طبيعياً لشريعة التوراة، فإن مجيئها يصبح نافلاً ولا لزوم له، ولعل هذه الآيات من (إنجيل متّى) تصور مدى البون الأقرب إلى القطيعة مع مسالك أبناء شريعة الأولين. يقول إنجيل متى عن البرّ القديم (اليهودي) والبر الجديد (المسيحي) ما يلي: -

(إني أقول لكم: إن لم يزد برّكُمْ على برّ الكتبة والفريسّيين، لا تدخلوا ملكوت السماوات، سمعتم أنه قيل للأولين: لا تقتل، فإن مِنْ يقتل يستوجب حكم القضاء* ، أما أنا فأقول لكم: مِنْ غضب على أخيه استوجب حكم القضاء. وسمعتم أنه قيل: لا تزنِ، أما أنا فأقول لكم: مِنْ نظر إلى امرأة بشهوة زنى بها في قلبه.. وقد قيل: من طلّق امرأته، فليعطها كتاب طلاق، أما أنا فأقول لكم: مِنْ طلّق امرأته، إلا في حالة الفحشاء، عرّضها للزنى.. وسمعتم أيضاً أنه قيل للأولين: لا تحنث، بل أوفِ للرب بإيمانك، أما أنا فأقول لكم: لا تحلفوا أبداً، لا بالسماء فهي عرش الله، ولا بالأرض فهي موطئ قدميه.. وسمعتم أنه قيل: العين بالعين والسن بالسن، أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرير، بل مَنْ لطمك على خدك الأيمن، فاعرض له الآخر، ومن أراد أن يحاكمك ليأخذ قميصك، فاترك له رداءك أيضاً، ومنْ سخرّك أن تسير معه ميلاً فسرْ معه ميلين، ومِنْ سألك فأعطه، ومِنْ استقرضك فلا تعرض عنه.. وسمعتم أنه قيل: أحبب قريبك وأبغض عدوّك، أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وصلّوا من أجل مضطهديكم، لتصيروا بني

* الأخ لدى يسوع هو الإنسان، وليس الأخ من صُلب الوالدين تحديداً.

أبيكم الذي في السماوات، لأنه يُطلع شمسه على الأشرار والأخيار، وينزل المطر على الأبرار والفجّار، فإن أحببتُمْ منْ يُحبّكُمْ، فأي أجر لكم؟.. وإن سلمتم على إخوانكم وحدهم، فأي زيادة فعلتم؟ أو ليس الوثنيون يفعلون ذلك؟ فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم السماوي كامل). فالمسيحية إنما تفارق اليهودية عن طريق الاستكمال (لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة أو الأنبياء، ما جئتُ لأبطل بل لأكمل - إنجيل متى)، أما بالنسبة إلى بولص الرسول، فإن مرحلة المسيح تشبه ما سبقها من المراحل في العهد القديم، فالله يختار من شعبه من يشاء في كل مرحلة، اختار من ذرية إبراهيم إسحاق دون إسماعيل (رسالة بولص إلى أهل رومة) ويعقوب دون عيسو، وكذلك اختار بعد مجيء المسيح، بقيةً من الشعب الإسرائيلي فأنعم عليها بالإيمان برسالة المسيح، كما أن بقيةً من إسرائيل ظلّت على الإيمان في أيام إيليا وأشعيا، فكُفر أكثر اليهود بالمسيح يُظهر حرّية الله الذي يختار من يشاء ولا يُنظر إلى أعمال الإنسان، هكذا كان الأمر في العهد القديم، وهكذا الأمر هو الآن.. لقد غضب الله على جميع الناس لأنهم عصوه لكي يرحمهم جميعاً.. ويتابع بولص في رسالته إلى أهل رومة: (لقد وددت لو كنتُ أنا ملعوناً، ومنفصلاً عن المسيح في سبيل اخوتي بني قومي باللحم والدم، أولئك الذين هم بنو إسرائيل، ولهم التبنّي والمجد والعهود والتشريع والعبادة والمواعيد والآباء، ومنهم المسيح من حيث أنه بشر..) ثم يستشهد بالكتاب القديم (إني أحببت يعقوب وأبغضت عيسو) ومهما كان من تفسيرٍ بمغزى الحب والكراهية هنا، ومن أن المقصود لا شخصا يعقوب وعيسو، بل المنزلة الخاصة لذّرية كل منهما في تاريخ الخلاص، فإن الكتب السماوية لم توضع إلا لتُفهم، وأن الله لو أراد أن يقف طابور من المترجمين، خلف كل آية من آياته، لطغتْ الترجمة على الإيمان، والتفسير على المفهوم، بحيث لا يحرك أمرؤ ساكناً دون مجمع أو كنيسة، وهو يناقض ما في الأناجيل من حكمة وبساطة وتقرُّب. إن رسالة بولص إلى العبرانيين هي وحدها من بين مؤلفات العهد الجديد، التي تطلق على المسيح لقبي كاهن وعظيم الكهنة، وقد أراد بولص الرسول، من خلال رسالته هذه، أن يقيم الاتصال بين الإيمان المسيحي وما للعبادة من طقوس

وذبائح وكهنوت يشير إلى إله إسرائيل، ولم يكن شخص يسوع الناصري وعمله، مرتبطين بهذا الوجه من وجوه التعبير عن الديانة المسيحية، فيسوع لم يكن من الطبقة الكهنوتية، ولم يدّع لنفسه طيلة حياته خدمة كهنوتية ما، فحدث الجلجلة لم يكن له في ظاهره، شيء من شعائر العبادة، بل ظهر فيه موت يسوع بمظهر عقوبة شرعية، وعمل قانوني يفصله عن شعب الله، كما هو الحدث في مرآه الخارجي، أما طابع الذبيحة لآلام المسيح وقيامته، فيظهر في تخطيّ ضيق الأفق المتمسك بإقامة طقوس إسرائيلية، والكشف عن المغزى العميق الصادر عن الحدث نفسه، حيث المعنى الكامن وراء ما يبدو للعيان، وفي الرسالة إلى العبرانيين، بلغ إعلان كهنوت المسيح، حدّ البلبلة، حين تم الربط بين المسيح وفدائه، وبين الطقوس التي تفتدي نفسها بموت الآخرين، وتؤكد الرسالة من جهة أخرى، كيف تمّت في المسيح، جميع الكتب المقدسة القديمة، إذ هي تكشف عن مجمل العلاقات التي تُحدّد هذا الاكتمال المسيحي، وهناك فقرات متشابكة في الرسالة، بل هي غريبة لأنها تجمع بين الشيء وضدّه، بين الإيجاب والنفي، فصلبُ المسيح بحد ذاته، نفيٌ مطلق للعبادة القديمة، وتحرر من أية صلة معها، لا بل وينقضها في أمور كثيرة، فالافتداء تجلٍّ لأرفع ما في المسيحية من معنى، ولم يدُرك هذا المعنى، بل لم يُنشد في الديانة القديمة، ولم يكن هذا التعارض وحيداً في تدرّج الرسالة ومبناها، فالرسالة تشتمل على غزارة غير مسيحية في الجوهر، إذ هي تعرض نسقاً متصلاً من آيات المواعيد وتحققّها، والرموز القديمة واكتمالها، ومسيرة التدبير الإلهي التي تقيمُ إحساساً مرهفاً بجسور الوحدة بين العهدين، لكنه لا يقل وعياً، لما في الوحي الذي أتى به المسيح من جدّة وبلوغ غاية. حتى الرسالة نفسها فقد اختلف في صحة نسبها لبولص الرسول، وقد أنشئت عدة افتراضات تقترح أسماء غير بولص منهم على سبيل المثال لا الحصر، لوقا أو برنابا أو اقليمندس الروماني، وفي عصر أقرب، اقترح مارتن لوثر، اسم أبلّسْ الإسكندراني ككاتبْ للرسالة، إذ وصفه بأنه: (يهودي وتربيته الدينية هيلّينية، وله معرفة بالكتب القديمة، وشهرة بفصاحة عصره، كما أن للغته المتراصفة صلة بلغة فيلون الإسكندراني..)

ورغم إحاطة هذا الإنكار بالمبالغة الظاهرة، إلا أنه بوسع المرء أن يلاحظ صلة قرابة واضحة، بين الرسالة إلى العبرانيين، وتعاليم بولص في العديد من رسائله إلى أهل رومة وقورنتس وغيلاطية وتسالونيقي وغيرها من الرسائل الأخرى.

****

لقد وضع في المسيحية، بعد ارتفاع السيد المسيح، ما هو ملتبسٌ مع الشرائع القديمة السابقة على ولادة المسيحية، فهل كانت الدعوة المسيحية في جوهرها، ملحقاً أوتوماتيكياً للديانة اليهودية تتكئ عليها وقد نقض المسيح مجمل ما وصل إليه منها، بعد ألف ومئتي سنة من شريعة موسى، وزهاء ألف وثمانمئة سنة من تاريخ إبراهيم الخليل، وألف سنة من حكم داوود؟!..

هل من منطق الحياة، أن تبقى الشرائع طوال ألوف السنوات هذه هي هي، كي يختتم عليها المسيح وتصادق عليها المسيحية، ففي الجوهر، فإن المسيحية لم تدّع لنفسها تخصيص الله واختياره، وإله يسوع الناصري، لا يعرف الانتقام، بل التسامح وفوقه شعار المسيحية الأزلي (المحبة)، وفي متى، يستهجن الفريسّيون من اليهود، جلوس يسوع مع العشّارين والخاطئين، فسمع يسوع كلامهم فقال: (ليس الأصحاء بمحتاجين إلى طبيب، بل المرضى- فهلاّ تتعلمون معنى هذه الآية، إنما أريد الرحمة لا الذبيحة، فإني ما جئت لأدعو الأبرار، بل الخاطئين)، وقد خاطب المسيح ابن آدم على أنه (ابن الإنسان) لا ابن القبيلة المختارة أو المفضّلة على الناس أجمعين، والمسيحية في جوهرها، دعوة لنبذ العنف وامتشاق السيف (من قتل بالسيف، فبالسيف يُقتل)، ولئن كان المسيح ابن داوود في الذرية أو السلالة الأرضية*، فإنه ليس ابناً لأحد في معجزات العقيدة الجوهرية، إنه من (روح الله)، (ونفخنا فيه من روحنا)، ولائحة السلالة الموضوعة التي تربط نسب المسيح بأرومة إبراهيم (اليهودي)، مجافية لروح القُدس، فالمسيح في النظرة السماوية، ليس ابن يوسف (زوج مريم) الذي يرجع

---

* ما بين سيدنا إبراهيم الخليل والمسيح، ما يربو على ١٨٠٠ سنة، أي ما يزيد على ستة وثلاثين جيلاً زمنياً بمتوسط أربعين سنة للجيل الواحد، وأنا ابن القرن العشرين، لا أعرف من هو والد جدي أساساً..

إلى يعقوب ابن متان، ومتان بن اليعازر، واليعازر بن يهود، ويهود بن آخيم وأخيم بن صادوق.. إلى آخر السلالة التي تم (فعل) هندستها حتى تعود إلى إبراهيم الخليل، وهي مجافية للقرآن الكريم ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ سورة آل عمران، أما الأناجيل، فلم تقل أن يسوع المسيح هو ابن يوسف، فقد حملت مريم من روح الله في الإسلام، ومن الروح القدس في المسيحية، فكيف يتم تنسيبه إلى أيٍّ من رجال العالمين؟!.

إن إعادة ولادة المسيح، لما هو دنيوي في الأصل، هو أول استنكار للإيمان بالعقيدة التي تتكئ في العديد من جوانبها البرهانية على المعجزة، فإذا لم يتم الإيمان بمعجزة خلق المسيح، مسيحياً أو إسلامياً، فكيف يتم الإيمان بمعجزات المسيح اللاحقة، فتنسيب المسيح في ولادته لما هو أرضي، كان بدعة يهودية خالصة، وهذه البدعة بدورها، هي التي تفاقمت فربطت بين الكنيسة والسلطة رغم كلام يسوع: (أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله).

إن المسيح أولاً، هو تخلٍّ عن الذات، وهو التخلّي عن انتماءاتنا الجزئية في القوم والعشيرة والقبيلة، (فابن الإنسان) هذه موجهة إلى الإنسانية جميعاً دون امتياز أو أثرة أو تفضيل، وبهذا المعنى الشامل، فإن المسيح يكون قد قطع مع العهد القديم قطيعة مطلقة، فالقديس بولص الذي لم يرجع إليه في حياته (أي في حياة المسيح نفسه)، ولا في أعماله وأقواله، ولم يبدأ الاهتمام به والإيمان بعقيدته، إلا بعد انتقاله إلى خالقه، كان يستلهم المسيحية بريشة فريسّية*، دون قصد أو تعمّد، فالخلفية أساس في فهم الأفكار والعقائد، وإذ هي ساكنة في العقل الباطن للإنسان، وتراها تكيّف العزيز من الأفكار بإيقاعٍ داخلي مرصوف منذ الولادة، حتى ولو جاءت هذه الأفكار لتدحض المألوف أو المتوارث منها، فتحويل الصليب إلى مركبة للنصر، يشي بنفسية مُركّبة، تأخذ الصليب عن

* كان القديس بولص قبل مسيحيّته واحداً من أشدّاء الفريسّيين اليهود الذين عُرف عنهم الميل إلى التطرف والعنف، وقد تسببوا بتدمير الهيكل على يد روما في العام ٧٠ للميلاد.

المسيحية، ومركبة النصر عن الرومان، والنصر نفسه عن اليهود، وقد رتّب بولص، شفافيّته المسيحية، بالاتكاء على مقطع من العهد القديم يقول، وهو قول يجري على لسان المسيح: (لقد تنبأ الأنبياء وموسى بمن عليه أن يأتي وأنا لا أقول شيئاً بعد ذلك). وكأن المسيح (كان سعيداً أن يلعب دوراً في سيناريو كتبه الأنبياء من قبله ـ روجيه غارودي ـ الولايات المتحدة طليعة الانحطاط ـ ترجمة مروان حموي).

ويتابع غارودي: إن مسيح بولص، ليس يسوع، فالمسيح هو ترجمة يونانية للمسي اليهودي، الذي توجب عليه إعادة بناء مملكة داوود، ولهذا توجب عليه أن يكون سليلاً ومكملاً لداوود.. فيسوع ليس داوود جديداً، ولا هو ابن ربّ الجنود، إذ لا يُعقل أبداً، أن يكون الحب قيثارة عهده، إنحازاً لدعوات ثأرية كما جاء في العهد القديم، ولا حتى تضامناً قبلياً في وجه الإنسانية، كما جاء في سفر اللاويين، حيث الحب لابن القبيلة لا لغيره، يقول إسرائيل شاحاك في كتابه، الديانة اليهودية وطأة ٣٠٠٠ عام ـ شركة المطبوعات ص ١٣٠: (عندما تكون الضحية من الأغيار ـ يختلف الوضع تماماً، فاليهودي الذي يقتل أحد الأغيار يكون مذنباً فقط بارتكاب معصية ضد شرائع السماء، وهي معصية غير قابلة لعقوبة صادرة عن محكمة، أما التسبب غير المباشر، بقتل أحد الأغيار، فهذا ليس بمعصية على الإطلاق، وعلى هذا النحو يشرح أحد أهم المعلقين على شرائع التلمود شولحان عاروخ، بقوله: (على المرء ألا يرفع يده لإيذاء الغريب، ولكنه يستطيع أن يؤذيه بطريقة غير مباشرة، كأن يزيل السُلّمْ بعد أن يكون الشخص المعيّن قد سقط في هوّة، إذ لا يوجد خطر هنا، لأن الأذى لم يرتكب بصورة مباشرة). ويشرح موسى بن ميمون، المبدأ الأساسي التلمودي، بوجوب الامتناع عن إنقاذ حياة الغرباء (من غير اليهود)، فهناك حكمة تلمودية تقول: لا تدفع الأغيار إلى البئر فهذا مُحرّم، ولا تنقذ أحداً منهم إذا ما وقع فيه لأنه محرّم أيضاً.. وهناك عشرات من الأمثلة التلمودية، التي قام بفضحها الأب آ.ب.. براناايتس في كتابه فضح التلمود الصادر عن دار النفائس إعداد زهدي الفاتح، حيث القائمة طويلة عن السيد المسيح الذي تترافق فقرات تلمودية مع اسمه: (نجار بن نجار)

و (ابن حطّاب) و (ذاك الرجل) و (رجل شرير) و (ليمُحَ اسمه وذكُره) و (ابن غير شرعي) و (وثني ومُضلل) و (مدفون في جهّنم تحت غائط يغلي) وغيرها من عشرات الأوصاف الجماعية النابية لكلا المسيحيين والوثنيين (القتلة والزناة والأنجاس، وأبناء الشياطين الذين يتناسلون كالبهائم) مع عدم ممانعة إلحاق الأذى بالمسيحيين الذين هم (أسوأ من الأتراك المسلمين، بل أسوأ من الحيوانات نفسها ـ فضح التلمود. المصدر السابق صفحات ٨٠-٩٠).

إن عشرات التناقضات الحاسمة، قائمة بين ما ورد في العهد القديم، وما جاء عليه النص في الأناجيل، أما في التلمود (التعاليم) والميشناه (القانون المساعد للتلمود) والجمارا (تحليل آراء التعاليم) والتوشيفوث (ملاحق التلمود) وملاحظات الرابي أشير (ملاحظات رجل الدين آشير)، وبيسك توسيفوث (أطروحات تلمودية بسيطة) وتعاليم موسى بن ميمون وشروحه (ميمونيدس) وستة أجزاء أخرى تتفرع إلى ١١ كتاباً دينياً عبرياً تحت عنوان عام (ماسيكتوث) و ١٢ كتاباً آخر تحت عنوان عام هو (مو إيد) و ٧ كتب دينية أخرى تحت عنوان عام هو (ناشيم) وعشرة أخرى عن المرأة تحت عنوان عام هو (سوتاه)، و ١١ كتاباً آخر تبحث بالذبيحة والقرابين، تحت عنوان عام (كوداشيم) و ١٢ كتاباً آخر يبحث في التطّهر والأوبئة والآبار.. تحت عنوان عام (توهوروت) أي الطهارة، كما ألحق بالتلمود كراسات أربعة هي: (ماسيخيث سوفسريم) أي كراس الكتبة، (وايبهل رابيتي) وتعني بمسائل الحداد، (وكالاه) وتعني بمسائل العروس، (وماسيخيث ديريخ ايريتس) وهي كراسة بمثابة مرشدٍ للحياة اليهودية السليمة.. فإن جميع هذه الكتب سواء أجاءت كأصول أم فروع لها، فإنها تتحدث عن اليهود ذاتهم بصفتهم نقائض للأغيار دون استثناء، مما يعطي الوجهة في إقامة الحد بين عهدين وديانتين افترقتا في النظرة إلى الإنسان والكون والعلاقات حتى وصِفاتِ الله نفسه، ونرى التناقض بين كراهية الآخر (تلمود) ومحبة الآخر (إنجيل) في أفعال يسوع نفسها وأقواله: (أقول لكم: إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب يتكئون مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب في

ملكوت الله، وأما بنو الملكوت (أي اليهود) فيطرحون إلى الظلمة الخارجة، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ــ متى) وفي الأناجيل عن معجزات السيد المسيح، ما يشير إلى شفاء المرضى من أهل الكتاب والوثنيين والكنعانيين والآراميين والفريسّيين، دون تمييز.

وفي إنجيل متى والأناجيل الأخرى، يخاطب يسوع جميع الناس دون تخصيص: (لأنّي جعتُ فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت غريباً فآويتموني، عرياناً فكسوتموني، مريضاً فزرتموني، محبوساً لأتيتم إلي، فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين: يا رب متى رأيناك جائعاً فأطعمناك؟ أو عطشاناً فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريباً فآويناك؟ أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناك مريضاً أو محبوساً فآتينا إليك؟ فيجيب الملك ويقول لهم: الحق أقول لكم، بما أنكم فعلتوه بأحد أخوتي هؤلاء الأصاغر، فلي فعلتم) (الاصحاح ٢٥). وفي إنجيل يوحنا يخاطب الناس: (يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد، ستطلبوني، وكما قلت لليهود حيث أذهب أنا، لا تقدرون أنتم أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن، وصيّة جديدة أنا أعطيكم أن تحبّوا بعضكم بعضاً (الاصحاح ١٣).

إن الراهب الكلابري غواشيم دي فلور، هو الذي قام بكشف عظيم في القرن الثاني عشر، ذلك الإنسان المسكون بالله، وهو الذي أعلن عن نهاية مملكة الأب والشريعة، والابن الذي صادرته الكنيسة، من أجل بلوغ امتلاء الروح، التي بشرّ بها يسوع، يسوع الذي لا مُلك له ولا سلطان ولا كنيسة، فمنذ يسوع ألِفَ الناس معيشة حيّاته الربانية، دون أن يؤمنوا باللجوء إلى الوعود والمعجزات، ويتابع غارودي، في كتابه جدل العصر، ترجمة صيّاح الجهيّمْ، إنهم مسكونون بالله أي الشعور بكل ما ينقصهم، الشعور الذي لا حدّ لمسؤوليته، وهذا الإيمان هو الذي حملَ القس بنهوفر على القول: (إنه لم يعلن عن دين جديد.. لقد كان قدوة للإنسان الحر كلياً، حتى عندما يكون مجرداً من أية قوة)..

إن يسوع، يتابع بنهوفر، يقترح علينا أن نحيا طريقة جديدة للحياة دون أن ننتظر سنداً خارجياً، وأن نموت دون وعد ولا مبادلة حياة بأخرى.. إن إله المسيحيين بلا

قدرة الجنود، هو الذي يصنع أزليّته وقوته.. وها هنا إيمان يجري في نقاء من كل معتقد سحري، فالإيمان فعل، مسلّمة، خيار، يوجه حياتنا كلها، وكأنه عملٌ منبثق لا يني يولد، والإيمان هو (القرار) المتجدد أبداً، بالتوحّد مع الكل، والله الذي يتحدث عنه يسوع، هو إله الإيمان وليس إله المعتقد عند اليهود..

(إن علم الفيزياء، بعد النسبية ونظرية الكميات يشكل نموذجاً لرؤية وحدة العالم ومحبته، فالذرة سابقاً (أي الفرد في اليونانية) كانت مفصولة عن باقي الذرات بفراغ، وأما ما يسمى اليوم بجزيئة، فإنها واقع فريد، مثل موجة ساكنة في اندفاعات المحيط كله، موجة بلا حدود في محيط من الطاقة لا ضفاف له، كذلك الإنسان مسكون بجميع الآخرين)*. فالتأمل في شخص يسوع، هو التأمل بامتلاء يسوع الإلهي، وهو اللاهوت الوحيد الممكن، حيث يستوجب إقصاء لاهوت الميتافزيك اليوناني، واللاهوت الوضعي المبني على تاريخ الوقائع، واللاهوت الوجودي المناوئ للذاتية، واللاهوت السياسي.. فلاهوت المسيحية هو: مسألة الإنسان نفسه قبل أي اعتبار آخر، أما رب الجنود، فقد مات منذ أن أذنت رسالة يسوع بالدخول.

لقد جاء المسيح ليقيم مملكته الروحية، على أنقاض ما أفسده اليهود من الشريعة، إذ لا يُعقل أن يأتي المسيح ليتمم (فساد الشريعة) التي انتحلها اليهود لأنفسهم من دون أنبياء الله وما أوصوا به، ففي سفر إرميا النبي يقول لليهود: (محرماتكم غير مقبولة، ذبائحكم لا تلذ لي ـ أر ٦:٢٠). وفي سفر أشعيا: (لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة، البخور هو مكرهة لي، رؤوس شهوركم وأعيادكم أبغضتها نفسي، صارت عليّ ثقلاً، مللتُ حملها، فحين تبسطون أيديكم، أغمض عيني عنكم، وإن أكثرتم الصلاة لا أسمع، أيديكم ملآنةً دماً ـ أش ١: ١١–١٥)، وعلى لسان عاموس النبي يطلق الربّ صرخته في وجه هذا الشعب (أبعد عني ضجَّة أغانيك، ونغمة ربابك لا أسمع ـ عاه:٢٣). أما المسيح فوجدهم (كالقبور المبيّضة من الخارج، ومن الداخل عظام نتنه ـ متى٢٣:٢٧) وفي موضع آخر

* نحو حرب دينية. جدل العصر. روجيه غارودي. ترجمة صياح الجهيّم. صفحات ٩٦–٩٧.

يصرخ عيسى الناصري (يا مراؤون حسناً تنبأ عنكم أشعيا قائلاً: يقترب إليّ هذا الشعب بفمه، ويكرمني بشفتيه، أما قلبه فيبتعد عني بعيداً ـ متى ١٥: ٧-٨).

وعلى لسان الأب شنودة (حوارات. إعداد مازن الصباغ) يقول: (نحن لا نعترف لليهود كأصحاب ديانة قائمة، فمن الناحية الدينية، كانت اليهودية ممهدة للمسيحية، فما أن جاءت المسيحية، فإنه لم يعد لليهود وجود كديانة قائمة بذاتها، أما من جهة المملكة، فلا يمكن في ضوء الكتاب المقدس، أن نعترف لهم بمملكة، فالله رفض فكرة المملكة منذ البدء، كما رفض السيد المسيح أن يقيم لهم مملكة على الأرض، فعندما تنازل الله فأقام لهم ملوكاً، كانت ممالكهم شخصية مقدسة لا تنطبق على يهود اليوم، فالملك كان يختاره الله بنفسه، ويأمر بمسحه ملكاً بواسطة نبي أو رئيس كهنة، وكان الملك يتلقى أوامره من الله، ويستشيره في كل خطوة، وكان محرّماً على ممالك اليهود أن تبرم محالفات عسكرية، أو اتفاقات اقتصادية، مع دول أخرى، وإلا فإن هذه الأفعال تعتمد على ذراع بشري تقتضي العقوبة من الله.. وليس شيء من هذا ينطبق حالياً).

إن الخلاص حسب الشريعة القديمة، ظل يحتم مزج العنصر الأخلاقي بعنصر العبادة، فمن المعروف أن شريعة موسى تنهى عن القتل أو الإساءة للمسكين بالقوة ذاتها التي تنهى عن طهو الماعز في لبن أمّه، أو أكل ما ليس له قشر أو زعنفة، والشريعة تعاقب بالموت من ينتهك السبت أو يلعن أباه، إنها تأمر السارق الذي تدنّس بسرقته أن يتطّهر بالقربان، وهي تأمر الأبرص الذي تدنّس بالبرص أن يُقدّم قرباناً هو الآخر، وفي كنف هذه الشرائع، كان يسوع كما تصوّره الأناجيل قد وُلد، وكان أمامه إما أن يؤيد الشريعة القديمة كاملة، كما هي، بما فيها طقوسها المتداولة، أو أن يتجاوزها لصالح شريعة جديدة جاء من أجلها، أو يجري تصالحاً بين الجوهري من القديم وما يريد أن يبشر به، وهو ما درج عليه سائر الأنبياء، فالأنبياء لا ينقضون شرائع بعضهم البعض، بل ما أفسده حملة الشرائع من الشرائع، وها هو يسوع يقدم الإنسان على الطقس، والإيمان على العبادة، والأخلاق على ممارسة الشعائر، فقد اتفق أن تجاوز يسوع يوم السبت

اليهودي المقدس، حين قطف هو وتلامذته سنابل القمح في هذا اليوم، وما أن احتجّ الفريسيون من اليهود (يهود المجمع المتطرف)، حتى عاجلهم يسوع بقوله: (السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت ـ مرقس ـ متى ـ لوقا). وعندما دخَل يسوع مجمع الفريسّيين، رأى رجلاً قد يبست يدّه إلى درجة الشلل، فنظر الفريسيّون إلى يسوع إنْ كان يجرؤ على شفائه في يوم سبتهم هذا، وما كان من يسوع إلا أن قال للرجل: قم وادنُ مني، ثم التفت إلى الجمع وسألهم: (هل يحلّ في السبت فعل الخير أو فعل الشر، تخليص نفسٍ أم قتلها؟!) وران الصمت على الجميع، فقد كان السكوت طبيعياً، إذ ليس من المنطق في شيء، أن يعانَد الفريسيّون إلى درجة اعتبار تخليص النفس الإنسانية بمثابة انتهاك ليوم السبت، إذ يعني ذلك قلب الشريعة القديمة كلها رأساً على عقب، وكان تصرف يسوع يشي بتجاوز عنصر الطقس الذي تؤكد عليه العبادة، لصالح عنصر الإنسان، وفي أناجيل (متّى ٩/١٢ ومرقس ١/٣ ولوقا ٦/٦) فإن الرجل المشلول مد يده إلى يسوع، ونظر يسوع إلى ما حوله وهو غضبان أسفاً من غلاظ القلوب (وعادت يد الرجل صحيحة كما هي اليد الأخرى) وها هو يسوع يخاطب امرأة سامرية من يهود السامرة*: (صدقيني يا امرأة، إنه تأتي ساعة، لا تسجدون فيها للآب، لا في هذا الجبل ولا في أورشليم، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون، أما نحن فنسجد لما نعلم، لأن الخلاص يأتي من اليهود. ولكن تأتي الساعة، وهي الآن، حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق ـــ يوحنا ٤/٢١).

ثم ها هو يوحنا المعمدان، آخر أنبياء إسرائيل وابن عم السيدة العذراء، الذي عاش متأملاً متقشفاً في البريّة، وأدان زواج الحاكم هيرودوس الروماني من شقيقة زوجته، فأوردته هذه الإدانة مورد التهلكة، على يد ابنة زوجته الحديدة (سالومي) الشهيرة في التاريخ، حيث طلبت رأس يوحنا، فكان لها ما أرادت. ها هو يوحنا

---

* انقسم اليهود حسب التاريخ الديني لهم إلى دولتين بعد وفاة سليمان، يهودا ومركزها القدس حيث الصلوات في المعبد، والسامرة ومركزها جبال نابلس حيث الصلوات فوق جبل جرزليم المقدس.

الذي كان يُعمّد الناس بالماء رمز الطهارة، يقول: (أنا عمدتكم بالماء، أما هو فسيعمدكم بالروح القُدس ـ متى ١١/٣ لوقا ١٦/٣ مرقس ٨/١).

أما عن الصوم، الذي لم يمارسه يسوع: (فالشريعة القديمة التي تأمر بالصوم لا تصلح إلا للزّمن القديم، أما في الزمن الجديد فتوضع الخمرة الجديدة ــ متى ١٧/٩ لوقا ١٧/٥ ومرقس ١٩/٢).

هذه الخمرة الجديدة، كما يقول أستاذ علم الاجتماع في جامعة السوربون، ألبير بابيه، هي الأخلاق (وعلى قدر إعلان يسوع، احتقاره الطقوس، كانت عنايته باقتطاف العنصر الأخلاقي من (الشريعة) وتطهيره من الممارسات العابثة وتقديمه نقيّاً للناس ــ بابيه. أخلاق الإنجيل ــ ترجمة د. عادل العوا ص١٥). ويتابع المصدر المذكور قوله: (أنت تعرف الوصايا/ لا تزن، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد الزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك، مرقس، متى، لوقا) وقد سأل يسوع، أحد أتباع السامريّين: (يا مُعلّم، أية وصيّة هي العظمى في الناموس، فقال له يسوع: تحبُّ الرب إلهك، من قلبك، من كل نفسك، ومن كل فكرك، هذه هي الوصيّة الأولى العظمى، والثانية مثلها، تحب قريبك كنفسك، بهاتين الوصيّتين يتعلق الناموس كله والأنبياء ـ متى٣٥/٢٢ مرقس ٢٨/١٢ لوقا ٢٧/١٠) وقد قال يوحنا في إصحاحه ٣٤/١٣: (وصية جديدة أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا).. ويبدو أن أمثولة السامري في إنقاذه لرجل كان قد أثخنه اللصوص على الطريق، قد نزلت في قلب يسوع منزلة عظمى، خاصة وأن هذا الجريح الملقي على قارعة الطريق، كان قد مرَّ به كاهن يهودي ثم لاوي يهودي، (قبل السامري) فجاوزاه بقلوب خشنة دون أن يسألا عنه.. ثم التفت يسوع إلى السائل السامري عن أهم وصايا الشريعة وقال له (اذهب أنت واصنع ما صنع السامري ـ لوقا ٣٠/١٠ ـ «ابن الإنسان»).

ومن داخل الإنسان، لا من خارجه، تأتي النجاسة، (من داخل قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة، زنا، فسق، قتل، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهر، عين

شريرة، تحديف، كبرياء، جهل، جميع هذه الشرور تخرج من داخل الإنسان وتنجّس الإنسان ـ متى ١٥/١٦ مرقس ٧/١-٢٣).

في الشريعة اليهودية، فإن الذبيحة تمحو الآثام، كذلك هو الطقس وممارسة الشعائر الخارجية، وكأن الصلوات والإشارات والدلالات والرموز.. بل وجميع ما هو خارجي، هو المطهر للنفس، أو هو طريق الخلاص ذاته، سبتٌ وهيكل ولحم وزواج وآخر قريب لا آخر غريب..

الخير في المسيحية هو النقاء، والرحمة هي الأساس، والحب هو الناموس، والإحسان و الحياة..وفي وسع المرء ـ مسيحياً ـ كما هي أفعال يسوع وأقواله، أن يهزأ ـ إذا ما انفتح قلبه للحب والخير والرحمة والإحسان ـ من الأدناس المادية وطقوس العبادة الظاهرية، وفي هذا ما يعدل إدانة طقس الشريعة القديمة، مع الحفاظ على ما في جوهرها من سمو المعتقد، ونبل المقصد، وتحقيق إنسانية الإنسان، بمشيئة الخالق وما ارتضاه لمخلوقاته دون تمييز، لقد جاز لآرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢) المؤرخ والناقد والفيلسوف والمستشرق الفرنسي، أن يكتب بصدد نصوص الأناجيل كافة، ما هو بالحرف: (لم يبق يسوع يهودياً، فقد أسس ديانة الإنسانية، لا على الدم، بل على القلب، وقد تجاوز موسى ولم يبق للهيكل ما يسوّغ بقاءه ــ حياة يسوع. الفصل ١٣ ــ رينان) إن المذهب المسيحي الذي رأينا قيامه، لا يجيز لأي كان، خاصة تلك الطوائف التي شرّعت المسيحية على أنها ملحق من ملاحق التوراة، وحتى انطلاقاً من أنبل رغبة أخلاقية، أو كراهية مُستبطنة لأطقم اللاهوت الكنسي في مرحلة تاريخية ما، أن يجيز لنفسه المساس بتأويل نص على هواه، أو كما يفهمه العادي من الناس بحرفيّته دون مغزاه، وبكلماته دون روحه، وبدلالته التعميمية دون لحظته التاريخية، وباستعاراته، ومجازاته، ودلالاته، ورموزه وسخريته، وطباقه وجناسه، وبعاكسه ومعكوسه، ونص الروح مع روح النص.. دون تبحّر باللغة أو نفاذ في البصيرة.. فسلخ النص عن سياقه الكلي، أو عن معناه الجلي، لجعله بمثابة الخادم لمذهبٍ مُبيت، أو بمثابة المنحاز لمذهب سلفي، هو اختراق للعلم والإيمان على

حد سواء، ومهما بلغت تلك المحاولات منَ براعة الدمج بين عقيدتين، يهودية ومسيحية، فإن تلك المحاولات تجد نفسها في تناقض بيّن، ما بين ابن القبيلة، وابن الإنسانية، وابن الرحمة وابن الانتقام، وابن الدار الآخرة، وابن هرمجدون، وابن أيام الله وابن السبت، وابن العذراء ومالك ألف محظية وسبيّه، وابن الإنسان وابن النسب بالدم.. وأفضل ما نختتم به عملنا هذا، كلمات ليسوع في وجه اليهود: أنا ذاهب.

ستطلبوني، ومع ذلك تموتون في خطيئتكم.
وحيث أنا ذاهب فأنتم لا تستطيعون أن تأتوا.
فقال اليهود: أتراه يقتل نفسه؟!
فقال لهم: أنتم من أسفل وأنا من علٍ.
أنتم من هذا العالم، وأنا لست من هذا العالم.
لذلك قلت لكم: ستموتون في خطاياكم.
فإذا لم تؤمنوا بأني أنا هو، تموتون في خطاياكم.
فقالوا له منْ أنت؟.
قال يسوع:
أنا ما أقوله لكم منذ بدء الرسالة.
عندي في شأنكم أشياء كثيرة
أقولها وأحكم فيها
على أنّ الذي أرسلني صادق
وما سمعته منه أقوله للعالم.
ثم قال:
متى رفعتم ابن الإنسان عرفتم أني هو
وأني لا أعمل شيئاً من عندي
بل أقول ما علمّني الآب.

إن الذي أرسلني هو معي. لم يتركني وحدي.

إنجيل يوحنا ـ ٨/١٩-٢٤.

****

كان الجمعُ واجماً، حين أذنت الأمسية الأخيرة من أمسيات العزاء بالانتهاء، وكانت المناسبة رحيل والدتي عن هذا العالم، وكان صديقي المسيحي من السوريين القوميين، من أوائل المعزّين الذين يحسنون الاستماع لصوت القرآن الكريم: ﴿وحنانا من لُدنّا وزكاة وكان تقيّا﴾.

نظرتُ إليه كي أسعفه بالخروج إذا ما رغب بذلك، فإذا هو مطرق لا ينظر إلى أحد، وكأنه مصمم على الاستماع حتى النهاية: ﴿فحملته فانتذبت به مكاناً قصيّاً، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني متُ قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربُك تحتك سريّا، وهزّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنّيا﴾.

عاودت النظرة إلى صديقي فإذا هو سادر في الإطراق: ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم مِنْ كان في المهد صبيّا، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا، وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا، وبّراً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيا، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أُبعث حيا﴾.

****

كان الوجْدُ قد بلغ به مبلغاً، وهو يتأبط ذراعي في ليل دمشق الهادئ، وبصوت أقرب ما يكون إلى صوت الأمير يحيى الشهابي وهو ينثر أزاهير الشعر العربي الجليل، قال: اسمع يا فتى (وكان تعبيره المحبب)، إنك لن تجد في فنون فلورنسة المترفة، ولا في بهاء البندقية الأخاذ، لنقرات إزميل أنجلو الذهبية، وضربات ريشة ليوناردو الخالدة، ومنحوتات دوناتلو الخلاقة، وآخرة جحيم دانتي المبهرة، وكاتدرائيات ألبرتي الشامخة، وآثار بترارك وبوكاتشيو الباقية.. ولا حتى في نثر فرنسا، وشعر إنجلترا وموسيقا ألمانيا، وأجراس بطرسبرغ.. ما

يبلغ حد الكمال، في تمجيد المسيح وإجلال والدته، مثل ما تصغي إليه في القرآن الكريم، ها هنا المسيح يرتفع إلى الأعلى، مؤذناً بافتداء الإنسان.

كان صديقي الكبير، مولعاً بكل فنون العالم، شغوفاً بعظمة مجدها، متحسساً لدواخلها، مترجماً لصمتها، شاعراً بانسيابها، لاقطاً لإيقاع حركتها، متمتعاً بتدفقها، مأخوذاً ببهائها.. كان يقيم توازناً منطقياً بين الفلسفة والدين، الحكمة والرسالة، الفيدا (كتاب الديانة الهندية) والعهد القديم، العهد القديم والإنجيل، ثم الإنجيل والقرآن.

كان يتقن لغات عدة، حديثة وقديمة، تخوّله التقاط النبوغ الإنساني في الزراداشتية والكونفوشية، ومن سقراط إلى جان بول سارتر، مروراً بالغزالي وابن رشد وهيغل وكير كيغارد..

كان مولعاً بحصاد لغات العالم، إلا العبرية، فقد تركها لأهل الشقاق في الأرض بعد رحيله.

****

ثقل الجانب التوراتي في المسيحية

١ ـ شواهد ومدّونات مقدسة.

٢ ـ آثار أوائل البروتستانتيين.

٣ ـ خطاب الكنيسة الأمريكية المرئية.

(١)

مدونات توراتيّة في صدر المسيحية الأولى ا

مقتطفات من (رسالة القديس بولص إلى العبرانيين)

عظمة ابن الله المتجسد

إنَّ الله، بعدما كلَّم الآباء قديماً بالأنبياء مرَّاتٍ كثيرةً بوجوهٍ كثيرة، كلَّمنا في آخر الأيَّام هذه بابنٍ جعله وارثاً لكلِّ شيء وبه أنشأ العالمين. هو شُعاعُ مجده وصورةُ جوهره، يحفظُ كلَّ شيءٍ بقوَّة كلمته. وبعدما قام بالتطهير من الخطايا، جلس عن يمين ذي الجلال في العلى، فكان أعظم من الملائكة بمقدار ما للاسم الذي ورثه من فضلٍ على أسمائهم.

برهان الكتاب المقدس

فلمن من الملائكة قال الله يوماً: «أنت ابني وأنا اليوم ولدتك» وقال أيضاً: «إنِّي سأكون له أباً وهو يكون لي ابناً؟». ويقول عند إدخال البكر إلى العالم: «ولتسجد له جميع ملائكة الله». وفي الملائكة يقول: «جعل من ملائكته أرواحاً ومن خدمه لهيب نار»، وفي الابن يقول: «إنَّ عرشك أللَّهمَّ لأبد الدُّهور، وصولجان الاستقامة صولجان مُلكك. أحببت البرَّ وأبغضت الإثم، لذلك أللَّهمَّ مسحك إلهُك بزيت الابتهاج دون أصحابك» وقال أيضاً: «ربِّ، أنت في البدء أسست الأرض، والسَّموات صُنعُ يديك، هي تزول وأنت تبقى، وكُلُّها كالثَّوب تبلى، وطيَّ الرِّداء تطويها وكالثَّوب تتبدَّل، وأنت أنت وسنوك لا تنتهي». فلمن من الملائكة قال الله يوماً: «اجلس عن يميني حتَّى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك؟» أما هم كُلُّهم أرواحٌ مُكلَّفون بالخدمة، يُرسلون من أجل الَّذين سيرثون الخلاص؟

لذلك، كما يقول الرُّوح القُدُس: «اليوم، إذا سمعتم صوته، فلا تُقسُّوا قلوبكم كما حدث عند السُّخط يوم التَّجربة في البَرِّيَّة، حيث جرَّبني آباؤكم واختبروني فرأوا أعمالي مدَّة أربعين سنة. لذلك استشطتُ غضباً على ذاك الجيل وقُلت: قلوبهم في الضَّلال أبداً ولم يعرفوا هم سُبُلي، فأقسمتُ في غضبي أن لن يدخلوا راحتي».

إحذروا، أيُّها الاخوة، أن يكون لأحدكم قلبٌ شرِّيرٌ تردُّه قلَّة إيمانه عن الله الحيّ. ولكن ليُشدِّد بعضكم بعضاً كلَّ يوم، ما دام إعلان هذا اليوم، لئلاَّ يقسو أحدكم بخديعةٍ من الخطيئة. فقد صرنا شركاء المسيح، إذا احتفظنا بالثِّقة التي كُنَّا عليها في البدء ثابتةً إلى النهاية، فلا ندعها تتزعزع، ما دام يقال: «اليوم، إذا سمعتم صوته، فلا تقسوا قلوبكم كما حدث عند السُّخط». فمن هم الَّذين أسخطوه بعدما سمعوه؟ أما هم جميع الذين خرجوا من مصر عن يد موسى؟ فعلى من «استشاط غضباً أربعين سنة؟» أليس على الذين خطئوا فسقطت جثثهم في البرِّيَّة؟ ولمن «أقسم أن لن يدخلوا راحته؟» أليس للَّذين عصوه؟ ونرى أنَّهم لم يستطيعوا الدُّخول لقلَّة إيمانهم.

فلنخش إذاً أن يثبت على أحدكم أنَّه متأخِّر، ما دام هناك موعد الدُّخول في راحته. فقد بُشِّرنا به نحن أيضاً كما بُشِّر به أولئك، ولكنَّهم لم ينتفعوا بالكلمة التي سمعوها، لأنَّهم لم يتَّحدوا في الإيمان بالَّذين كانوا يسمعون. فإنَّنا نحن المؤمنين ندخل الرَّاحة، على ما قال: «فأقسمت في غضبي أن لن يدخلوا راحتي». أجل، إنَّ أعماله قد تمَّت منذ إنشاء العالم. فقد قال في مكان من الكتاب في شأن اليوم السَّابع: «واستراح الله في اليوم السَّابع من جميع أعماله». وقال أيضاً في المكان نفسه: «لن يدخلوا راحتي». ولما ثبت أنَّ بعضهم يدخلونها، والَّذين بُشِّروا بها أوَّلاً لم يدخلوا بسبب عصيانهم، فإنَّ الله عاد إلى توقيت يومٍ هو «اليوم» في قوله بلسان داوود، بعد زمن طويل، ما تقدَّم ذكره: «اليوم، إذا سمعتم صوته، فلا تقسُّوا قلوبكم». فلو كان يشوع قد أراحهم، لما

ذكر الله بعد ذلك يوماً آخر. فبقيت إذاً لشعب الله راحة السَّبت، لأنَّ من دخل راحته يستريح هو أيضاً من أعماله كما استراح الله من أعماله. فلنبادر إلى الدُّخول في تلك الراحة لئلاً يسقط أحدٌ لاتّباعه هذا المثال من العصيان.

من الكهنوت اللاوي إلى الكهنوت الذي رتبه مليكصادق

فلو كان الحصول على الكمال بالكهنوت اللاّويّ، وقد تلقّى الشَّعب شريعةً متصلةً به، فأيُّ حاجةٍ بعده إلى أن يقوم كاهنٌ آخر يكون على رتبة مليكصادق ولا يقال له إنه على رتبة هارون؟ لأنه إذا تبدَّل الكهنوت، فلابُدَّ من تبدل الشريعة. وذلك أنَّ الذي يقال هذا فيه ينتمي إلى سبطٍ آخر لم يقم أحد منه لخدمة المذبح. فمن المعروف أنَّ ربَّنا خرج من يهوذا، من سبطٍ لم يذكره موسى في كلامه على الكهنة.

نسخ الشريعة القديمة

وممَّا يزيد الأمر وضوحاً أن يقام كاهنٌ غيره على مثال مليكصادق لم يصر كاهناً بحسب شريعة وصيَّةٍ بشريَّة، بل بحسب قوَّة حياةٍ ليس لها زوال، لأنَّ الشَّهادة التي أُدِّيت له هي: «أنت كاهنٌ للأبد على رتبة مليكصادق». وهكذا نُسخت الوصيَّةُ السَّابقة لضعفها وقلَّة فائدتها، فالشريعة لم تبلغ شيئاً إلى الكمال، وأدخل رجاءٌ أفضل نتقرَّب به إلى الله.

الكهنوت الجديد والقدس الجديد

ورأس الكلام في هذا الحديث أنَّ لنا عظيم كهنةٍ هذا هو شأنه: جلس عن يمين عرش الجلال في السموات، خادماً للقدس، والخيمة الحقيقية التي نصبها الرَّبُّ لا الإنسان. فإنَّ كل عظيم كهنةٍ يقام ليقرب القرابين والذبائح، ولذلك فلا بدَّ له أيضاً أن يكون لديه شيءٌ يُقرِّبه. فلو كان يسوع في الأرض لما جعل كاهناً، لأن هناك من يقرب القرابين وفقاً للشريعة. غير أن عبادة هؤلاء عبادة

صورةٍ وظلٍّ للحقائق السَّماوية. وذلك ما أوحي إلى موسى حين همَّ بأن ينصب الخيمة، فقد قيل له: «أنظر واعمل كلَّ شيءٍ على الطِّراز الذي عرض عليك على الجبل».

المسيح وسيط العهد الأفضل

فإنَّ المسيح قد نال اليوم خدمةً أفضل بمقدار ما هو وسيطٌ لعهدٍ أفضل من الذي قبله لأنَّه مبني على مواعد أفضل. فلو كان العهد الأوَّل لا غبار عليه، لما كان هناك داعٍ إلى عهدٍ آخر. فإنَّ الله يلومهم بقوله:

«ها إنَّها أيَّام تأتي، يقول الرَّبّ
أقطع فيها لبيت إسرائيل ولبيت يهوذا عهداً جديداً
لا كالعهد الذي جعلته لآبائهم
يوم أخذت بأيديهم لأخرجهم من أرض مصر
لأنَّهم لم يثبتوا على عهدي
فأهملتهم أنا أيضاً، يقول الرَّبّ.
وهذا هو العهد الذي أُعاهد عليه بيت إسرائيل
بعد تلك الأيام، يقول الزب:
إنِّي لأجعل شريعتي في ضمائرهم وأكتبها في قلوبهم
فأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً.
فلا أحد يعلِّم بعد ذلك ابن وطنه
ولا أحد يعلِّم أخاه فيقول له: اعرف الرَّبّ
لأنَّهم سيعرفونني كلُّهم من صغيرهم إلى كبيرهم

فأصفح عن آثامهم ولن أذكر خطاياهم بعد ذلك». فإنَّه، إذ يقول: «عهداً جديداً»، فقد جعل العهد الأوَّل قديماً، وكلُّ شيءٍ قدم وشاخ يصبح قريباً من الفناء.

المسيح يدخل القدس السماوي

فالعهد الأوَّل أيضاً كانت له أحكام العبادة والقدس الأرضيّ. فقد نصبت خيمةٌ هي الخيمة الأولى، وكانت فيها المنارة والمائدة والخبز المقدَّس، ويقال لها القدس. وكان وراء الحجاب الثّاني الخيمة التي يقال لها قدس الأقداس، وفيها الموقد الذّهبي للبخور وتابوت العهد وكُلُّه مغشّى بالذّهب، وفيه وعاءٌ ذهبي يحتوي المنَّ وعصا هارون التي أورقت ولوحي العهد. ومن فوقه كروباً المجد يُظلّلان غطاء الكفّارة. وليس هنا مقام تفصيل الكلام على جميع ذلك.

ذاك كلّه على هذا التّرتيب، فالكهنة يدخلون الخيمة الأولى كلَّ حين ويقومون بشعائر العبادة، وأمَّا الخيمة الأخرى فإنَّ عظيم الكهنة وحده يدخلها مرَّةً في السَّنة، ولا يدخلها بلا دم، الدَّم الذي يقربه عن محاهله ومحاهل شعبه. وبذلك يشير الرُّوح القدس إلى أنَّ طريق القدس لم يكشف عنه ما دامت الخيمة الأولى. وهذا رمزٌ إلى الوقت الحاضر، ففيه تقرَّب قرابين وذبائح ليس بوسعها أن تجعل من يقوم بالشّعائر كاملاً من جهة الضَّمير: فهي تقتصر على المآكل والمشارب ومختلف الوضوء، إنّها أحكام بشريَّةٌ فرضت إلى وقت الإصلاح.

أمَّا المسيح فقد جاء عظيم كهنةٍ للخيرات المستقبلة، ومن خلال خيمةٍ أكبر وأفضل لم تصنعها الأيدي، أي أنها ليست من هذه الخليقة، دخل القدس مرّةً واحدة، لا بدم التّيوس والعجول، بل بدمه، فحصل على فداء أبدي. فإذا كان دم التّيوس والثّيران ورشُّ رماد العجلة يقدّسان المنجّسين لتطهر أجسادهم، فما أولى دم المسيح، الذي قرَّب نفسه إلى الله بروحٍ أزليٍّ قرباناً لا عيب فيه، أن يطهِّر ضمائرنا من الأعمال الميتة لنعبد الله الحيّ!

إيمان الأجداد عبرة

فالإيمان قوام الأمور التي ترجى وبرهان الحقائق التي لا ترى، وبفضله شهد للأقدمين. وبالإيمان ندرك أنَّ العالمين أنشئت بكلمة الله، حتّى إنَّ ما يرى يأتي ممَّا لا يرى.

بالإيمان قرَّب هابيل لله ذبيحة أفضل من ذبيحة قاين، وبالإيمـان شـهد لـه أنـه بارّ، فقد شهد الله لقرابينه، وبالإيمان ما زال يتكلّم بعد موته.

وبالإيمان أخذ أخنوخ لئلاّ يرى الموت، «فلـم يجـده أحـدٌ لأنَّ اللـه أخـذه». وشهد له قبل رفعه بأنَّ الله رضي عنه. وبغير الإيمان يستحيل نيل رضا اللـه، لأنّـه يجب على الذي يتقرَّب إلى الله أن يؤمن بأنّه موجود وأنّه يجازي الذين يبتغونه.

بالإيمان أوحيت إلى نـوح أمـورٌ لـم تكـن وقتئـذ مرئيّـة، فتـورَّع وبنـى سـفينةً لخلاص أهل بيته، حكم بها على العالم وصار وارثاً للبرِّ الحاصل بالإيمان.

وبالإيمان لبَّى إبراهيم الدَّعوة فخرج إلى بلدٍ قدِّر له أن يناله. ميراثاً، خرج وهو لا يدري إلى أين يتوجه. وبالإيمان نزل في أرض الميعاد نزولـه فـي أرضٍ غريبـة، وأقام في الخيام مع إسحق ويعقوب الشَّريكين في الميراث الموعـود عينـه، فقـد كان ينتظر المدينة ذات الأسس والله مهندسها وبانيها.

وبالإيمان نالت سارة هي أيضاً القوَّة على إنشاء نسـل، وقـد جـاوزت السِّنّ، ذلـك بأنّهـا عـدَّت الّـذي وعـد أمينـاً. ولذلـك ولـد مـن رجـلٍ واحـدٍ، وقـد قارب الموت، نسلٌ «كنجوم السَّماء كثرةً وكـالرَّمل الـذي علـى شـاطئ البحـر، وهو لا يحصى».

في الإيمان مات أولئك جميعاً ولم يحصلوا على المواعد، بل رأوهـا وحيَّوهـا عن بعد، واعترفوا بأنّهم «غرباء نزلاء في الأرض». فإنَّ الذين يقولون هـذا القـول يدلون على أنهم يسعون إلى وطن. ولو كانوا يفكرون فـي الوطـن الـذي خرجـوا منه، لكان لهم الوقت للرُّجوع إليه، في حين أنّهم يرغبون في وطن أفضـل، أعنـي الوطني السماوي. لذلك لا يستحيي الله أن يدعى إلههم، فقد أعدَّ لهم مدينة.

وبالإيمان قرَّب إبراهيم إسحق، لمَّا امتحـن. فكـان يقـرِّب ابنـه الوحيـد، وقـد تلقى المواعد، وكان قد قيل له: «بإسـحق سيكون لـك نسـلٌ يحمـل اسـمك». فقد اعتقد أنَّ الله قادرٌ حتّى على أن يقيم من بين الأموات. لذلـك استردَّه، وفـي هذا رمز.

وبالإيمان بارك إسحق يعقوب وعيسو في شؤون المستقبل. وبالإيمان بارك يعقوب. لمَّا حضره الموت، كلاًّ من ابني يوسف «وسجد وهو مسندٌ إلى طرف عصاه». وبالإيمان ذكر يوسف، وقد حان أجله، خروج بني إسرائيل وأوصى برفاته.

بالإيمان أخفى موسى أبواه بعد مولده ثلاثة أشهر لأنّهما رأيا حسن الصَّبيِّ ولم يخشيا أمر الملك. وبالإيمان أبى موسى، حين صار شابّاً، أن يدعى ابناً لبنت فرعون، وآثر أن يشارك شعب الله في عذابه على التَّمتُّع الزَّائل بالخطيئة، وعدَّ عار المسيح غنى أعظم من كنوز مصر، لأنّه كان يطمح إلى الثواب. وبالإيمان ترك مصر ولم يخش غضب الملك، وثبت على أمره ثبوت من يرى ما لا يرى. وبالإيمان أقام الفصح ورشَّ الدَّم، لئلاَّ يمسَّ المبيد أبكار بني إسرائيل. بالإيمان جازوا البحر الأحمر كأنّه برٌّ، في حين أنَّ المصريِّين حاولوا العبور فغرقوا.

بالإيمان سقط سور أريحا بعد الطوَّاف بعد سبعة أيَّام. بالإيمان لم تهلك راحاب البغيُّ مع الكُفَّار، لأنّها تقبَّلت الجاسوسين بالسَّلام.

وماذا أقول أيضاً؟ إنَّ الوقت يضيق لي، إذا أخبرت عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداوود وصموئيل والأنبياء. فهم بفضل الإيمان دوَّخوا الممالك وأقاموا العدل ونالوا المواعد وكمُّوا أفواه الأسود وأخمدوا أجيج النَّار ونجوا من حدِّ السَّيف وتغلَّبوا على المرض وصاروا أبطالاً في الحرب وردُّوا غارات الغرباء، واستعاد نساء أمواتهنَّ بالقيامة.

وتحمَّل بعضهم توتير الأعضاء وأبوا النَّجاة رغبةً في الأفضل، أي في القيامة، وبعضهم الآخر عانى السخرية والجلد، فضلاً عن القيود والسجن. ورجموا ونشروا وماتوا قتلاً بالسيف وهاموا على وجوههم، لباسهم جلود الغنم وشعر المعز، محرومين مضايقين مظلومين، لا يستحقُّهم العالم، وتاهوا في البراري والجبال والمغاور وكهوف الأرض.

وهؤلاء كلهم تلقَّوا شهادة حسنةً بفضل إيمانهم، ولكنّهم لم يحصلوا على الموعد، لأنَّ الله قدَّر لنا ما هو أفضل لكيلا يدركوا الكمال من دوننا.

إنّكم لم تقتربوا من شيءٍ ملموس: نار مستعرة وعتمة وظلام وإعصار ونفخٍ في البوق وصوت كلام طلب سامعوه ألا يزادوا منه لفظة لأنهم لم يطيقوا تحمُّل هذا الأمر: «حتّى الوحش، لو مسَّ الجبل، فليرجم» كان المنظر رهيباً حتّى إنّ موسى قال: «أنا مرعوب مرتعد». أمَّا أنتم فقد اقتربتم من جبل صهيون، ومدينة الله الحي، أورشليم السَّماوية، ومن ربوات الملائكة في حفلة عيد، من جماعة الأبكار المكتوبة أسماؤهم في السَّموات، من إله ديَّان للخلق أجمعين، ومن أرواح الأبرار الذين بلغوا الكمال، من يسوع وسيط عهدٍ جديد، من دمٍ يرشّ، كلامه أبلغ من كلام دم هابيل. فاحذروا أن تعرضوا عن سماع ذاك الذي يكلمكم. فإذا كان الذين أعرضوا عن الذي أنذرهم في الأرض لم يفلتوا من العقاب، فكم بالأحرى لا نفلت نحن إذا تولينا عن الذي يكلمنا من السماء؟ إن الذي زعزع صوته الأرض حينذاك قد وعدنا الآن فقال: «أزلزل مرّةً أخرى، لا الأرض وحدها، بل السَّماء أيضاً». فالقول «مرة أخرى» يشير إلى زوال الأشياء المزعزعة لأنها مخلوقة، لتبقى الأشياء التي لا تزعزع. فنحن وقد حصلنا على ملكوت لا يتزعزع، فلنتمسَّك بهذه النِّعمة ونعبد بها الله عبادةً يرضى عنها، بتقوى وورع، فإنَّ إلهنا نارٌ آكلة.

<u>تعليق</u>: لا شك أن الأدلة التي تنقض صحّة الرسالة، ونسبها إلى بولص، هي كثيرة، ذلك أن الأسلوب العام لرسالته إلى العبرانيين، لا يتوافق البتة مع طابع الرسائل العام للقديس بولص، فهنا الإنشاء مختلف والتأليف مسترسل في مجرى مسبق التخطيط، وشخصية الكاتب مفرطة في التواري، وهناك فروق كثيرة في الألفاظ والتراكيب المستخدمة في الرسالة، تنم عن افتراق مع العهد الجديد، حتى بما في ذلك تفّهم سر المسيح. فمن العبث أن يبحث المرء في الرسالة عن تسمية المسيح أو يسوع، أو عن عبارة (في المسيح) التي غالباً ما يستخدمها بولص في رسائله، أما الشواهد من العهد القديم، فلا يؤتى عليها بأنها من الكتب أو

قال الكتاب، بل على أنها إيحاءات سماوية قائمة الآن، ورغم تنصيب الكاتب المتكرر، للمسيح في السماء، إلا أنه تحدث مرة واحدة فقط، عن قيامته من بين الأموات، وبمقدور المرء أن يقيم العديد من الشواهد على فرادة الرسالة ونأيها عن العهد الجديد، حتى بلغ الأمر حدّه عند البعض، حين أنكروا إنكاراً تاماً، أن تكون الرسالة بريشة القديس بولص نفسه.

غير أن البعض الآخر، لا تنقصه البرهنة على إقامة الشواهد على تنسيب الرسالة للرسول بولص، إذ هي من ذات المستنبت الفكري لأرض التوراة الخصبة.. ومهما يكن من رأي، ورأي آخر، فإن المحصلة كانت في رجحان كفّة التوراتية في العهد الجديد، مما أفضى مع رسائل ورؤى وتنبؤات وأسفار أخرى، إلى اعتبار المسيحية وكأنها ملحق من ملاحق العهد القديم، خاصة في النصف الغربي من الكرة الأرضية..

الرؤى القيامية وطقوس الإبادة

رؤيا يوحنا وعنف التوراة

أوائل الرؤيا

أنا، أخاكم يوحنّا الذي يشارككم في الشدة والملكوت والثبات في يسوع، كنت في جزيرة بطمس لأجل كلمة الله وشهادة يسوع، فاختطفني الروح يوم الرَّبّ، فسمعت خلفي صوتاً جهيراً كصوت البوق يقول: « ما تراه فاكتبه في كتابٍ وابعث به إلى الكنائس السَّبع التي في أفسس وإزمير وبرغامس وتياطيرة وسرديس وفيلدلفية واللاذقيَّة». فالتفتُّ لأنظر إلى الصَّوت الذي يخاطبني، فرأيت في التفاتي سبع مناور من ذهب، وبين المناور ما يشبه ابن إنسان، وقد لبس ثوباً ينزل إلى قدميه وشدَّ صدره بزنّار من ذهب. وكان رأسه وشعره أبيضين كالصُّوف الأبيض، كالثّلج، وعيناه كلهب النّار، ورجلاه أشبه بنحاسٍ خالص منقّىً بنار أتُّون، وصوته كصوت مياهٍ غزيرة. وفي يده اليمنى سبعة كواكب، ومن فمه خرج سيفٌ مرهف الحدَّين، ووجهة كالشَّمس تضيء في أبهى شروقها.

فلمَّا رأيته ارتميت عند قدميه كالميت، فوضع يده اليمنى عليَّ وقال: «لا تخف، أنا الأوَّل والآخر، أنا الحيّ. كنت ميتاً وهاأنذا حيٌّ أبد الدُّهور. عندي مفاتيح الموت ومثوى الأموات. فأكتب ما رأيت، ما هو الآن وما سيحدث بعد ذلك، أمَّا سرُّ الكواكب السبعة التي رأيتها في يميني ومناور الذهب السبع، فإنَّ الكواكب السَّبعة هي ملائكة الكنائس السَّبع، والمناور السَّبع هي الكنائس السَّبع.

شؤون العالم بيد الحمل

رأيت بعد ذلك باباً مفتوحاً في السّماء، وإذا الصَّوت الأوَّل الذي سمعته يخاطبني كأنَّه بوق، يقول: «اصعد إلى هاهنا، فسأريك ما لابدَّ من حدوثه بعد ذلك». فاختطفني الرُّوح لوقته. وإذا بعرش قد نصب في السَّماء، وعلى العرش قد جلس واحدٌ، والجالس على العرش منظره أشبه بحجر اليشب والياقوت الأحمر، وحول العرش هالةٌ منظرها أشبه بالزُّمرُّد، وحول العرش أربعةٌ وعشرون عرشاً، وعلى العروش جلس أربعةٌ وعشرون شيخاً يلبسون ثياباً بيضاً وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب. ومن العرش تخرج بروقٌ وأصواتٌ ورعود، وتتّقد أمام عرشه سبعة مصابيح من نارٍ هي أرواح الله السَّبعة. وأما العرش مثل بحرٍ شفّافٍ أشبه بالبلّور. وفي وسط العرش وحول العرش أربعة أحياء رصِّعت بالعيون من قدَّامٍ ومن خلف. فالحيُّ الأوَّل أشبه بالأسد، الحيُّ الثاني أشبه بالعجل، والحيُّ الثالث له وجه كوجه الإنسان، والحي الرابع أشبه بالعقاب الطائر. ولكلٍّ من الأحياء ستَّةُ أجنحةٍ رصعت بالعيون من حولها ومن داخلها، وهي لا تنفك تقول نهاراً وليلاً:

«قُدُّوسٌ قُدُّوس قُدُّوس

الرَّبّ الإله القدير

الذي كان وهو كائنٌ وسيأتي».

وكلَّما رفعت الأحياء التَّمجيد والإكرام والشُّكر إلى الجالس على العرش، إلى الحيِّ أبد الدُّهور، يجثو الأربعة والعشرون شيخاً أمام الجالس على العرش، ويسجدون للحيِّ أبد الدُّهور، ويلقون أكاليلهم أمام العرش ويقولون: «أنت أهلٌ،

أيُّها الرَّبّ إلهنا، لأن تنال المجد والإكرام والقدرة، لأنَّك خلقت الأشياء كلَّها وبمشيئتك كانت وخلقت».

ورأيت بيمين الجالس على العرش كتاباً مخطوطاً من الدَّاخل والخارج، مختوماً بسبعة أختام. ورأيت ملاكاً قويّاً ينادي بأعلى صوته: «من هو أهلٌ لفتح الكتاب وفضّ أختامه؟» فما استطاع أحدٌ في السَّماء ولا في الأرض ولا تحت الأرض أن يفتح الكتاب ولا أن ينظر ما فيه. فجعلت أبكي بكاءً شديداً، لأنَّه لم يوجد أحدٌ أهلاً لأن يفتح الكتاب وينظر ما فيه. فقال لي واحدٌ من الشُّيوخ: «لا تبك. ها قد غلب الأسد من سبط يهوذا، ذرِّيَّة داوود: فسيفتح الكتاب ويفضُّ أختامه السَّبعة».

ورأيت بين العرش والأحياء الأربعة وبين الشُّيوخ حملاً قائماً كأنَّه ذبيح، له سبعة قرون وسبع أعينٍ هي أرواح الله السَّبعة التي أُرسلت إلى الأرض كلِّها. فأتى وأخذ الكتاب من يمين الجالس على العرش. ولمَّا أخذ الكتاب، جثا الأحياء الأربعة والشيوخ الأربعة والعشرون أمام الحمل، وكان مع كل واحدٍ منهم كنَّارةٌ وأكوابٌ من ذهب ملئت عطوراً هي صلوات القدِّيسين. وكانوا يرتِّلون نشيداً جديداً فيقولون: «أنت أهلٌ لأن تأخذ الكتاب وتفضَّ أختامه، لأنَّك ذبحت وافتديت لله بدمك أُناساً من كل قبيلةٍ ولسانٍ وشعب وأمَّة، وجعلت منهم لإلهنا مملكةً وكهنةً سيملكون على الأرض».

وتوالت رؤياي فسمعت صوت كثير من الملائكة حول العرش والأحياء والشُّيوخ، وكان عددهم ربوات ربوات وألوف ألوف، وهم يصيحون بأعلى أصواتهم: «الحمل الحمل الذَّبيح أهل لأن ينال القدرة والغنى والحكمة والقوَّة والإكرام والمجد والتَّسبيح».

وكلُّ خليقةٍ في السماء وعلى الأرض وتحت الأرض وفي البحر، وكلُّ ما فيها، سمعته يقول: «للجالس على العرش وللحمل التَّسبيح والإكرام والمجد والعزَّة أبد الدُّهور». وكانت الأحياء الأربعة تقول: «آمين». وجثا الشُّيوخ ساجدين.

صلوات القديسين تُدني اليوم العظيم

ورأيت الملائكة السَّبعة القائمين بين يدي الله قد أعطوا سبعة أبواق. وجاء ملاك آخر، فقام على المذبح ومعه مجمرةٌ من ذهب، فأعطي عطوراً كثيرةً ليقرِّبها مع صلوات جميع القدِّيسين على المذبح الذهب الذي أمام العرش. وتصاعد من يد الملاك دخان العطور مع صلوات القدِّيسين أمام الله. فأخذ الملاك المجمرة فملأها من نار المذبح وألقاها إلى الأرض، فحدثت رعودٌ وأصواتٌ وبروقٌ وزلزال.

الأبواق الأربعة الأولى

والملائكة السَّبعة أصحاب الأبواق السَّبعة استعدُّوا لأن ينفخوا فيها. فنفخ الأوَّل في بوقه، فكان بردٌ ونارٌ يخالطهما دمٌ وألقيا إلى الأرض، فاحترق ثلث الأرض، واحترق ثلث الشجر، واحترق كلُّ عشبٍ أخضر.

ونفخ الملاك الثَّاني في بوقه، فألقي في البحر مثل جبل عظيم مشتعل، فصار ثلث البحر دماً، ومات ثلث الخلائق التي في البحر، وتلف ثلث السُّفن.

ونفخ الملاك في بوقه، فهوى من السَّماء كوكبٌ عظيم يلتهب كالمشعل، فسقط على ثلث الأنهار وعلى ينابيع المياه. واسم الكوكب علقم، فصار ثلث المياه علقماً، وكثيرٌ من النَّاس ماتوا بالمياه لأنَّها صارت مرَّة.

ونفخ الملاك الرَّابع في بوقه، فأصيب ثلث الشَّمس وثلث القمر وثلث الكواكب، حتَّى أظلم ثلثها ففقد النَّهار ثلث ضيائه والليل كذلك.

وتوالت رؤياي فسمعت عقاباً يطير في كبد السَّماء، ويقول بأعلى صوته: «الويل الويل الويل لأهل الأرض من سائر أصوات أبواق الملائكة الثَّلاثة الذين سينفخون فيها!».

البوق الخامس

ونفخ الملاك الخامس في بوقه، فرأيت كوكباً من السماء قد هوى إلى الأرض، وأُعطي مفتاح بئر الهاوية، ففتح بئر الهاوية، فتصاعد من البئر دخان مثل

دخان أتُّون كبير، فأظلمت الشَّمس والجوُّ من دخان البئر، ومن الدُّخان انتشر جرادٌ على الأرض، وأُولي سلطاناً كالسلطان الذي لعقارب الأرض، وأمر بألاَّ ينزل ضرراً بعشب الأرض ولا بأي شيءٍ أخضر ولا بأيِّ شجرٍ كان، بل بالنَّاس الذين ليس ختم الله على جباههم، وأجيزَ له، لا أن يميتهم، بل أن يعذِّبهم خمسة أشهر، ويكون عذاباتهم مثل عذاب العقرب عندما تلسع الإنسان.

وفي تلك الأيَّام يطلب الناس الموت فلا يجدونه، ويشتهون أن يموتوا فيهرب الموت منهم.

ومنظر الجراد أشبه بالخيل المعدَّة للحرب، وعلى رؤوسه مثل أكاليل من ذهب، ووجه كوجوه البشر، وله شعرٌ كشعر النِّساء، وأسنانه كأنياب الأسود، وكان له دروع كدروع من حديد، وحفيف أجنحته كضجيج المركبات تجري بها طائفة من الخيل إلى الحرب، وله أذناب أشبه بأذناب العقارب لها حُمات، وفي أذنابه سلطانٌ على أن ينزل الضَّرر بالنَّاس مدَّة خمسة أشهر، وعلى رأسه ملكٌ هو ملاك الهاوية يُسمَّى بالعبريَّة أبدُّون، واسمه باليونانيَّة أبلِّيون.

مضى الويل الأوَّل، وها هوذا ويلان آتيان بعد ذلك.

البوق السادس

ونفخ لملاك السَّادس في بوقه، فسمعت صوتاً، قد خرج من القرون الأربعة لمذبح الذَّهب الذي في حضرة الله. فقال للملاك السَّادس، ذلك الذي يحمل البوق: «أطلق الملائكة الأربعة المقيَّدين على النَّهر الكبير، نهر الفرات». فأطلق الملائكة الأربعة المتأهِّبون للسَّاعة واليوم والشَّهر والسَّنَة، كي يقتلوا ثلث النَّاس. ويبلغ جيش الخيَّالة مائتي ألف ألف، وسمعت عددهم.

ورأيت الخيل في الرؤيا وفرسانها على هذا النحو: لهم دروع من نار وياقوت وكبريت، ورؤوس الخيل كرؤوس الأسود، ومن أفواهها تخرج نارٌ ودخانٌ وكبريت. فمن هذه النَّكبات الثَّلاث مات ثلث النَّاس، ماتوا بالنَّار والدُّخان والكبريت الخارج من أفواهها. فإنَّ سلطان الخيل في أفواهها وفي أذنابها، لأنَّ أذنابها أشبه بالحيَّات ولها رؤوس بها تنزل الضَّرر. أما سائر الناس، أولئك

الذين لم يموتوا من هـذه النكبات، فلـم يتوبـوا مـن أعمـال أيديهـم فيكفُّـوا عـن السجود للشياطين ولأصنام من ذهب وفضة ونحاس وحجر وخشبٍ ليس بوسعها أن ترى وتسمع وتمشي، ولـم يتوبـوا مـن أعمـال قتلهـم ولا سـحرهم ولا زنـاهم ولا سرقاتهم.

اقتراب العقاب الأخير

ورأيت ملاكاً آخر قوياً هابطاً من السماء، ملتحفاً بغمامة، وعلى رأسـه هالـة، ووجهة كالشمس ورجلاه كعمودين من نار، وبيده كتابٌ صغيرٌ مفتـوح. فوضـع رجله اليمنى على البحر واليسرى على البرّ، وصاح بأعلى صوته كأسد يزأر. فلمَّـا صاح تكلمت الرُّعود السَّبعة بأصواتها. ولمَّا تكلَّمت الرُّعود السَّبعة، هممت بـأن أكتب، فسمعت صوتاً من السماء يقول لي: « أكتم ما تكلمت به الرعود السبعة، فلا تكتبه». والملاك الذي رأيتـه قائمـاً علـى البحـر والـبر رفـع يـده اليمنـى نحـو السماء، وأقسم بالحي أبد الدهور، الذي خلـق السـماء ومـا فيهـا والـبر ومـا فيـه والبحر وما فيه، أنّه لا مهلة من بعد. ولكن، في الأيام التي سيسـمع فيهـا المـلاك السابع عندما ينفخ في البوق، يتم سرُّ الله، كما بشَّر به عبيده الأنبياء.

ابتلاع الكتاب الصغير

والصَّوت الذي سمعته آتياً من السماء خاطبني ثانيةً قال: «اذهب فخذ الكتاب المفتوح بيد الملاك القائم على البحر والبر» فذهبت إلى الملاك فسألته أن يعطيني الكتاب الصغير، فقال لي: «خذه فابتلعه يملأ جوفك مـرارة، ولكنّـه سيكون فـي فمك حلواً كالعسل». فأخذت الكتاب الصغير من يد الملاك فابتلعتـه فكـان فـي فمي حلواً كالعسل، ولمَّا أكلته ملأ جوفي مرارة. فقيل لي: «لابد لك من أن تتنبأ أيضاً عن كثير من الشُّعوب والأمم والألسنة والملوك».

الشاهدان

وأعطيتُ قصبةً مثل قصبة المسح، وقيل لي: «قـم فقـس هيكـل اللـه والمذبـح والساجدين فيه. أمَّا الفناء الذي فـي خـارج الهيكـل فدعـه ولا تقسـه لأنّـه جعـل

للوثنيين، فسيدوسون المدينة المقدسة اثنين وأربعين شهراً، وسأخول شاهدي أن يتنبأ ألف يومٍ ومائتي يوم وستين وهما لابسان المسح. إنهما الزيتونتان والمنارتان القائمة في حضرة رب الأرض. فإذا أراد أحدٌ أن ينزل بهما ضرراً، خرجت من فمهما نارٌ فالتهمت أعداءهما. فإذا أراد أحدٌ أن ينزل بهما ضرراً، فهكذا يجب أن يموت. ولهما سلطانٌ على إغلاق السماء، فلا ينزل المطر في أيام نبوءتهما. ولهما سلطانٌ على المياه يحوِّلانها به إلى دم، ويضربان الأرض بمختلف النكبات على قدر ما سيشاؤون. فإذا أتمَّا شهادتهما، حاربهما الوحش الصَّاعد من الهاوية فغلبهما وقتلهما. وتبقى جثتاهما في ساحة المدينة العظيمة التي تدعى، على سبيل الرَّمز، سدوم ومصر، وهناك صلب ربهما. وينظر أناس من الشعوب والقبائل والألسنة والأمم إلى جثتيهما ثلاثة أيام ونصف يوم، ولا يدعون أحداً يضع جثتيهما في القبر. ويشمت بهما أهل الأرض فيفرحون ويتبادلون الهدايا، لأنَّ هذين النبيَّين أنزلا بأهل الأرض عذاباً شديداً.

وبعد الأيام الثلاثة ونصف اليوم، دخل فيهما نفس حياةٍ من عند الله، فوقفا على أقدامهما، فنزل بالناظرين إليهما خوفٌ شديد، وسمعا صوتاً جهيراً آتياً من السَّماء يقول لهما: «اصعدا إلى هاهنا». فصعدا إلى السماء في الغمام، ونظر إليهما أعداؤهما. وفي تلك السَّاعة، حدث زلزال شديد فانهار عشر المدينة، ومات في الزلزال سبعة آلافٍ من الناس. وخاف سائر النَّاس فمجَّدوا إله السَّماء.

البوق السابع

مضى الويل الثاني، فهاهوذا الويل الثالث آت على عجل.

ونفخ الملاك السابع في بوقه، فتعالت أصواتٌ من السَّماء تقول: «صار ملك العالمين لربِّنا ولمسيحه. فسيملك أبد الدُّهور». والشيوخ الأربعة والعشرون الجالسون على عروشهم بين يدي الله سقطوا على وجوههم وسجدوا لله قائلين: «نشكرك أيها الرب الإله القدير، الذي هو كائن وكان، لأنك أعملت قوتك العظيمة وملكت، فغضبت الأمم. فحلَّ غضبك وحان الوقت، الذي يدان فيه الأموات، فتكافئ عبيدك الأنبياء والقديسين والذين يتّقون اسمك صغاراً وكباراً،

وتبيد الذين عاثوا في الأرض فساداً» فانفتح هيكل الله في السماء فبدا تابوت عهده في هيكله، وحدثت بروقٌ وأصوات ورعودٌ وزلزالٌ وبردٌ شديد.

الملائكة تنذر بيوم الدينونة

ورأيت ملاكاً آخر يطير في كبد السماء، معه بشارةٌ أبدية يبشر بها المقيمين في الأرض من كل أمةٍ وقبيلة ولسان وشعب، فيقول بأعلى صوته: «اتقوا الله ومجدوه، فقد أتت ساعة دينونته، فاسجدوا لمن خلق السَّماء والبرَّ والبحر والينابيع». وتبعه ملاكٌ آخر ثانٍ يقول: «سقطت، سقطت بابل العظيمة، التي من خمرة سورة بغائها سقت جميعَ الأمم». وتبعهما ملاكٌ آخر ثالثٌ يقول بأعلى صوته: «من سجد للوحش وصورته وتلقَّى سمةً على جبهته أو يده، فسيشرب هو أيضاً من خمرة سخط الله، مسكوبةً صرفاً في كأس غضبه، ويعاني العذاب في النَّار والكبريت أمام الملائكة الأطهار وأمام الحمل. ودخان عذابهم يتصاعد أبد الدُّهور، ولا راحة في النهار والليل للساجدين للوحش وصورته ولمن يتلقَّى سمة الوحش. هذه ساعة ثبات القديسين الذين يحافظون على وصايا الله والإيمان بيسوع».

وسمعت صوتاً من السَّماء يقول: «أُكتب: طوبى منذ الآن للأموات الذين يموتون في الربّ! أجل، يقول الرُّوح، فليستريحوا من جهودهم، لأنَّ أعمالهم تتبعهم».

حصاد الوثنيين

ورأيت غمامةً بيضاء، وعلى الغمامة جالساً من هو أشبه بابن إنسان، على رأسه إكليل من ذهب وبيده منجلٌ مسنون. وخرج من الهيكل ملاكٌ آخر يصيح صياحاً عالياً بالجالس على الغمامة: «أرسل منجلك واحصد، لقد حانت ساعة الحصاد، فقد نضج حصاد الأرض». فألقى الجالس على الغمامة منجله في الأرض فحصدت الأرض.

وخرج ملاكٌ آخر من الهيكل الذي في السماء، ومعه هو أيضاً منجلٌ مسنون. وخرج من المذبح ملاكٌ آخر له سلطان على النّار. فصاح صياحاً عالياً بصاحب المنجل المسنون: «أرسل منجلك المسنون واقطف عناقيد كرم الأرض، لأن عنبها قد نضج». فألقى الملاك منجله في الأرض وقطف كرم الأرض وأفرغه في معصرة سخط الله، المعصرة الكبيرة، فديست المعصرة بالأقدام في خارج المدينة، فخرج من المعصرة دمٌ فارتفع حتى بلغ لجم الخيل على مدى ألفٍ وستمائة غلوة.

نشيد موسى والحمل

ورأيت آية أخرى في السماء، عظيمة عجيبة: سبعة ملائكةٍ يحملون سبع نكبات، وهي الأخيرة لأن بها يتمُّ سخط الله. ورأيت مثل بحرٍ من بلورٍ مختلط بالنّار، والذين غلبوا الوحش وصورته وعدد اسمه قائمين على بحرِ البلّور، يحملون كنّارات الله ويرتلون نشيد عبد الله موسى ونشيد الحمل فيقولون:

«عظيمة عجيبة أعمالك أيها الربُّ الإله القدير

وعدل وحقٌّ سبُلُك، يا ملك الأمم.

جبينها اسم مكتوب فيه سرّ: والاسم بابل العظيمة، أم بغايا الأرض وقبائحها. ورأيت المرأة سكرى من دم القديسين ومن دم شهداء يسوع. فعجبت من رؤيتها أشدَّ العجب. فقال لي لملاك: «لم عجبت؟ إني سأقول لك سرَّ المرأة والوحش الذي يحملها، صاحب الرؤوس السّبعة والقرون العشرة.

ملاك يخبر بسقوط بابل

رأيت بعد ذلك ملاكاً آخر هابطاً من السماء، له سلطان عظيم، فاستنارت الأرض من بهائه. فصاح بصوتٍ شديد: «سقطت، سقطت بابل العظيمة! وصارت مسكناً للشّياطين، ومأوىً لكل روحٍ نجس، ومأوى لكلِّ طائر نجس، ومأوى لكل وحشٍ نجس ممقوت، فمن خمرة سورة بغائها شربت جميع الأمم، وملوك الأرض زنوا بها، وتجّار الأرض اغتنوا من فرط ترفها».

كيف ينجو شعب الله

وسمعت صوتاً آخر من السماء يقول: «اخرجوا منها، يا شعبي، لئلا تشاركوا في خطاياها فتصيبكم نكبةٌ من نكباتها، لأنَّ خطاياها تراكمت حتى السماء، فذكر الله آثامها. جاوزها على قدر ما قدَّمت، وضاعفوا لها جزاء فعالها وضاعفوا لها المزج في الكأس التي مزجتها، وعلى قدر ما مجدت نفسها وأترفت، أنزلوا بها عذاباً وحزناً. قالت في قلبها: «إنِّي ملكةٌ على العرش، لست بأرملة، ولن أعرف حزناً». ولذلك، في يوم واحد ستصيبها نكباتها من موتٍ وحزن وجوع، وتحترق بالنّار، لأنّه قديرٌ الرَّبُّ الإله الذي دانها»

البكاء على بابل

سيبكي وينحب عليها ملوك الأرض الذين زنوا بها وأترفوا معها، حين يرون دخان لهيبها، وعلى بعد يقفون خوفاً من عذابها ويقولون:

« يا ويلتاهٌ يا ويلتاه! أيتها المدينة العظيمة! بابل المدينة القويَّة، لأنه في ساعةٍ واحدةٍ أتى الحكم عليك».

وتجار الأرض يبكون ويحزنون عليها، لأن بضاعتهم لن يشتريها أحد.

بضاعةٌ من ذهب وفضَّة وحجرٍ كريم ولؤلؤ وكتّانٍ ناعمٍ وأرجوان وحريرٍ وقرمز ومختلف أنواع العود وأدوات العاج، وخشبٍ ثمين ونحاس وحديد ورخام وقرفةٍ وقاقلّة وعطرٍ ومرّ وبخور وخمرٍ وزيت ودقيق وقمح ومواشٍ وغنم وخيلٍ ومركبات وعبيد ونفوس بشرية.

والفاكهة التي تشتهيها نفسك ذهبت عنك، وكلُّ ترفٍ وبهاءٍ فاتك فلن تجديهما. تجّار تلك البضاعة الذين يغتنون سيقفون على بعدٍ منها خوفاً من عذابها، فيبكون ويحزنون ويقولون: «يا ويلتاه! يا ويلتاه! أيتها المدينة العظيمة اللابسة الكتّان النّاعم والأرجوان والقرمز، المتحلّية بالذهب والحجر الكريم واللُّؤلؤ، في ساعةٍ واحدةٍ دُمر كلُّ هذا الغنى».

جميع الرَّبابنة وجميع بحارة السَّواحل والملاَّحون وجميع الذين يرتزقون في البحر وقفوا على بعدٍ وصرخوا، وهم ينظرون إلى دخان لهيبها، فقالوا: «أيَّة مدينةٍ أشبه بالمدينة العظيمة؟» وذرُّوا التُّراب على رؤوسهم وأخذوا يصرخون باكين محزونين، فيقولون:

«يا ويلتاه! يا ويلتاه! أيتّها المدينة العظيمة! إنَّ جميع أصحاب السُّفن في البحر قد اغتنوا من ثروتها. في ساعةٍ واحدةٍ دمرت. اشمتي بها يا سماء، واشمتوا أيها القديسون والرسل والأنبياء، لأن الله دانها فأنصفكم منها»

وتناول ملاكٌ قويٌّ حجراً مثل رحى كبيرة، فألقاه في البحر وقال: «بمثل هذا العنف ستلقى بابل المدينة العظيمة، ولن يكون لها وجودٌ بعد ذلك.

وصوت العازفين بالكنّارة
والمغنّين والزّمّارين
والنّافخين في الأبواق
لن يسمع فيك.
ولن يوجد فيك أيُّ صانع
ولن تسمع فيك جعجعة رحىً
ولن يضيء فيك نور سراج
ولن يسمع فيك صوت عريس وعروس
لأن تجارك كانوا عظماء الأرض
فبسحرك ضلّلت جميع الأمم
وفيك وجد دم الأنبياء والقديسين
وجميع الذين ذبحوا في الأرض».

أناشيد الظفر في السماء

سمعت بعد ذلك مثل صوتٍ عظيم لجمعٍ كثيرٍ في السماء يقول: «هلّلويا! الخلاص والمجد والقدرة لإلهنا، فحقٌّ وعدلٌ أحكامه. دان البغي المشهّرة التي

أفسدت الأرض ببغائها، وانتقم منها لدم عبيده». وقالوا مرة ثانية: «هلّلويا! فإنّ دخانها يتصاعد أبد الدُّهور». فجثا الشُّيوخ الأربعة والعشرون والأحياء الأربعة ساجدين لله الجالس على العرش وقالوا: «آمين! هلّلويا!» وخرج من العرش صوتٌ يقول: «سبِّحوا إلهنا، يا جميع عبيده والذين يتّقونه من صغارٍ وكبار».

وسمعت مثل صوت جمع كثير ومثل خرير مياه غزيرة ومثل دويّ رعودٍ شديدة يقول: «هلّلويا! لأن الرَّبَّ إلهنا القدير قد ملك. لنفرح ونبتهج! ولنمجد الله، فقد حان عرس الحمل، وعروسه قد تزينت وخولت أن تلبس كتاناً براقاً خالصاً». فإنَّ الكتّان النّاعم هو أعمال البرِّ التي يقوم بها القديسون. وقال لي الملاك: «أكتب: طوبى للمدعوين إلى وليمة عرس الحمل». وقال لي: «هذا الكلام كلام الله حقّ». فارتميت عند قدميه لأسجد له، فقال لي: «إيّاك أن تفعل. إنّي عبدٌ مثلك ومثلِ اخوتك الذين عندهم شهادة يسوع. فلله أسجد، لأنَّ شهادة يسوع هي روح النُّبوءة».

تعليق: إن هذه المقاطع التي اقتطفناها من رؤيا يوحنا، وهي رؤيا طويلة تقع في ست وستين صفحة من القطع المتوسط، تجمع رؤىً توراتية سابقة عليها مثل رؤيا حزقيال ويوئيل وزكريا وأشعيا.. أما الجامع بينها، فهو أن الأحداث بعد وقوعها، يعاد بها إلى الماضي، على أنها كانت نبوءة أحد القديسين قبل وقوعها، ثم يمضي كاتب النبوءة ليعمل مبضعه في جسم المستقبل. إن التدبير الإلهي في مثل هذه الرؤى، تدبير عاصف، فهو مع استعجاله لنهاية البشرية (أو نهاية الزمان)، يشيع نظرة التشاؤم، ذلك أنها تلح في زوال العالم لشيوع الفساد في أرجائه، ولا يأتينا سفر الرؤيا هذا، بشيء من الإيضاح عن حقيقة كاتبه، فقد أطلق على نفسه اسم يوحنا، ونسب لشخصه صفة النبوة، ولم يذكر قط أنه أحد الاثني عشر، وليس في التقليد المسيحي القديم، إجماع على هذا الموضوع، وقد بقي المصدر الرسولي عرضةً للشك مدة طويلة، لدى بعض الجماعات

المسيحية، إذ هناك ما يمكن التأكيد عليه، من اختلاف في الإنشاء والبيئة والتفكير اللاهوتي بين سفر الرؤيا وما جاء في إنجيل يوحنا (أي الإنجيل الرابع)، فسفر الرؤيا موجه في الأساس إلى كنائس آسيا السبع، أي إلى سبع جماعات مسيحية تقيم في قارة آسيا، حيث المركز في أفسس، ولما كان الرقم (سبعة) هو رقم توراتي يوحي بالكمال، فإن الظنّ يذهب إلى أن الرؤيا، موجهة إلى (كامل) الجماعات المسيحية، بغرض بلوغ الأثر الشامل والعميم.

ويذهب بعض المفسرين من المسيحيين، إلى أن سفر الرؤيا، غير متجانس أصلاً، بل هو محاولة غير محكمة، لجمع أشتات من النبوءات السابقة، عبر عقود متباينة من القرن الأول للميلاد، وقد نشرت جريدة الأنوار اللبنانية في عددها الصادر يوم الثامن من أيار ١٩٩٠، مقاطع من كتاب بعنوان (الزوّان في الكتاب المقدس) للكاتب الأستاذ كميل خبّاز، جاء فيه (إن رؤيا يوحنا، وهي آخر الأسفار في الكتاب المقدس عند المسيحيين، هي نبوءة كاذبة ومدسوسة، كما أنها تؤلف إحدى حلقات المؤامرة التي وضعها أئمة اليهود لتحريف الإنجيل).

ويتابع المصدر المذكور: «إن حقيقة الرؤيا لم تكن في الأصل كتاباً واحداً، كما هو موحد في الإنجيل اليوم، بل هي عبارة عن ثلاثة نصوص وفق ما يلي:

<u>النص الأول:</u> وهو ما يسمى (بالرسائل إلى الكنائس السبع) وقد مثلّت هذه الرسائل الإنجيل اليهودي ـ النصراني الذي انتشر نحو ٥٧ ميلادية في كنائس غيلاطية (تركيا) على يد رسل كذبة، وهو ما دحضه القديس بولص في رسالته إلى أهل غيلاطية.

<u>النص الثاني:</u> ويكمن في نبوءة مجيء الدينونة، بشكل رسالة نُسبت إلى القديس بولص، وقد نشرت الرسالة في كنيسة تسالونيكي، حيث دحضها القديس بولص في رسالته الشهيرة الثانية إلى أهل تسالونيكي.

<u>النص الثالث:</u> وهو نبوءة قمرانية عن مجيء يوم القيامة، وقد كُتبت هذه النبوءة سنة ٦٦ للميلاد، أي مع مطلع الأحداث اللاهبة ضد اليهود على يد

روما، وكان الهدف من (النبوءة)، إظهار نصارى فلسطين بمثابة المحرض على الثورة ضد روما، وبعد تدمير أورشليم وانتهاء دور الطائفة الصدوقية اليهودية من أبناء الهيكل، تابع أعداؤهم الفريسيون من اليهود، حربهم السرية ضد المسيحية، وفي أواخر عهد الإمبراطور الروماني دومتيان (٨١-٩٦م)، جُمعت النصوص الثلاثة في رؤيا واحدة، بعد أن أُعيدت صياغتها بلبوس طابع المسيحية العام.

ما بعد العصور الوسطى

اجتياح التوراة للديانة المسيحية

شاءت الروح المقدسة أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس للعالم عن طريقهم وحدهم: إنهم الأطفال ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها، تماماً كالمرأة الكنعانية في إنجيل متّى.

إنني أنصح وأرجو كل شخص، أن يكون لطيفاً في تعامله مع اليهود وأن يعلّمهم الكتاب المقدس، وعندنا نتوقع منهم أن يأتوا إلينا، أما إذا استعملنا العنف الوحشي، وألحقنا بهم الإهانات، بدعوى الحاجة لمساعدة المسيحيين من أجل التخلص من نتنهم، وغير ذلك من السخافات، وإذا بقينا نعاملهم كالكلاب، فأي خير نتوقع. فإذا أردنا أن نجعلهم خيراً مما هم عليه، فعلينا أن نعاملهم حسب القانون المسيحي: المحبة. لا حسب قانون البابا علينا أن نتيح لهم الفرصة لمشاهدة الحياة المسيحية. وعقيدة المسيح، كي يقتربوا أكثر فأكثر منا، فإذا أصرّ بعضهم على عناده، فما الضرر في ذلك؟ نحن أيضاً لسنا جميعاً مسيحّيين صالحين.

البروتستانتية الأولى - عيسى ولد يهودياً - مارتن لوثر

****

إن الكتاب المقدس هو المرجع في الدين والخُلق والسياسة، وإن عقل الإنسان لعاجزٌ عن فهم العدل الإلهي، وغير جدير بالنعيم الأبدي لحملة وزر الخطيئة الأولى. لقد قرر الرب بمشيئة حُرّة لا تتوقف، ما انطوت عليه نفوسنا من فضائل، أو ما وُضع فيها من رذائل، وقبل أن يخلقنا بوقت طويل، فقد تقرر مَنْ منا تكتب له النجاة، ومن منا يعذّب بنار الجحيم، حتى خروج آدم من الجنة فقد فرضته مشيئة الرب العجيبة، فإذا كان الجحيم أو النعيم قدراً مقدوراً، فما قيمة الصلوات والأعمال. إننا نؤمن بالقربان المقدس، وبوجود المسيح بجسده وروحه في الخبز المقدس، لكننا ننكر الصور والتماثيل والصليب، بل ونعدّها ضرباً من الوثنية، والكنيسة نفسها إما أن تكون منظورة، وهي جمهرة المسيحيين، أو غير منظورة، وهي صفوة الأتقياء*، فالدولة والكنيسة مقدستان، إذا كانت الكنيسة مؤمنة بقدسية الاصلاح الديني، الذي هو صوت الله.

البروتستانتية الأولى ـ مبادئ الدين المسيحي. جون كالفن.

العصر الحديث

سبعون مليون أمريكي يؤمنون بهذه الرؤى التوراتية

يتساءل الكثيرون أين تقع هرمجدون؟ وما مدى قربنا منها؟

حسناً إنها تقع إلى الغرب من نهر الأردن، بين الجليل والسامرة في سهل يزرعيل، وعندما وقف نابليون في هذا الموقع العظيم قال: إن هذا المكان سيكون مسرحاً لأعظم معركة في العالم.

إن الكتاب المقدس يعلمنا أن آخر حرب عظيمة في التاريخ، سوف تُخاض في ذلك الجزء من العالم.

الكنيسة الدهرية ـ القس بيلي غراهام

****

* يلتقي كالفن البروتستانتي هنا، مع التوراة، إذ يقسم البشر، حسب القدر المكتوب، إلى صفوة مختارة وناجية من النار، ودهماء معذبة في الأرض والسماء لا خير منها..

الإنجيليون المتجددون

ستبدأ المحرقة عندما يغزو العرب والروس دولة إسرائيل.. تأملوا مئتي مليوناً من البشر في الشرق، وملايين أخرى من البشر في الغرب بقيادة المسيح الدّجال. سيضرب المسيح يسوع أولاً أولئك الذين دمروا مدينة القدس، وبعدها سيضرب الجيوش المحتشدة في وادي هر مجدون، ولا عجب أن يبلغ الدم شكائم الخيل لمسافة مئتي ميل من القدس، وهذا الوادي سيمتلئ بالمعدات الحربية وبالجثث والدم.

يخبرنا الإنجيل في رؤيا يوحنا، أن الرب سيدمر الكون، الأرض والسماوات، كما يقول بطرس في كتاباته أن الدمار سيحدث كما الانفجار المرّوع.

قد يبدو هذا الأمر غير معقول، ولا يستطيع أنّ يتصوّر مثل هذه الوحشية من الإنسان تجاه الإنسان، لكن الرب سيدع طبيعة الإنسان تكشف عن ذاتها في ذلك اليوم.. تصوروا مدنا مثل لندن باريس وطوكيو ونيويورك ولوس أنجلوس وشيكاغو، وقد زالت من الوجود.

الإنجيليون المتجددون ـ القس. هال لندسي.

****

إن الكلمة هنا تبث الرعب في قلوب الناس، سيكون هناك اشتباك أخير، وعندئذ سيتخلّص الرب من هذا الكون، إننا نعلم من سفر الرؤيا، أن الرب سيدمر هذا الكون، وسيترافق هذا التدمير بحرارة عالية وانفجار هائل كما يقول القديس بطرس. وسينتقل المسيح الدجال إلى الشرق الأوسط ويرفع تمثاله في قدس الأقداس من المعبد اليهودي، ويأمر العالم كله أن يعبده كإله ليس غيره، وفي هذا الوقت، وقت معركة هرمجدون، سيذبح الملايين من اليهود الأتقياء، وستنجو قلة منهم، وتقول نبوءة زكريا، أنّ يهوه يؤكد بأن ثلثي اليهود سيموتون، والثلث الآخر سينجو، وسيخبئهم الرب لنفسه بصورة خارقة للطبيعة في مدينة بترا الوردية، ولو سألتني كيف؟ أقول لا أعرف. لكن الرب سيحفظهم لأن اليهود، هم شعب الله المختار.. سيحتشد الملايين في منطقة هرمجدون*، وسيصل العدد

* هؤلاء المبدعون من قساوسة أمريكا، لا يعرفون مجدو الفلسطينية (هرمجدون) أهي سهل أم جبل، منطقة أو وادي.. لذلك ترى لها أوصافاً شتى!..

في المحرقة النهائية إلى ٤٠٠ مليون.. وسينصّب في هذا اليوم غضب الله الشديد كمعصرة خمر..سيجف نهر الفرات، وسيتم تدمير القدس، وستنهش صقور السماء لحم الملوك والقادة ولحم الرجال الأشداء ولحم الخيول وجميع الناس صغاراً وكباراً عبيداً وأحرار.

الكنيسة المعمدانية ـ القس جيري فالويل.

****

نعرف نحن المسيحيين من صميم قلوبنا، أن الله يقف إلى جانب إسرائيل، وليس إلى جانب العرب المسلمين.. فالقرآن وتعاليم الإسلام لا تعمل على سد العميق من حاجات الروح الإنسانية.. إنها أيام عصيبة حين يستند الإسلام إلى عقائد منقسمة على نفسها، حيث منها ما يتطلع إلى الشيوعية، أو ما يشد المادية طلباً للإجابة على مسائل الحياة.. ومع وجود مشاعر سلبية (إحباطيّة) لدى المسلمين، فإن هناك انفتاحاً جديداً لديهم، لتقبل رسالة الكتاب المقدس، التي تمتد من بدء التكوين وحتى آخر يوم في نهاية الزمان.

الكنيسة المعمدانية ـ القس بات روبرتسون.

****

نحن نؤمن بأرض إسرائيل، كما نؤمن بأن كل الأرض المقدسة، هي ميراث الشعب اليهودي، غير القابل للنقل أو التصرف، وهو الوعد الذي أعطي إلى إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ولم يلغ قط، كما أن إنشاء إسرائيل الحديثة هو إيفاء لا ينازع للنبوءة التوراتية، ورؤى النذير بمقدم المسيح، إننا نعتقد أن اليهود في أي مكان، ما زالوا هم شعب الله المختار، وأن الله يبارك مِنْ يباركهم.

مسيحيو العصمة الحرفية ـ القس جورج أوتيس.

****

لقد آمن وأظهر سبعة من رؤساء أمريكا، أن علاقة أمريكا بإسرائيل أكثر مِن مجرد علاقة خاصة، لقد كانت ولا تزال علاقة فريدة، وهي علاقة

لا يمكن تقويضها، لأنها متأصلة في وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكي نفسه، لقد أقام الرواد وأقوام تجمّعوا في كلا الشعبين: إسرائيل والولايات المتحدة.

إن شعبي الأمريكي، أمّةُ مهاجرين ولاجئين.. إننا نتقاسم وإسرائيل معاً، ميراث التوراة.

الإنجيليون المتجددون ـ الرئيس جيمي كارتر.

المراجـع حسـب الفصـول

المدخـل

١ ـ **تاريخ الكتاب**. د. ألكسندر شيب تشفيتس. سلسلة عالم المعرفة. الكويت ـ ترجمة د. محمد الأرناؤوط ١٩٩٣.

٢ ـ **السعي وراء العصر الألفي السعيد**. نورمان شون. إصدارات هاربر وراو. ١٩٦١.

٣ ـ **أعظم أحداث التاريخ**. إعداد موريس شربل. دار المناهل. بيروت ١٩٩٤.

الفصل الأول

٤ ـ **العهد القديم. سفر التكوين**. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٦٠.

٥ ـ **الوجيز في قصة الحضارة**. ول ديورانت. إيجاز د. غازي طليمات ـ الاصلاح الديني. دار طلاس. دمشق ١٩٩٨.

٦ ـ **اليهود**. الكاتبة هيلاري بولوك. بوسطن ١٩٢٢.

٧ ـ **عيسى ولد يهودياً**. من كتابات مارتن لوثر. ألمانيا ١٥٢٣.

٨ ـ **اليهود وأكاذيبهم**. من كتابات مارتن لوثر. ألمانيا ١٥٤٤.

٩ ـ **أصول التاريخ الأوروبي الحديث**. هربرت فيشر. ترجمة د. زينب راشد و د. أحمد عبد الرحيم مصطفى. القاهرة ١٩٦٥.

١٠ ـ **الصهيونية المسيحية**. محمد السماك. دار النفائس ١٩٩٣.

١١ ـ **البعد الديني في السياسة الأمريكية** د. يوسف الحسن مركز دراسات الوحدة العربية. ١٩٩٠.

١٢ ـ **الديانة اليهودية وتاريخ اليهود**. وطأة ٣٠٠٠ عام. إسرائيل شاحاك. شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. ترجمة رضى سلمان. ١٩٩٤ الطبعة الرابعة.

١٣ ـ **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم**. موريس بوكاي. دار المعارف المصرية ١٩٨٢.

١٤ ـ **الأصولية المسيحية**. الدعوة والدعاة. جورجي كنعان. بيسان للنشر. ١٩٩٥.

١٥ ـ **فكرة أمريكا**. بحث. منير العكش. مجلة جسور. واشنطن ١٩٩٨.

١٦ ـ **المسيحية والتوراة**. شفيق منقار. لندن ١٩٩٢.

الفصل الثاني

١٧ ـ **رد الاعتبار اليهودي في الفكر البروتستانتي الإنكليزي.** مائير فيريت. دراسات أوسطية ١٨٢٠. لندن.

١٨ ـ **البعث العالمي العظيم.** هنري فنش. لندن. ١٦٢٠.

١٩ ـ **تاريخ الديانة والمجتمع اليهوديين.** و. برون لندن ١٩٣٧.

٢٠ ـ **الفردوس المفقود.** شعر. جون ملتون. لندن. ١٦٢١.

٢١ ـ **الكتاب المقدس والسيف.** بربارة توخمان. لندن ١٩٥٧.

٢٢ ـ **الصهيونية غير اليهودية.** رجينا شريف. ترجمة أحمد عبد العزيز. عالم المعرفة. الكويت ١٩٨٥.

٢٣ ـ **الرؤيا كانت هناك.** فرانز كوبلر. لندن ١٩٥٦.

٢٤ ـ آداب **إنكليزية شهيرة.**

- تاجر البندقية. وليم شكسبير.
- يهودي مالطة. كريستوفر مارلو
- اليهودي ريتشارد كمبرلاند
- ايفانهو. وولتر سكوت
- القدس (مجموعة شعرية). وليم بليك.

٢٥ ـ آداب **أوروبية أخرى:** ـ

- أستير. جين راسين. فرنسا
- ناثان الحكيم. أبهرايم لنغ. ألمانيا.
- إميل. جان جاك روسو. فرنسا.

٢٦ ـ **أقوال لعلماء وفلاسفة كبار:** باسكال، فولتير، جوهان غوتفرايد، إيمانويل كانت، جوهان فيخته.

٢٧ ـ **أغاني عبرية.** بايرون /يوم الصليب المقدس. براونغ/.

٢٨ ـ **المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل.** محمد حسنين هيكل . الكتاب الأول.

٢٩ ـ **حال اليهود وآمالهم.** إيرل شافتسبري. لندن مجلة المراجعة الفصلية. مقالة ١٨٣٩.

٣٠ ـ **تاريخ الصهيونية.** ناحوم سوكلوف. لندن. ١٩١٩.

٣١ ـ **فلسطين تحت الانتداب.** ألبرب هايسون. لندن ١٩٥٠.
٣٢ ـ **الحركة الصهيونية.** إسرائيل كوهين. لندن ١٩٤٦.
٣٣ ـ **أرض جلعاد.** لورنس أوليفانت. لندن ١٨٨٠.
٣٤ ـ **الستارة الخلفية للمأساة.** ديفيد بولوك ١٨٨٧.
٣٥ ـ **آداب أوروبية تصب لصالح الصهيونية.**
ـ أغنية إلى يهودي متحول. وليم ووردز وورث. شاعر
ـ أسرة يهودية. للشاعر نفسه.
ـ دانييل بروندا. للروائية جورج إليوت.
٣٦ ـ **المواجهة بين عصر العقل وعصر الرؤيا.** بوب كين. لندن.
٣٧ ـ **يوميات هرتزل.** مارفن لوينثال. لندن. ١٩٥٦.
٣٨ ـ **التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي.** توماس تومسون. ترجمة صالح سوداح. بيروت ـ بيسان للنشر ١٩٩٥.
٣٩ ـ **كذب حضاراتنا التقليدية.** ماكس نوردو. فينا ١٨٩٥.

الفصل الثالث

٤٠ ـ **دراستان في الفضيلة.** كريستوفر سايكس. لندن ١٩٥٣.
٤١ ـ **بلفور كما هو في عيون ابنة أخته.** الدستور الأردنية ١٩٨٤/١١/٤.
٤٢ ـ **ونستون تشرشل والمشكلات اليهودية.** أوسكار رابينويك. لندن.
٤٣ ـ **وثائق السياسة الخارجية البريطانية.** وود ورد وبتلر لندن ١٩٥٢.
٤٤ ـ **ذكريات الحرب الأولى.** ستين فورد. لندن ١٩٢٨.
٤٥ ـ **مارك سايكس. حياته ورسائله.** شين ليزلي لندن. ١٩٢٣
٤٦ ـ **بنيامين دزرائيلي. نشأته وحياته.** جين رادلي لندن ١٩٩٥.
٤٧ ـ **إسرائيل الكبرى.** أسعد رزوق. مركز الأبحاث. ١٩٦٨.
٤٨ ـ **مباحث تاريخية متفرقة لعلماء وضباط إنكليز:** ـ
ـ أرض الميعاد. كابتن وارن.
ـ أبحاث وتنقيبات. كابتن ولسون.
ـ مستقبل فلسطين. الباحث كوندور.

- المدينة والأرض. وولتر بيسانت.

٤٩ ـ **صندوق استكشاف فلسطين.** الكاتبة والمؤرخة خيرية قاسميه. شؤون فلسطينية العدد ١٠٤ عام ١٩٨٠.

٥٠ ـ **اغتيال التاريخ.** حمدان حمدان. بيسان ١٩٩٧.

٥١ ـ **الفلاحون الفلسطينيون. من الاقتلاع إلى الثورة.** روز صايغ.

٥٢ ـ **تطور المجتمع في فلسطين ما بين ١٩٢٠و١٩٤٨.** محمد عرابي نخلة.

٥٣ ـ **تاريخ الهاغاناة.** دافيد بن غوريون. ١٩٥٤.

٥٤ ـ **فلسطين أرض الرسالات.** روجيه غارودي. ترجمة ميشيل واكيم وقصي أتاسي. ١٩٨٨.

الفصل الرابع

٥٥ ـ **الولايات المتحدة. طليعة الانحطاط.** روجيه غارودي، ترجمة مروان حموي. دمشق. دار الكتاب ١٩٩٨.

٥٦ ـ **سفر يشوع. الإصحاح الأول.**

٥٧ ـ **بيوريتانيّو ماساشوستس. من مصر إلى أرض الميعاد.** ترومان نيسلون.

٥٨ ـ **الحريات الدينية والتقاليد اليهودية في أمريكا الجديدة.** ريتشارد موريس.

٥٩ ـ **المسيحية والتوراة.** شريف مقار. لندن ١٩٩٢.

٦٠ ـ **أمريكا والأرض المقدسة.** سيلينغ آلدر ١٩٧٢.

٦١ ـ **إسرائيل في ذاكرة أمريكا.** بيتر غروس. نيويورك ١٩٨٣.

٦٢ ـ **مشاريع الاستيطان اليهودي.** أمين عبد الله محمود. الكويت. سلسلة عالم المعرفة ١٩٨٤.

٦٣ ـ **النبوءة والسياسة.** غريس هالسل. ترجمة محمد السماك. منشورات دار الدعوة الإسلامية.

٦٤ ـ **إشارات الأزمنة.** وليم سميث. الولايات المتحدة ١٩٦٦.

٦٥ ـ **المسيح آت.** وليم بلاكستون. الولايات المتحدة ١٨٩١ مراجع عدّة.

٦٦ ـ **سنوات التحدي.** ستيفن وايز. الولايات المتحدة ١٩١٨.

٦٧ ـ **إيضاحات بخصوص وعد بلفور.** لينوارد شتاين. المملكة المتحدة. لندن ١٩٦١.

٦٨ ـ **صهيون في أمريكا.** هنري فنجولد. نيويورك ١٩٧٣.

٦٩ ـ **صراعات الكونغرس الأمريكي والصهيونية.** روبرت فانك. نيويورك ١٩١٩.

٧٠ ـ **يومياتي في الجمعية الوطنية الفرنسية.** ديفيد ميلر ـ نيويورك ١٩٢٤.

٧١ ـ **الأقلية اليهودية في الولايات المتحدة.** مصطفى عبد العزيز. مركز الأبحاث الفلسطيني. ١٩٦٨.
٧٢ ـ **التصويت على قرار تقسيم فلسطين.** سمنر ويلز. بوسطن. دار ميلفن هاوتون. ١٩٤٨.
٧٣ ـ **روائيون أمريكيون.** موريس مندلسون. ترجمة زياد الملا. دمشق. دار الحصاد. ١٩٨٩.
٧٤ ـ **الكتاب السنوي للكنائس الأمريكية والكندية** ـ منشورات ادنجدون برس. ١٩٨٤.
٧٥ ـ **أمريكا المسيحية.** توماس ويلي. واشنطن ١٩٨٣.
٧٦ ـ **يهود لا صهاينة.** روث بلاو. ترجمة زكي حسن نسيبة. دار الكلمة. بيروت ـ ١٩٨١.
٧٧ ـ **وثائق.** مكتبة الكونغرس. واشنطن ـ ١٩٧٣.
٧٨ ـ **الدين المدني في أمريكا.** روبرت بيللا، الولايات المتحدة. ١٩٦٧.
٧٩ ـ **سياسات الكنيسة الأمريكية والشرق الأوسط.** بشير نجم. ١٩٨٢.
٨٠ ـ **الدعاية الصهيونية في الولايات المتحدة.** فايز صايغ ١٩٨٣.
٨١ ـ **إنذارات الله.** بيري يونغ. واشنطن ١٩٨٢.
٨٢ ـ **صحافة أمريكية:** ساندي تايم، واشنطن ستار، نيويورك تايمز، هيرالد تربيون، واشنطن بوست.
٨٣ ـ **الجحيم الأبله** ـ مارتن آميس. الولايات المتحدة. ١٩٨٧.

الفصل الخامس

٨٤ ـ **تقرير مجلس كنائس الشرق الأوسط.** كراسة دار الوحدة. بيروت ١٩٨٨.
٨٥ ـ **أخلاق الإنجيل.** ألبير باييه. باريس السوربون ترجمة د. عادل العوا.
٨٦ ـ **الأناجيل الأربعة،** متى، لوقا، مرقس، يوحنا.
٨٧ ـ **رسائل بولص الرسول،** أعمال الرسل، الرؤيا.
٨٨ ـ **اعترافات القديس أوغسطين.** دار المشرق. بيروت ١٩٩٦. ترجمة الخوري. يوحنا الحلو.
٨٩ ـ **حياة يسوع.** آرنست رينان. فرنسا ١٨٥٧.
٩٠ ـ **القرآن الكريم.** سورة آل عمران.

محتويـــات الكتـــاب